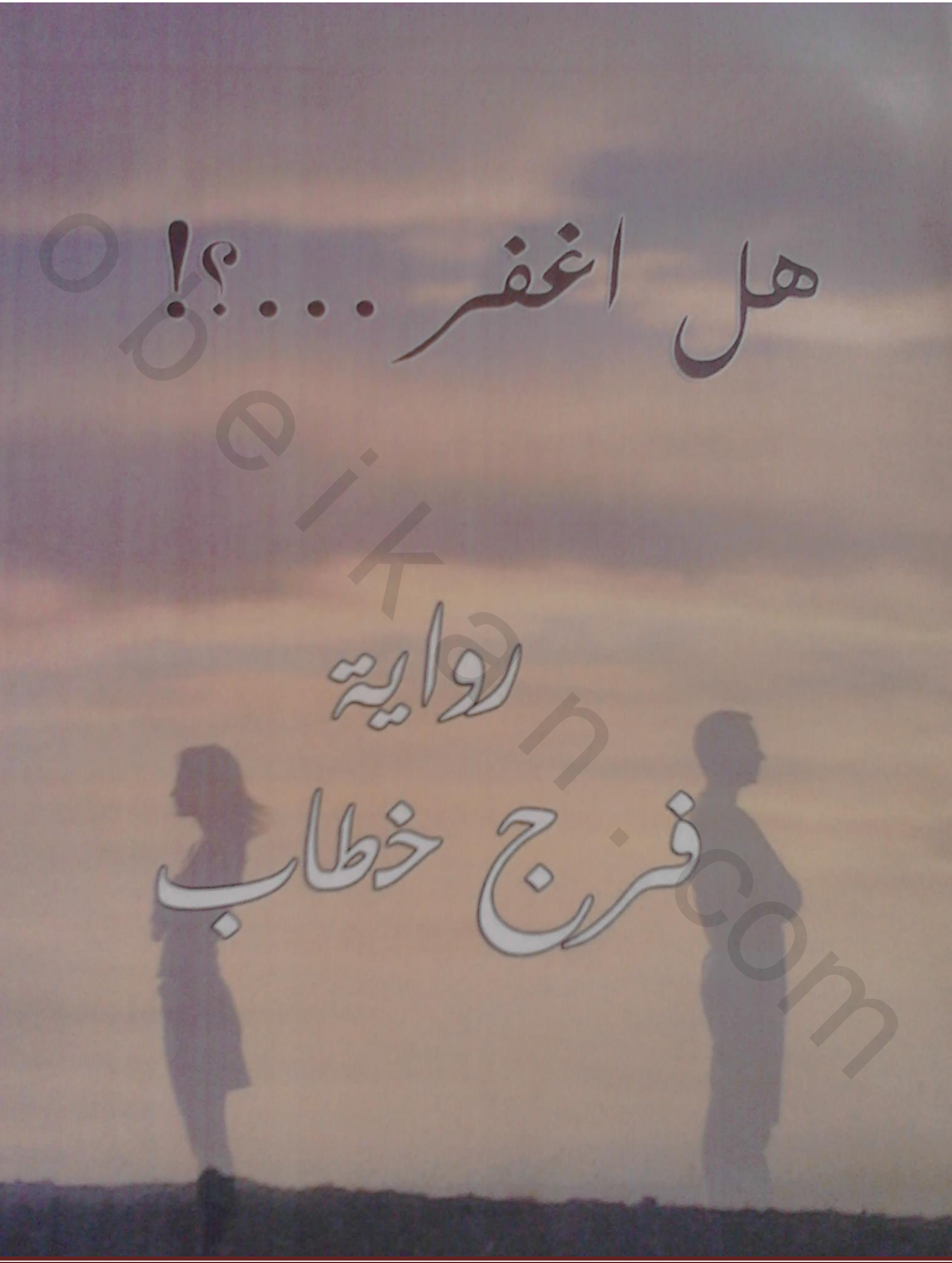

obeikan.com

هل أغفر ؟!

روايـة

فـرج خطاب

obeikan.com

obeikan.com

الإهـداء ..

إلي أسرتي الحبيبة ..

المـقدمــة :

ما أجمل الوفاء .....

وفاء الإنسان ..... لربه ..

وفاء الــزوج ..... لـزوجـــه ..

وفاء الصــديق ..... لصديقه ..

وفاء المواطـن ..... لوطنــه ..

الكاتب يرحب بالتواصل على البريد الإلكتروني

faragkhatab@yahoo.com

obeikan.com

الفصل الأول

عتاب رقيق

الأم هي الإنسانة الوحيدة

التي قد تنسي أن تدعي

لنفسها في صلاتها لأنها

تكون مشغولة بالدعاء لأبنائها

****

عندما

هم مدحت بالخروج من باب البيت .. فتحت الأم النافذة لكي تطمئن علي حال الطقس في الخارج ..

وما أن فتحت النافذة .. وأخرجت رأسها منها .. رافعة عينيها إلي السماء .. حتي عادت فأغلقتها ..

وقالت في قلق :

- **يا لها من ليلة موحشة ضبابية .. إن الضباب كثيف ثقيل .. ومن المؤكد أن الأمطار سوف تنهمر بعد قليل ..**

فقال مدحت باسما .. وهو يمازح أمه :

- **لماذا إذن لا تعملين في هيئة الأرصاد الجوية يا أمي ..**

وضحكا ..

وأمسك يد أمه في حنان .. ورفعها إلي شفتيه وقد مال بوجهه.. وقبلها في حب وإجلال قائلا :

- **ادع لي يا أمي .. فما أطيب دعاءك .. وما أحوجني إليه ..**

فقالت له أمه .. تذكره بالحقيبة التي أرسلت إليه من قبل أسرة صديقه كريم .. والتي تحوي بعض الملابس .. لكي يسلمها لكريم في القاهرة ..

- **لا تنسي حقيبة كريم ..**

obeikan.com

فقال لها مطمئنا لها :

- **نعم يا أمي .. سوف أعلقها من السير في كتفي .. وهي خفيفة .. وتحتوي فقط علي بعض الثياب ..**

وبينما هو يفتح الباب .. رآها تبسط راحتيها .. وتتجه بناظريها إلي السماء .. داعية له .. في رجاء و ابتهال إلي الله .. من أعماق قلبها :

- **اللهم نجح مقاصدك يا مدحت يا ابن بطني .. اللهم وفقه في دراسته .. اللهم حبب فيه خلقك .. اللهم ارزقه عدد حبات المطر .. وأوراق الشجر ..وذرات الحصي والحجر ..**

وانشرح قلب مدحت متفائلا .. كعادته .. حين تدعو له أمه ..

وخرج .. وأغلق الباب باسما ..

ولا زالت أمه تدعو له ..

وكان مدحت شابا ذات شخصية خليقة بأن تحب .. لطيفا .. خفيفا .. مرحا .. ورث عن أمه تلك المقدرة التي تفتح له القلوب بغير تكلف .. لما طبع عليه من الصفاء والوفاء.. وحسن العشرة والألفة ..

وكانت تعجبه هذه السمات في شخصية أمه ..

وكثيرا ما قال لأخته هند :

- **إن أمنا لطيفة كالملائكة .. فهي لا تغضب .. ولا أكاد أذكرها إلا راضية .. أوضاحكة .. مبتهجة !! ..**

فتقول له هند ..

وكانت تحبه كثيرا .. ربما أكثر من حبها لأبيها .. وأمها !!..

- **ولقد ورثت أنت عنها كل ذلك !! . .**

وكانت أم مدحت قد جاوزت الخمسين من العمر .. وها هي خريطة الآلام .. وقد أبدع الزمن في تشكيلها في صورة خطوط حفرت علي وجهها .. فبدت امرأة يثقل كاهلها الفقر والحرمان .. إلا أنه أبقي لها هذه الإبتسامة

التي لا تكاد تفارق وجهها .. وبريق الأمل ذاك الذي يشع من عينيها .. ولو أنها لم تعد تدري .. لم الأمل لا زال يصاحبها عنيدا .. كعنادها !..

ولا تفتأ تصارع .. صراعا مريرا .. لكي تبعد شبح اليأس عن قلبها .. وتزيل سحب الإنهزام والإنكسار من نفسها ..

وكانت قد رضيت عن طيب خاطر .. بحياتها .. وألفتها .. بل وأحبتها شاكرة .. حامدة ..

وكانت أقسي أيام حياتها وآلمها .. تلك التي أعقبت زواج جلال من المرأة الأخري .. وانقباض يده عنها .. مرغما .. فنزلت الضائقة ببيتها .. وانقطع جزء ليس بالقليل من النفقة التي كان يعطيها لها زوجها في أول كل شهر .. وتهددت الفاقة أسرتها البائسة .. وأجبرت علي الإستغناء عن كثير من أصناف المأكولات المكلفة .. واختزال النقود التي كانت تعتمدها لشراء الثياب .. والأدوات المنزلية .. وحتي الفاكهة ..

وما ضاق صدرها .. وما غضبت .. فهي قانعة برزقها .. ورزق أسرتها .. ولم تنزو بعيدا عن الدنيا .. والناس ..

كما لم يكن للفقر أي أثر سلبي في نفسها ..

وكان عالمها لا يتعدي نطاق زوجها.. وأولادها الأربعة .. ولدين وبنتين .. فلا عم لهم .. ولا عمة .. ولا خال لهم .. ولا خالة ..

فلم تكن منيرة .. ولا حتي زوجها .. من أهل الفيوم .. بل كانوا من القاهرة ..إلا أن الأسباب بأهلهما قد انقطعت .. ربما لضيق ذات اليد .. وليس لخلافات .. أو مشاكل .. أو جحود .. أقول أن السبب قد يكون عدم إمكانيات السفر والتزاور .. وهو ما يجعل الأقارب يكتفون بالإتصال التليفوني .. للإطمئنان .. وحتي مع مرور الزمن .. يقل الإتصال تدريجيا .. حتي ينقطع .. أو يكاد ..

أما جيرانها من أهل الحي .. فكانت تتمتع بينهم بخفة الروح والدعابة اللطيفة .. واللسان الحلو .. وألفت النسوة .. وألفنها ..

وأما الزوج فكان يأتي في الزيارة الأسبوعية .. كما الضيف ..
وكان ذلك قبل أن يتزوج الزوجة الثانية .. فأصبح يأتي ربما مرة كل شهر .. وهو ما جعلها محور البيت الأول .. والتي تقوم بدور الأب .. في معظم الأحيان ..
وابتسمت أم مدحت .. بمرارة .. عندما تذكرت زوجها ذات يوم وهو يسأل ابنته الكبري " هند " :

- **قولي لي يا هند .. انت في سنة أيه ؟!**

سألها هذا السؤال .. وهو لا يلتفت إليها .. بل كان مشغولا في " لف " السيجارة !! .. فكانت عيناه مركزتان علي لفافة " الأفيون " الموضوعة أمامه علي الطاولة الصغيرة .. وقد أمسك بيد ورقة " البفرة " .. وبيده الأخري ..بين أصابعه .. يتناول قطعة من الشيء الموجود باللفافة والذي يبدو وكأنه قطعة شيكولاته .. ويفرمها بأصابعه ويوزعها علي ورقة البفرة .. ويخلطه بالتبغ .. ثم يلفها .. وقد تم توزيع القطعة عليها كلها .. ثم يبلل طرفها بريقه .. بطرف لسانه ..
ثم يبرم الطرفين وقد التصق كل طرف .. وأخذت ورقة البفرة شكل السيجارة .. وها هو يعود للخلف قليلا في جلسته .. ويسند ظهره علي الأريكة .. و يشعل السيجارة .. التي استقر طرفها في فمه .. ويلقي برأسه للخلف حتي تلتقي بمسند الأريكة .. ويأخذ نفسا من السيجارة..
وينظر إلي أعلي .. ويجول بعينيه في أرجاء الغرفة .. لا يلوي إلي شيء .. وينفث الدخان الكثيف من فمه .. فينساب في شريط متصل من بين شفتيه .. فتقفز السعادة من بين ضلوعه .. وتشع عيناه في نشوة لا حد لها .. أهي سعادة وهمية .. تهرب إليها النفس من شقاء الواقع ؟! .. ربما .. و ربما كان يشعر حينئذ أنه سلطان زمانه ..

ولكثرة التدخين .. فقد تسلط عليه التخدير .. فثقلت جفونه واحمرت عيناه ..وشعر بأن إرادته فقدت سلطانها علي أعضائه .. ولم يعد متمالكا زمامه ..وزاغ بصره .. فراح يجول في فضاء الغرفة .. لا يلوي إلي شيء .. وكان كلما التقت عيناه .. بهذه الصورة .. المعلقة علي الحائط المواجه للأريكة .. عاد إلي الماضي ..

أيام اليسر .. ورغد العيش ..

أيام زهوه بشبابه .. وبداية ارتباطه بوظيفته الميري !!

قبل أن يأتي غول الأفيون .. ويلتهم دخانه معظم المرتب الشهري الذي كان يتقاضاه .. مقابل عمله في وزارة الداخلية ..

وقبل أن تتحول حياته .. وحياة أسرته .. إلي قطعة من الجحيم ..

جحيم الفقر .. والعوز .. والحرمان ..

إنها صورة زفافه .. مع عروسه .. وحبيبته .. منيرة ..

وقد وقفت منيرة معتمدة بساعدها مسند كرسي كبير .. في فستان زفاف أبيض طويل .. يشتمل عليها من العنق إلي القدمين .. منحسرا عن ساعديها .. بقامة طويلة .. وجسم نحيل .. وعينين واسعتين .. تقطران حيوية .. وحنانا .. وتتألقان أملا .. وسعادة ..

وكانت هذه الصورة .. هي المظهر الوحيد .. الباقي .. من مظاهر أيام زمان !! .. والتي حرصت منيرة .. علي الاحتفاظ بها .. رغم كل شيء ! .. كما كانت هناك رزنامة مثبته إلي الحائط بمسمار .. كانت تشير إلي اليوم الثالث من شهر مارس .. سنة 1964 م ..

أما الحائط .. فكان من القدم بحيث كلح وانقشر عنه الجير .. من طول ما استكنت به الرطوبة .. فانكشف عنه القرميد .. في بقع لطخت مساحات كبيرة من الحائط ..

ولم يكن السقف بأفضل حال من الحائط .. فكانت الأدخنة المنبعثة من السراج المضاء بالكيروسين .. كانت هذه الأدخنة قد صبغت مساحات كبيرة

من السقف باللون الأسود .. وكأن حريقا كان قد شب منذ زمن .. مخلفا وراءه في السقف هذه البقع السوداء !! ..

ولكم صبرت منيرة وتجلدت .. عسي أن تصلح الأيام ما فسد من حال زوجها .. فيتوقف عن تدخين الأفيون ..

فلم يكن يزداد إلا فسادا ..

حتي أنه أصبح .. مع ضيق المعيشة شيئا فشيئا .. أصبح نزقا .. ضيق الصدر .. سريع الإنفعال .. سريع الغضب .. ولو أن غضبه كان سرعان ما يتلاشي .. وتحل محله طبيعته .. حيث الهدوء والسكينة ..

ولزمت هند الصمت ..

واكتفت بمشاهدة أبيها وهو يفعل ما يفعل ..

ويدخن ما يدخن ..

هي لا تعرف لماذا يفعل أبوها ذلك بقطعة الشيكولاته هذه التي وضعها أمامه .. وهو يدخن بعضها !! ..

إلا أنها قد خبرت أن أباها يخرج عن التصرفات الطبيعية .. كلما دخن هذا الشيء ..

فقد يضربها .. أو ينهرها .. أو ينفجر ضاحكا !..

كل ذلك يحدث بلا سبب .. ولا مبرر ..

إنها تكره هذا الشيء ..

إنها تكره دخانه اللعين الذي يملأ فضاء الغرفة .. برائحته الكريهة ..

ووقفت تنظر إلي أبيها ..

إنه لا يركز علي شيء .. لقد سأل سؤالا مر بخاطره أن يلقيه عليها .. كما أنه ليس بحاجة إلي إجابة ..

إن البنت .. رغم صغرها .. تدرك أن أباها مشغول عنها .. بما يفعل .. وبعيد عنها كل البعد ..

حتي أن هذا الشيء الذي يفعله .. يستغرقه بالكامل .. فلم يعد يراها .. ولم يعد يري شيئا في الغرفة .. سواه !

إنه ليس بعيدا عنها هي فقط .. إنه منفصل عن العالم كله من حوله ..

إلا من هذا الشيء الذي يدخنه .. وينفث دخانه في فضاء الغرفة ..

وكرهت هند رائحة هذا الدخان الغريب ..

كما كرهت الحالة المزرية التي يكون فيها الأب .. وهو يملأ فضاء الغرفة بهذا الدخان اللعين ..

وتذكر الأب أن ابنته لم تجبه علي ما سأل ..

وأعاد السؤال .. بينما كان شريط الدخان ينساب من بين شفتيه .. موجها هذه المرة إلي وجهها في كتلة واحدة ..

فما لبثت أن أغمضت عينيها بعد أن أصابهما الدخان .. ونفضت وجهها .. وكأنها تنفض عنها الدخان .. وأخذت تسعل ..

فقد انسل بعض من الدخان من خلال أنفها ..إلي جوفها ..

وانفجر الأب ضاحكا في ضحكات طويلة مستفزة ..

والبنت صامته ..إلا من السعال ..

لا لأنها لا تعرف بم تجيب .. بل لأنها لا تعرف كيف تحتج علي ما يفعل أبوها .. وقد آذي الدخان عينيها ..

ودخلت الأم حاملة صينية صغيرة من البلاستك .. ومن فوقها وضعت كوبا من البلاستك .. به ماء .. وقدح شاي .. كانت قد أعدته لزوجها ..

وقد سمعت هذه الضحكة التي بلغ رنينها كل أرجاء البيت ..

وتساءلت في دهشة .. بينما كانت تضع الصينية علي الطاولة الصغيرة التي وضعت أمامه .. وقد أشرق وجهها بابتسامة عريضة :

- **فيم هذه الضحكة الرنانة ؟! ..**

فأجاب مقهقها .. وقد لمعت عيناه .. وفتح فاه حتي ظهرت أسنانه التي أخذت اللون البني الذي يميل إلي السواد .. من فعل التدخين .. وربما أيضا بسبب عدم الإهتمام بالنظافة .. فلم يكن يفرش أسنانه أبدا !! :

- **تخيلي أن ابنتك لا تعرف في أي صف هي ؟!**

واستنكرت الأم طريقته في الحوار .. كما استنكرت تهكمه علي البنت الصغيرة ..

وبينما همت بالإجابة بدلا عن هند .. أجابت الأخيرة في احتجاج .. ولكن بصوت خفيض :

- **يا بابا .. كيف لا أعرف ؟! .. إنني في الصف الخامس الإبتدائي ..**

ولا زال ضاحكا ضحكته السمجة ..

ورفع القدح .. وتناول منه رشفة .. محدثا صوتا وكأنه يتلذذ بارتشاف الشاي .. مع نفس الدخان ..

وقال في نفس اللهجة التهكمية .. متوجها إلي زوجته :

- **هل رأيت يا منيرة .. إن هند تقول أنها في الصف الخامس الإبتدائي ..**

ثم التفت إلي هند قائلا .. في شبه سخرية :

- **ألم تقولي يا هند أنك في الصف الخامس الإبتدائي .. عندما سألتك المرة السابقة ؟! ..**

آه .. الآن فهمت .. لقد رسبتي إذن يا هند .. العام الماضي ..

ولا تدري هند كيف انفجرت ضاحكة .. وهي تضرب كفا بكف .. وكأنها ترد سخرية بسخرية .. دون أن تدري ..أو تتعمد ذلك .. فهي ضحكة بريئة .. وليدة الموقف ..

وقالت . . وقد اختلطت ضحكاتها مع الكلمات :

- **يا أبي .. لقد كان ذلك في الشهر الماضي .. عندما سألتني هذا السؤال .. وليس العام الماضي ..**

وصمتت قليلا ..

ثم أردفت .. وهي تتجه صوب الباب ..

وكانت لا زالت تضحك ..

- **لقد أصبحت تنسي كثيرا يا أبي !**

فقال منفعلا غاضبا .. وقد مد يده صوبها .. ليضربها :

- **أخرجي من هنا يا حيوانة .. هل تعني أنني قد أصبت بالزهايمر ؟!**

فوثبت هند مهرولة نحو الباب .. كأنما تفر من لسان لهب .. امتد إليها فجأة .. وغادرت الغرفة قبل أن تبلغها يد أبيها بالضرب .. بينما اتجه بالحديث إلي زوجته يشكو إبنته ..

ولا زال يتهكم :

- **هل هذه هي التربية يا منيرة .. أهكذا تتحدث البنت مع أبيها ؟!..**

وكانت منيرة قد أخذت مكانها إلي جواره .. وجلست تراقب ما يحدث بابتسامتها .. وهدوئها ..

وقالت لتخفيف وقع الموقف .. واستدعاء الهدوء إلي جو المكان ..

- **هون عليك يا جلال .. فلا زالت هند صغيرة ..**

و استطردت .. في إشارة إلي الأفيون ..

- **وأنت نفسك تعرف أنك حين تدخن هذه اللفائف اللعينة .. تأتي بتصرفات غريبة .. وفعلا .. أحيانا يصيبك ما يصيبك من النسيان ! ..**

وربما .. بدا التناقض في طباعك .. أحيانا ..

وما أكثر ما وعدتني أن تتوقف عن تدخين الأفيون .. دون جدوي ..

وتوقفت قليلا .. ثم وجهت إليه الحديث بنبرة أكثر رقة وتوددا ..

- **يا جلال يا حبيبي .. لقد أصبح لك زوجة أخري .. وازدادت مسئولياتك .. وتضاعفت أعباؤك ..**

كما أن أولادنا أصبحت التزاماتهم في زيادة مستمرة ..

وراتبك لا زال كما هو .. ضعيف .. ضعيف ..

إنه أضعف من أن يتحمل كل هذه النفقات .. ولا طاقة لك بالاستمرار في تدخين الأفيون .. فلماذا تثقل علي نفسك وعلينا ؟! ..

انظر .. فهذه هي الحياة .. تحت بصرك .. كل الضربات القاسية قد سددتها إلينا .. ولم تبخل بها علينا .. ولم تضن علينا بها .. حتي كادت أكتافنا أن تنوء بما تحمل !! .. وتكاد ظهورنا أن تنكسر تحت وطأتها ..

وصمتت قليلا تتأمل عينيه الذابلتين .. بفعل السنين .. ولمر الأنين ..

ثم أردفت .. في محاولة لامتصاص غضبه .. وتحويل مجري الحديث ..

فهي تعلم جيدا أنه لن يجيب تساؤلاتها .. ولن يتوقف عن التدخين ! :

- **هل الشاي " مظبوط " ؟!**

فرفع قدح الشاي وارتشف رشفة أخري ..

وصمت لبعض الثواني .. ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة وشت بامتنان ..

وقال .. وهو لا يزال رافعا القدح :

- **يا سلام ! .. هذا هو الشاي وإلا فلا ..**

ثم وضع القدح علي الصينية فوق الطاولة .. وكأنها لم تقل شيئا عن التدخين .. وعن ظروفهم الصعبة التي في حاجة إلي مراجعة .. واهتمام .. وكأن شيئا لم يكن !! ..

وقال مداعبا منيرة :

- **طول عمرك " أميرة " والله يا منيرة ..**

ثم أطال النظر في عينيها الباسمتين أبدا .. واستطرد :

- **بالمناسبة .. لماذا لم يطلق أبوك عليك اسم " أميره " .. بدلا من اسم " منيرة " ؟! .. أم هي أمك التي أسمتك ؟!**

وأخذ يضحك .. حتي أن جسمه كان يهتز .. مع ضحكاته ..

ولا زال ينظر إلي عينيها .. وكأنه ينتظر منها ردا علي هذه المداعبة ..وبنفس الروح الطيبة التي اتسمت بها منيرة .. وفي استجابة لمحاولة المداعبة التي أرادها جلال ..

فقد اتسعت عيناها وازدادت بريقا .. ومن خلال ابتسامة زادتها إشراقا .. قالت .. ولا زالت تبادله نظرات العيون ذات الدلالة :

- **أ إذا كان أبي قد أسماني " أميرة " .. ألم تكن لتتزوج مرة أخري .. وتجعل لأولادنا زوجة أب ؟! ..**

وكانت الإجابة ليست في الاتجاه المنشود ..

ورانت لحظات من الصمت ..

وشغل جلال نفسه بارتشاف آخر رشفة من الشاي ..

وبدا وكأنه يبحث عن الكلمات ..

ولم يكن من الصعب أن تشعر منيرة أنه في مأذق ..

فقد غابت الابتسامة عن شفتيه .. وزاغ بصره ..

فقالت باسمة .. في محاولة للخروج به من هذا العبوس :

- **لا تعبس يا جلال .. فأنت تعلم أنني إنما أمزح ..**

وكانت منيرة دائما مرحة .. لا تميل إلي العبوس .. فكانت عيناها تتألقان بنور السرور البهيج .. والرضي .. وكان لسانها يسبح بالحمد والشكر .. وكان يسعدها أن تشعر بانتقال هذا السرور والرضي .. إلي صدور أبنائها ..فلا تجد فيهم مسحة اكتآب .. أو نزعة تمرد ..

وبذلك كانت تسعي إلي رضي الله .. عز وجل .. فإذا رضي .. فسيكون الفتح عظيما .. إن شاء الله ..

فقد كانت تؤمن بالقول " لا تعبدوه ليعطي .. بل أعبدوه ليرضي .. فإذا رضي .. أدهشكم بعطائه " ..

وأعادت هذه الكلمات جلال إلي ثباته .. وهدوء نفسه ..

واستدار قليلا لكي يكون في مواجهتها .. وفي لطف .. أمسك جلال يدها .. ورفعها .. ومسها بشفتيه مسا رقيقا ناعما .. وقبلها متشوقا .. ثم احتضنها بين راحتيه .. وقال هامسا :

- **وأنت تعلمين أنني أحبك ..**

ولم تكن منيرة تدري .. ما سر هذه الموجة الدافئة التي سرت في جسدها .. فقد اعتراها تيار كهربائي قوي سري من يديه إلي جسدها .. حين مس يدها بشفتيه الدافئتين !! ..

أهي حرارة يدي جلال الذي احتضنت راحتاه يدها في حنان ..

أم أنها انبعثت من قلبها .. دفئا و مودة وعواطف جياشة مذهله .. بعد سماع هذه الكلمات منه .. فأنستها الزمان .. والمكان ..

وكان شعورا طاغيا ارتعش له جسدها كله ..

وصمتت قليلا .. وهي ترفع ساقها اليسري من فوق الأرض .. لتستقر فوق الأريكة مع الساق اليمني .. وقد جلست متربعة في مواجهة زوجها ..

و انحسر القميص القصير الذي ترتديه .. فكشف عن جانب غير قليل من ساقيها ..

وفي ثواني .. كانت عينا جلال قد التهمتا كل ما وقعتا عليه مما انكشف من جسدها .. التهمه التهاما !!..

وتساءل جلال بينه وبين نفسه ..

" أيتها الجميلة الخبيثة .. هل فعلت ذلك عامدة لأنك تعلمين أنني إنما أموت في جمال ساقيك ؟! .. أم أنك غير عامدة ؟! .. أراهن أنك عامدة !!.. وعيناك تشيان بذلك " ..

وابتسم .. دون أن ينبس بكلمة ..

قالت .. وكانت عيناها تغوصان في بحر عينيه .. والشوق ينفجر فيهما !! وقد اتسعت شفتاها بابتسامة عريضة :

- **كم ؟! .. كم تحبني ؟! ..**

قال .. مؤكدا :

- **كما لم أحب أحدا ..**

قالت .. وقد أمعنت عيناها في الإبحار :

- **وماذا ؟! .. ماذا أحببت مني ؟! ..**

فضحك جلال كثيرا .. وقال في نفسه " إنه وقت الشقاوة إذن يا ست منيرة .. لقد علمت ذلك من عينيك مسبقا " ..

وقال .. وكأنه يريد أن يعلمها أنه يفهم ما ترمي إليه :

- **أه .. ماذا أحببت منك .. فهل ترين إذن .. أن هنا هو المكان المناسب ؟!! .." مشيرا إلي الأريكة التي يجلسان عليها " .. وأن هذا هو الوقت المناسب .. لمثل هذه الشقاوة ؟! ..**

لقد كانت تسأله هذا السؤال من قبل .. منذ زمن بعيد .. في شهر العسل .. بينما هما علي الفراش .. وقد أودعت في هذا السؤال كل شقاوتها .. حتي يتغزل فيها .. وفي جسدها .. علي قدر استطاعته !! ..

إلا أنه عندما كان يرغب في إثارة حنقها وإغاظتها .. كان يقول لها مجيبا علي هذا السؤال :

- **أحببت فيك ذكاءك .. ورجاحة عقلك !! ..**

فتغتاظ .. وتقول له :

- **فقط ؟!! ..**

وتضربه برفق بقبضة يدها .. أو قد ترميه بالوسادة .. إذا كانت في متناول يدها .. في ذاك الوقت ..

وضحكا .. وقد صفا الجو .. وشاع بالبيت الرضي .. والود .. والسكينة .. وسرها أن تكون قد أدخلت السرور إلي قلبه ..

وأعلنت تنازلها عن السؤال .. وعن الإجابة ..

وكأنها شعرت أن الوقت مناسب لعتاب رقيق ..

فقالت وقد اتسعت ابتسامتها .. وازدادت عيناها صفاء وإشراق :

- **إنك لم تعد تحبني .. وإلا لما تزوجت بزوجة أخري ! ..**

وأشارت بأصبع يدها اليمني السبابة .. إلي قلبها .. واستتلت :

- **أما أنا .. فلا زلت أحبك.. وإلا لما أبقيت نفسي زوجة مخلصة لك ..**

ولم يزل محتفظا بيدها اليسري بين راحتيه ..

ثم أردفت مازحة .. باسمة :

وقد أطبقت قبضتها اليمني .. وجعلتها قريبة من فمه .. وكأنها تمسك مايكروفونا وتطلب منه الحديث أمام الكاميرات ..

- **هيا اعترف !! ..**

وكان قد خرج من عبوسه .. وشعر أنها إنما ترغب في إشاعة جو من الود والحب في نفسيهما .. وقد سره ذلك كثيرا .. فقال باسما .. مشتركا في اللعبة التي تريد أن تلعبها معه .. :

- **ألو .. ألو .. بماذا تريدين أن أعترف يا سيدتي ؟!**
- **تعترف أمام الجمهور بأنني أحبك !!.. وأما أنت فلا !!**

وكان يسعده كثيرا أن يسمع منها هذا الحديث الطيب .. والكلمات الرقيقة التي تشيع بينهما لحظات الإنسجام والعواطف الجياشة .. وتعيدهما إلي ذكريات عزيزة عليهما كليهما ..

وسالت الأشواق حديثا فياضا .. لا ينضب معينه .. وانثالت عليهما الذكريات والخواطر .. وشكا كل همه .. وامتزجت الدموع بالبسمات ..

قال لها بعطف شديد :

- **أنت تعلمين أنني والله لأحبك حبا يملك علي نفسي .. وأنه ما من غيرك يملأ قلبي .. ولا لغير رضاك أحيا !**

ثم صمت قليلا .. وزفر .. وقال مستعطفا :

- **إعلمي يا منيرة .. أنني ما رأيت غيرك زوجة تحسن العناية بزوجها ..**

أو تسهر منتظرة مقدمه.. مثل ما تفعلين .. أما مسألة الزواج الثاني .. فهي نصيب .. وقدر .. ألا يقولون أن " المكتوب علي الجبين .. لازم تشوفه العين " ؟! ..

فقالت في دلال .. :

- **ويقولون أيضا .. ما جعل الله لامريء في جوفه من قلبين!.. إنما هو قلب واحد إذن .. فمن منا تملأ هذا القلب ؟!**

فرد عليها بنفس حجتها .. قال :

- **صدقت .. إن لي قلب واحد .. هو غرفة واحدة .. وقد ملأتها أنت .. فلا غرف أخري به .. لا للتمليك .. ولا للإيجار !**

فابتسمت ابتسامة عريضة .. ومالت بوجهها نحو وجهه .. حتي اقتربت عيناها من عينيه .. محملقة فيهما .. بتألق .. وقالت مازحة .. وكأنها ترغب في أن تهمس له في أذنه :

- **وهل مطلوب مني أن أصدقك ؟! ..**

ورد ضاحكا .. وقد أعادت له ذكريات أيام و ليالي سعيدة .. كان الحب فيها من أشهي ما يكون .. حين كان لا يتحمل الإثارة وهي تهمس له في أذنه .. وقد بلغت الشقاوة منها كل مبلغ !:

- **ليس أمامك إلا أن تصدقيني .. فلقد كان لنا من الذكريات الرائعة .. ما يكفينا العمر كله .. ولقد كنت لي .. ولا زلت .. حبيبتي .. وزوجتي .. وابنتي ..**

وأعجبها ما تسمع .. وأحبت أذناها أن تسمع منه المزيد ! .. وازدادت إمعانا في الدلال ..

قالت:

- **أسمع كلامك .. أصدقك .. وأشوف أمورك .. أستعجب !!**

وشعر في نبرتها تلميحا إلي زواجه الجديد ..

فقال مدافعا عن نفسه :

- **يا منيرة .. لا تحاولي إلقاء اللوم .. كل اللوم .. علي أنا وحدي .. فأنت .. ولاشك .. تتذكرين كم من المحاولات التي حاولتها معك أن تنتقلي معي إلي مكان قريب من مقرعملي الجديد .. أنت والأولاد .. دون جدوي .. وكنت ترفضين متعللة بظروف الأولاد .. ومدارسهم .. وكأنه لا يوجد مدارس في ذاك البلد ..**

وصمت قليلا .. ثم أردف :

- **ولعلك أيضا تذكرين يوم أن قلت لك أنني لا أستطيع أن أدبر لنفسي الحياة الطبيعية هناك .. قريبا من مقر عملي الجديد .. بدون زوجة .. ترعاني وتوفر لي الخدمات العادية التي يطلبها أي زوج ..**

فهل أغسل ملابسي .. وأطهو الطعام .. وأعد كل لوازمي .. وأجالس نفسي . . ألم نتحدث في كل هذا .. قبل أن أتزوج ؟!

قالت .. ولكن في ندم شديد:

- **كنت أعتقد أنك تستطيع مع ذلك صبرا !**

قال متسائلا :

- **أصبر .. نعم .. أستطيع أن أصبر .. ولكن .. لكم من الوقت؟!**
- **ذلك يعلمه الله!**

قال .. وقد ألقي اللوم كله عليها :

- **حتي عندما أخبرتك بأن هناك من يرشح لي عروسا لأتزوجها .. هل تذكرين الحديث الذي دار بيننا في ذلك اليوم ؟!**

قالت كمن يعترف بالذنب .. ويقر بالخطأ :

- **أجل !!**

قال منتصرا ! :

- **لقد سألتني " هل هي جميلة " .. قلت لك " كلا " .. فقلتي لي " أليست أجمل مني " ؟! .. قلت لك " إني لا أري من النساء من هي أجمل منك " ..**

فما كان منك إلا أن قلتي قولا عجبا !! .. فقد قلتي لي : " إذن تزوجها " .. !!.. أمعقول هذا ؟! ..

وحتي بعد أن تزوجت من سامية ..

لا زلت أذكر يوم أن سألتني " ألا تحبها ؟! " ..

أجبتك وأنا ألف خصرك بيدي وأحتضنك : " لا أحب سواك " .. ولكن لا تنسي أنها أيضا زوجتي .. ولها حقوقها .. ومن ضمن هذه الحقوق .. أن أعدل بينكما ..

كانت منيرة تنصت إلي جلال في دهشة .. إنه يتذكر الحديث وقد حفظه عن ظهر قلب ..

و كان جميلا أن يروي لها ما دار بينهما من حديث في ذاك الوقت ! ..

قالت وقد استسلمت .. أما ابتسامتها فقد كانت عريضة .. تشي بالسعادة ! وهي لا زالت تلاطفه :

- **أري أن ذاكرتك قد انتعشت !**

اقترب منها .. ولف ذراعه حول كتفها .. ولا زالت يده الأخري تحتضن يدها.. وقال في تودد :

- **وهل أنسي ذكريات الأيام الخوالي ؟! .. إنني لا زلت أتذكر مندهشا .. كيف قلتي لي يومئذ " إذن تزوجها ! "**

قالت والندم يمزقها :

- **كنت أعتقدك مازحا !!**
- **بل إنه النصيب يا منيرة .. فلنرضي بقدرنا ..**

قالت مداعبة .. وكأنما ترغب في أن تخرج من الأسي والندم :

- **والآن .. ماذا تريد مني ؟! .. إذهب إليها .. فلا أراك بقادر علي فراقها !!**
- **بل لأبيتن هنا الليلة .. و ليلة غد .. وليكن من أمر رئيسي في العمل ما يكون !! .. فما يهمني هو أنت !**

وسألت في خبث :

- **وليكن من أمر " سامية " ما يكون ؟!**

وضحكت ضحكة لها رنين .. هو فقط يعلم مغزاها ! ..

وهم أن يقول لها " أيتها الزوجة الخبيثة .. أترين أنني أخشي زوجتي الثانية .. " سامية " ..ألا أيتها الماكرة !.. هيا اعترفي أنك تغارين !"

إلا أنه عدل .. فقال متحديا !

- **وليكن من أمرها ما يكون !!**

وهكذا .. كانت دائما ما تمسح عن صدره الحزن .. بلطفها .. ودعابتها .. وتفاؤلها .. وخفة روحها ..

وضحكا .. وكان الضحك من القلب .. وملأ رنينه فضاء البيت .. وجاءت علي أثره " سميحه " .. إبنتهم الصغري .. ومن خلفها " هند " ..

واستقبلتهما الأم .. موجهة الحديث إلي هند .. قالت :

- **تعالي يا هند .. بابا يريد أن يصالحك !!**

فمد الأب زراعيه لكي يحتضن هند باسما .. وقال :

- **تعالي يا هند .. ألا زلت غاضبة من بابا ؟!**
- **أجل !**

فرفعها .. و أجلسها علي حجره .. وقبلها قائلا :

- **ولماذا هذا القلب الأسود ؟!**

قالت هند ضاحكة :

- **نعم يا أبي .. لقد هممت أن تضربني .. وصحت بي .. قائلا " محاولة أن تأتي بصوت غليظ .. يحاكي صوت أبيها .. علي سبيل المزاح " .. :**
- **أخرجي من هنا يا حيوانة .. هل تعني أنني قد أصبت بالزهايمر ؟!**

وضحك الجميع ..

ثم نهضت الأم .. موجهة الحديث إلي بناتها قائلة :

- **هيا يا بنات .. فلنعد طعام العشاء .. واتركا أباكما .. عله يرغب في أن يأخذ قسطا من الراحة قبل تناول طعام العشاء ..**

obeikan.com

وخرجتا .. وأغلقتا الباب ..

ولما وجد جلال نفسه وحيدا أخذ يبحث عن شيء يشغل به وقت فراغه .. ومد يده في جيب " الجلباب " الأبيض .. الذي يرتديه .. وأخرج الغليون .. ووضعه علي الطاولة .. ثم أخرج من الجيب الأخر .. أدوات تنظيف الغليون .. وأخذ يدندن بصوته الجهوري .. من أغاني أم كلثوم .. التي يعشق الإستماع إلي كل أغانيها .. مقاطع من أية أغنية تجول بخاطره .. مقطع من هنا .. ومقطع من هناك .. وأغنية من هنا .. وأغنية من هناك .. وهو عاكف علي تنظيف الغليون .. ويعيد التنظيف .. مرة تلو المرة .. وتناهي إلي أذنه طرق بالباب .. وصوت إبنه مدحت يطلب الإذن بالدخول :

- **بابا .. أ أنت مشغول في شيء .. أم يمكنني الدخول ؟!**

فنظر صوب الباب .. مجيبا :

- **ادخل يا مدحت .. فيم انشغالي ؟! ..**

ودخل مدحت .. حاملا بعض الكتب .. فبادره أبوه متسائلا :

- **أين كنت ؟!**

قال .. مشيرا إلي الكتب التي يحملها .. متخذا مكانه إلي جوار أبيه علي الأريكة :

- **كنت أستذكر دروسي عند صديقي " كريم " ..**
- **وهل كريم هذا تلميذ مجتهد ؟!**
- **جدا يا أبي .. ومتحمس للدراسة ..**
- **تقصد كريم ابن الشيخ مصطفي ؟! ..**
- **نعم يا أبي ..**
- **أعتقد أن الشيخ مصطفي له من الأولاد واحد فقط ..**
- **أجل .. هو كريم .. وله من البنات خمس بنات .. كبراهن " منال " .. تدرس معنا في نفس الصف .. الصف الثاني الإعدادي ..**
- **إنها أسرة عريقة يا مدحت ..**

- أجل .. يا أبي ..

وجاءت الأم معلنة الإنتهاء من إعداد العشاء .. وأن ممدوح .. الإبن الأكبر .. قد وصل ..

كان ممدوح يعمل مدرسا لطلاب المرحلة الابتدائية .. وقد تخرج في مدرسة المعلمين ..

لا صديق له أو رفيق .. حياته هي أحلام شارده .. سخيفة ..

يقطرخجلا ..

وقد امتلأ قلبه حبا للذات .. وأنانية مطلقة .. كما امتلأ رأسه جهلا بالدنيا .. وما فيها .. فلا زمان .. ولا مكان .. ولا سياسة .. ولا رياضة ..

كما لم يخرج قط عن دائرة نفسه الضيقة ..

فكان من يعرفه .. يشفق علي التلاميذ الذين عليهم أن يتلقوا دروسهم علي يديه ..

كانت مشكلة ممدوح أنه لا ينفك عن التفكير فيما ينقصه .. فيعميه ما يتطلع إليه .. عما أنعم به عليه ..

فلم يكن ليرضيه إلا أن تخلي الدنيا نفسها من همومها .. لتكرس حياتها لسعادته ..

وفي الأيام الأخيرة بدأ يلح علي أمه أن تساعده في زواجه ..

فلم يعد له فكرة سواه .. حتي أنه أصبح لا يجد لحياته معني بلا زواج ..

كان هناك صراع دائم عنيف .. بين " الأنا الأعلي ".. الذي هو دائما ضعيف لديه .. والمهزوم غالبا .. و " الأنا " .. المسيطر دائما .. أو غالبا ..

كان مخلصا جدا لذاته !! ..

ولكم أثار في قلب أمه من ألم .. ولكم بعث في نفسها من حزن ..

ولم يحدث أن أعلمت الأم زوجها عن حياة ابنها الخاصة .. وأنه يحيا لنفسه..

حتي أنها لا تعرف كم يتقاضي مرتبا من عمله .. وكم ينفق علي نفسه .. ولا تعرف كم من الأموال يدخر !!

ومن الغريب أن الأنانية إمتدت إلي مشاعره .. فانصرف قلبه .. في كثير من الأحيان .. عن البر بأمه .. والرحمة والحنان .. لأختيه الصغيرتين ..

وكان من الأغرب هو أن يكون له عند أمه القدر الأكبر من التقدير .. والإهتمام بشئونه .. ورعايته !! .. علي الرغم أن إهماله لها كان هو أشد ما يحزنها ..

وعلي الرغم أن إعراضه عنها كان هو أقسي ما يؤلمها ..

إلا أنها سرعان ما تنسي إعراضه عنها .. وإهماله لها .. ربما قبل أن تمر دقائق معدودة ..

obeikan.com

الفصل الثاني

ليلة ليلاء

الجيوب الفارغة لا تعوق أحدا

من إدراك النجاح ..

القلوب الفارغة والعقول الفارغة

تفعل ذلك

د ابراهيم الفقي

****

ما

أن خرج مدحت من الباب حتي استقبلته الرياح مزمجرة ..

أغلق الباب ..

ومضي في طريقه قاصدا الجامعة .. في مصر ..

لقد اعتادوا في الفيوم .. من كان يقصد القاهرة .. يقول أنه في طريقه إلي " مصر" .. وليس " القاهرة "..

بدا الحي كله غارقا في النوم .. متدثرا بالظلام .. لا مقهي يسمر.. ولا بائع يصيح .. ولا دكان يسهر .. ولا سائر يدب .. فلم يكن فيه أثر للحياة .. أو النور ..

ولم يكن مدحت ليعرف كيف يصمد أمام هذا الصقيع .. إن البرد الليلة في أشد ما يكون .. والرياح تسلط سهامها علي جسده ..

أما هذا القميص الذي يرتديه .. فقد أعلن استسلامه منذ اللحظة الأولي ..

فهيهات أن يصد هذه السهام !! ..

إنها سهام من البرد لا ترحم ..

وأخذ يحث الخطي ..

لقد هدأ الكون .. ونامت الحياة .. وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم تزيده خوفا ووحشة ..

obeikan.com

وبدا الليل في سكونه الهاديء الثقيل .. وغشيت الظلمة كل شيء ..

ويا له من شارع ..

إنه لا مجيب في هذا الفضاء العريض .. لمن يصيح .. و لا مغيث لمن استغاث ..

فخاض أمواج الظلام الدامس .. والصمت الثقيل ..

لا منظر يري .. إلا أشباح البيوت ..

ومضي مدحت وقد لفه الظلام .. ولولا أنه يعلم أن قدميه قد حفظتا الطريق إلي محطة القطار .. لما أسلم نفسه لهما .. تقودانه .. في الاتجاه السليم.. بعد أن فقد البوصلة .. في هذا الظلام الكثيف .. الثقيل ..

مثل الفلاح الذي يسير خلف حماره .. عائدا من الحقل .. إلي البيت ..

وكأن حماره هو من يقوده .. وهو الذي يعرف العنوان !! ..

ولكن مشكلة " قدميه " لم تكن في البوصلة .. فهما تعرفان الطريق جيدا .. فإن الطريق " مترب " .. ليس مرصوفا .. مليء بالأحجار .. أحجار تناثرت بطول الطريق ..

فكان عليه أن يبطيء من خطواته ..

وخشي أن يصل إلي محطة القطار متأخرا .. فيكون القطار قد انطلق .. قبل أن يدركه ..

إن الزمن الذي يستغرقه سيرا علي الأقدام للوصول إلي محطة القطار نصف ساعة .. ولكن هذا أثناء النهار .. في الظروف العادية .. وإن القطار يتحرك إلي القاهرة في تمام الرابعة صباحا .. وكانت ساعة الحائط تشير إلي الثالثة صباحا .. عندما هم مدحت بالخروج من البيت ..

ربنا يستر !

وتساءل مدحت .. يحدث نفسه ..

" إذا كانت الحكومة سوف تترك أعمدة الإنارة هذه التي تراصت علي جانب الطريق.. بدون إنارة .. فلماذا وضعتهم أصلا ؟! " .. ولماذا كلفت نفسها هذه المبالغ الطائلة !! ..

" ولماذا أسمتها أعمدة إنارة ؟! " ..

ولكن لماذا أذكر أعمدة الإنارة .. بالنقد .. دون غيرها ..

فهل هناك شيئ لم تمتد له يد الإهمال !! ..

أفليس هذا الطريق نفسه يحتاج إلي ألف سؤال و سؤال ؟! ..

ألا أتعثر في ترابه.. وفي أحجاره ؟! ..

منذ متي لم ترصف الطرق !! ..

يقولون أن فسادا وراء هذا .. وأن الطرق ترصف فقط علي الورق .. بينما تذهب نفقات الرصف إلي جيوب مسئولي الحكم المحلي .. التي أصابتها التخمة .. وعل أي حال .. لا دخان بلا نار ..

مضي مدحت يحدث نفسه .. فالطريق طويل .. ولا أحد يسامره ..

يا إلهي ..

ماذا أصابني .. إن أسناني تصطق .. وجسدي يرتجف .. أي برد هذا ؟! ..

آه .. يا أذني ..

إن تيار الهواء البارد يكاد يخترق أذني .. وهذه الصفارة التي يحدثها الريح لكأنها فحيح حية تتابعني .. أينما حللت ..

وهذه الأشجار القابعة علي جانب الطريق .. إن أوراقها .. وفروعها .. لتتمايل مع شدة الرياح .. محدثة هذا الصوت المخيف .. وكأن الأرواح ترقص فوق فروع الشجر !! ..

يا له من مشهد رهيب .. لقد اجتمعت كل الأشياء .. لكي تصور هذا المشهد المرعب ..

و يا له من صمت قاتل .. وسكون مخيف ..

لقد نامت الحياة .. ونام الجميع .. إلا فحيح الرياح .. تخرق الآذان ..

وفجأة ..

دوي صوت طلق ناري .. اخترق هذا السكون ..

وارتعب له مدحت ..

وتوقف ثواني عن السير .. ونظرحوله يستطلع مصدر هذا الصوت المفاجيء ..

الظلام دامس .. والسواد يلف الشارع من حوله بعباءة ثقيلة ..

وجاء من خلفه صوت بشري عميق .. قوي .. يصيح :

- **من هناك ؟! ..**

فنظر مدحت خلفه .. ورأي شريط من الضوء .. إنه ضوء الكشاف ..

كشاف الشرطي .. عم " رفيع " ..

إنه الشرطي المسئول عن " قتل " الكلاب الضالة !! .. كل مساء !!

لو أن هناك شيئ اسمه " منظمة حقوق الحيوان " .. لهلك عم رفيع !!

..الذي يخرج كل مساء من منزله .. وله هدف واحد فقط .. هو أن يقتل أكبر عدد ممكن من الكلاب .. التي يلقيها حظها التعس في طريقه !! ..

المدينة نائمة .. الجميع قبع في بيته .. إلا عم رفيع .. الذي يحرس المنازل .. ويقتل الكلاب !!

واستدار مدحت .. وأسلم نفسه لساقيه مرة أخري ..

ولمحت عيناه ضوءا يطل من نوافذ القطار ..

الحمد لله .. لقد اقتربت .. والقطار لم يزل ينتظر في المحطة .. والسائق ينتظر رنين الجرس .. معلنا وقت الإنطلاق ..

علي أن أسرع قليلا .. فقد يكون القطار أكثر دفئا من الشارع ..

وبدأ مدحت يحث خطواته مرة أخري ..

وجاء صوت الرعد يبدد السكون ..

بعد أن أعلن البرق .. وجوب اكتمال الصورة .. وإخراج المشهد ..

وانهمر المطر .. غزيرا .. باردا .. قويا ..

آه .. جاء دورالمطر .. لم يكن ينقصني إلا المطر ..

لن أستطيع مقاومته .. أو تحمله ..

علي أن أجري .. بل علي أن أطلق ساقاي للريح .. ولأتعثر في مائة حجر .. وليشدد الله من أذري ..

فالمطر .. والبرد .. أشد إيلاما !!

وهكذا انهمر المطر .. وكأنما أبي أن يمهله حتي يصل إلي القطار ..

وتساقط غزيرا .. قويا .. باردا ..

فوضع علي رأسه هذا الملف البلاستك الذي يحفظ فيه بعض الأوراق ..

وهو ممسكا به .. عله أن يمنع عن رأسه بعض القطرات ..وقد بلل الماء الحقيبة المعلقة في كتفه ..

وإن هي إلا دقائق .. حتي وجد نفسه يجري في الوحل ..

يا ألله !! ..

أي ليلة هذه ؟! ..

إنها مشكلة أخري ..

فقد تطاير الوحل من ضربات قدميه وهو يجري .. حتي غطي جزءا غير قليل من سرواله ..

فلا مصارف في الشارع معدة لتصريف المياة ..

لا صرف صحي .. أصلا ..

وهو ما أحال الشارع في دقائق معدودة .. إلي بركة من الأوحال !!

ونعود مرة أخري إلي مسئولي مجلس المدينة .. ونقول لهم .. ليسامحكم الله علي هذا الإهمال .. أو علي هذا الفساد ..

يا لها من ليلة مروعة !!..

وكان عليه أولا أن يشتري التذكرة من شباك حجز التذاكر .. وما أن فعل .. حتي ألقي بنفسه داخل القطار .. ولولا رعاية الله لسقط أرضا .. كتلة واحدة .. ولكانت إصابته بالغة .. فقد انزلقت قدمه وهو يركب القطار

بسبب هذا الماء الذي تجمع في كل مكان .. وقد أربكته الحقيبة المعلقة في كتفه .. وأخلت بتوازنه ..

كان مبلل الملابس .. يحطمه التعب .. يكاد يتجمد من البرد ..

ولم يكن أفضل حالا .. بعد أن استقل القطار ..

فياله من قطار ! ..

إن عربة الدرجة الأولي تتكون من بعض " الكابينات " .. وقد تمزق الكساء الجلدي الذي يكسو المقاعد .. وأطل منه الإسفنج الذي يبطن هذا الكساء ..

في مشهد عنوانه الفقر .. والقدم .. والإهمال ..

أما عن التراب الذي تراكم فوق المقاعد .. فحدث ولا حرج .. لسبب بسيط جدا .. وهو أن باب الكابينة لا ينغلق ! .. وزجاج النوافذ مكسور ! ..وبالطبع .. لا أحد مسئول عن تنظيف المقاعد .. ولا إزالة الأتربة .. ولا حتي إصلاح باب الكابينة .. ولا تبديل الزجاج المكسور .. في هذه النوافذ البائسة !

ومن البديهي أن عربات الدرجة الثانية .. والدرجة الثالثة .. لن تكون أفضل حالا من عربات الدرجة الأولي !

فالمقاعد خشبية .. وقد استقرت علي جانبي العربات .. لا كساء من الجلد .. ولابطانة من الإسفنج ..

وقد كسر الزمن بعضها .. وتولي الركاب أمر تكسير البعض الأخر ! .. وهو نفس الحال .. مع زجاج النوافذ المكسور !.. إلا فيما ندر !

وأما الأتربة فلن تجد ما يحول بين تراكمها علي المقاعد .. إلا التصاقها بمقعدة الراكب .. الذي عليه أن ينظف هذا التراب المتراكم .. بما يرتدي من ملابس حين يجلس عليها !.. فيكون لمقعدته نصيب وافر من هذه الأتربة !! .. شاء الراكب أم أبي !! ..

لماذا إذن نخص بالشكوي مسئولي مجلس المدينة ؟! .. فأين مسئولي النقل والسكك الحديدية ..

وليس إذن بغريب .. والحال هكذا .. ألا تجد في هذا القطار .. حماما..أو تواليت .. وإذا صادف ووجدت حماما .. فلن تجد الماء !! ..

وناهيك عن التراب المتراكم علي أرضية القطار !!.. والذي اختلط بماء المطر .. الذي تسرب إلي داخل القطار من الأبواب .. أو من الشبابيك ..

وبدأ مدحت يبحث لنفسه عن مقعد .. إلي جوار نافذة لم ينكسر زجاجها ..

وألقي بنفسه متهالكا علي أحد المقاعد .. بعد أن وضع الحقيبة علي الرف الموجود فوق مقعده ..

واختلطت الأتربة علي ثيابه .. مع ماء المطر الذي بللها ..

يا لها من ليلة .. كيف أذهب بهذا الوضع المؤلم .. إلي الكلية ؟! ..

يا إلهي .. إن الريح تصفر .. وإنني أتجمد .. من شدة البرد ..

يا سلام علي كوب شاي ساخن الآن .. إنه مبلغ طموحي الآن ..

وراح يفرك بشدة وجنتيه اللتين احمرتا من البرد .. ثم يفرك راحتيه ببعضهما بقوة .. وينفث فيهما الهواء بفمه .. فقد يشعر ببعض الدفء ..

وإن هي إلا دقائق .. حتي تحرك القطار .. متجها إلي القاهرة ..

وكان علي مدحت أن يقوم بهذه الرحلة القاسية الشاقة .. ثلاث مرات كل أسبوع ! ..

وأسند ظهره إلي مسند المقعد الخلفي .. وأغمض عينيه .. عله يستطيع أن يغفو قليلا ..

ولكن هيهات ..

فلن يتركه ينعم في مقعده .. هذا التيار البارد القادم من خلال الزجاج المكسور .. ولن يحقق له قميصه الفضفاض أي درجة من الدفء ..

وهذه هي قطرات المطر .. وقد قذفها بشدة تيار الهواء البارد .. من خلال النافذة .. لكي تتلاطم علي وجهه .. وأذنيه .. وكأنها قذائف ..

عذاب لا قبل له بتحمله .. ولا مقاومته ..

وفي استسلام ..

تمتم مدحت .. وقد أغمض عينيه .. وألقي برأسه إلي الخلف ..

- **كل هذا يهون .. في سبيل إكمال دراستي .. ولن تحبطني هذه الظروف علي قسوتها ..**

يقولون أن الشدة تخلق الرجال ..

ولن ينتزعني هذا الظلام من نعيم الآمال .. ليقذف بي إلي جحيم اليأس !!

ولن يثنيني أي " ألم أليم " .. ولا أي " عذاب مقيم " .. عن النجاح و التخرج ..

فشهادة التخرج إنما هي حتمية .. وليست اختيارا ..

إنه يشعر بالله شعورا عميقا .. ويحس به في كل مكان يحله .. ويتوكل عليه بكل قلبه .. ويطمئن .. كل الإطمئنان .. إلي أنه لن يخذله .. كما لن يتخلي عنه ..

وتذكر حين كان ينهض مع خيوط الفجر .. ليذهب إلي المسجد .. لصلاة الفجر ..

ولم يزل صبيا صغيرا .. لا يجاوز العاشرة من العمر ..

وارتسمت علي شفتيه ابتسامة صغيرة ..

كان المسجد بعيدا عن البيت .. ويمتد بعيدا مرورا بالمستشفي العام ..

ولأنه كان يخشي العفاريت .. والأشباح .. وينقبض قلبه .. عندما كان يقترب من المستشفي .. ويمر به .. فكان طوال الطريق يقرأ بعض السورالقصار والآيات التي حفظها من القرآن الكريم ..

إنه لم يأت بهذا من بين أفكاره ..

فهم يقولون أن العفاريت والأشباح تعيش في المستشفي ومن حولها ..

ولهذا الغرض .. فقد حفظ سورة يس .. وسورة الرحمن .. والمعوذتين .. وآية الكرسي ..

فهي تشرح صدره .. وتطمئن قلبه .. وتبعد عنه الأشباح والشياطين ..
فكان يقرأ القرآن .. ويتحسس طريقه .. يلفه الظلام .. في صقيع البرد ..
و يردد في نفسه " .. ألا بذكر الله تطمئن القلوب .."
وساعتها فقط .. تهدأ نفسه .. ويطمئن قلبه ..
ولا أكبر من فرحته .. عندما كان يصلي الفجر في المسجد .. ويعود منشرح الصدر ..
وعندما كان يحكي لأمه .. بعد عودته من المسجد .. أو في الصباح .. عن خوفه من العفاريت .. وهو يقطع طريقه في الظلام .. قبل الفجر.. قاصدا المسجد .. لصلاة الفجر جماعة ..
كانت تقول له :

- **يا بني .. إن الإنسان هو شر العفاريت .. كما لم يتفق لي – ولا لأحد حسب علمي – أن رأيت عفريتا !! .. وما أكثر ما مشيت في الطرق المظلمة .. بل حالكة الظلمة والسواد !! .. فما رأيت أشباحا !! ..**

ثم تستتلي ضاحكة :

- **ربما .. لو كان هناك عفاريت أصلا .. لخافت هي من الإنسان !! ..**

وعليك بالقرآن .. فهو أفضل حارس .. فاتل ما تيسر لك من الآيات كل مرة .. فينشرح صدرك .. ويذهب الخوف من قلبك ..
فكان يهدأ نفسا .. ويطمئن قلبا ..
وامتد بصر مدحت يجول خارج النافذة .. ونور الصباح يولد رويدا من ظلمة الفجر ..
وكان الراكب الذي يجلس أمامه .. علي الكرسي المواجه لكرسيه .. بجوار النافذة .. كان يمعن فيه النظر .. كأن يرغب في مبادلته الأحاديث .. سواء من باب قضاء الوقت .. فهو طويل جدا في حالة السفر بهذا القطار .. أو من باب الفضول .. كأن يسأله .. لماذا لم يرتد شيئا ثقيلا فوق هذا القميص .. الذي لا يسمن ولا يغني من جوع .. في هذا البرد القارص ..

فالكثيرين يأخذهم الفضول لحشر أنوفهم للسؤال عن أشياء لا دخل لهم بها .. ولا ناقة لهم فيها ولا جمل ..

وتفحصه مدحت .. عندما لاحظ أنه يطيل النظر إليه .. وأنه يترك عينيه تجولان علي مدحت من شعره إلي قدميه .. وكأنهما تتجولان في رحلة استكشافية .. أو كأنه يبحث عن شيئ قد فقده .. أو ضاع منه ..

كان شابا قصير القامة .. أجعد الشعر .. قمحي اللون تقريبا .. علي شفتيه ابتسامة غريبة .. يكاد يخفيها .. ذو وجه شاحب .. شحوب جثة .. وهو ما يضفي علي هذا الشاب هيئة الإرهاق والإعياء .. والمكابدة .. مع أنه يبدو متين البنية .. قوي الجسم ..

يدل مظهره علي أنه عامل ..

وكان يحمل في يده اليمني صرة هزيلة للملابس .. ملفوفة بمنديل .. عتيق .. حائل اللون .. ربما كان يخشي نسيانها إذا ما وضعها فوق الرف المخصص للمتاع .. والحقائب الصغيرة ..

وكان المعطف الذي تدثر به مبطن بجلد خروف .. قديم قدم الزمن .. واسع .. وكأنه ليس له .. بل لشخص أخر سمين .. ولكنه يكفي لكي يقيه برد هذه الليلة شديدة البرودة ..

ولعل ذلك هو ما جعل هذا الشاب يتمعن النظر في مدحت الذي يرتدي قميصا خفيفا .. غير عابيء - أو هذا ما كان يعتقده - بهذا الصقيع ..

وربما أيضا كان هذا هو السر وراء هذه البسمة الغريبة التي كان يحاول إخفائها ..

وقد هم هذا الشاب .. عدة مرات .. أن يسأل مدحت سؤالا ربما كان يلح عليه ..

غريب هو بحق .. أمر هؤلاء الفضوليين ..

إنهم يشعرون بارتياح .. بل بسعادة .. ومتعة روحية عظيمة .. عندما يتدخلون في شئون غيرهم .. بفضول سمج .. لاكتشاف الكثير من الأمور

التي قد لا يرغب الأخرون في الحديث عنها .. أو كشفها للغير .. والإفصاح عنها ..

إلا أن مدحت الذي أطلق عينيه لمشاهدة الحقول من خلال النافذة .. شارد الأفكار .. شديد السرحان .. كان يبدو كمن لا يرغب في تجاذب أطراف الأحاديث .. أوالدردشة ..

فآثر الرجل الغريب الصمت .. واكتفي بالدهشة التي جسدتها ابتسامته الغريبة !! .. والتي لم تظهر في واقع الأمر علي شفتيه .. وقضي وقته طوال الرحلة في محاولة النوم .. والتثاؤب .. دون أن يمنع نفسه من التثاؤب .. أو حتي يضع يده علي فمه أثناءه .. كما لم يعرف النوم إلي جفنه سبيلا .. رغم احمرار عينيه .. ربما بسبب هذه الإهتزازات القوية التي تحدثها عربات القطار أثناء السير .. ولو أن القطار ليس سريعا لهذا الحد ..

أما الرجل الذي استقر علي المقعد .. بجوار هذا الرجل الغريب .. فكان يبدو في أواخر العشرينات من العمر .. وقد أحسن اختيار ملابسه .. التي بدت متناسقة الألوان .. رغم قدمها .. وبساطتها .. وقد احتمي من المطر والبرد .. بهذا " البلوفر " .. الذي قد يفي بالغرض ..

وكان منكبا علي قراءة كتاب .. كتب علي غلافه العنوان " المادية الجدلية " .. ولم يكن اسم الكاتب واضحا .. ويبدو أنه قطع فيه شوطا كبيرا ..

وحدث أن التقت عيناه بالصدفة مع عيني مدحت .. فابتسم له ابتسامة خفيفة .. ولكنها ودودة .. وحياه بأدب جم .. قائلا :

- **صباح الخير ..**

فابتسم مدحت .. ردا للتحية .. قائلا :

- **صباح الخير ..**

فقال الرجل :

- أراك تفضل الصمت .. ولكن ألا تقرأ كتابا .. أو مجلة .. لشغل هذا الوقت الطويل ..

ولا زال مدحت مبتسما .. أشار إلي الكتاب مع الرجل .. وقال :

- بل إنني أقرأ كثيرا .. ومن محبي القراءة .. أراك تقرأ عن المادية الجدلية .. وأعتذر عن فضولي .. فقد قرأت العنوان علي الغلاف ..

فأشرق وجه الرجل بابتسامة عريضة .. وقال متسائلا :

- هل قرأت حول هذا الموضوع ؟! ..
- أجل .. الكثير .. فبالإضافة إلي أنه موضوع شيق .. فإنه يهم كل واحد منا .. ويتحدث عن صميم حياتنا ..ومستقبلنا ..
- حسنا .. ربما كان لحسن حظي إذن .. أن أقابل اليوم أحدا .. نتحدث معا .. حول موضوع يحظي منا باهتمام مشترك ..
- وإن هذا ليشرفني .. ومن دواعي سروري ..

فمد الرجل له يده .. ليبادله السلام .. وقال معرفا بنفسه .. وقد بدت علي وجهه السعادة .. وبرقت عيناه بريق السرور ..

- أخوك " طارق " .. مدرس بمدرسة الفنية بنات .. في الفيوم ..

والتقط مدحت يده في سرور .. وبادله السلام .. سعيدا بهذا اللقاء ..وهذا التعارف .. قال :

- أهلا وسهلا .. أخوك مدحت .. طالب في كلية الآداب .. جامعة القاهرة ..
- أخشي أن أقول لك أن قرار السفر بهذا القطار قرار خاطيء .. وصعب .. صعب ..

وضحك مدحت .. وقال له بنبرة فيها أسي :

- وأخشي أن أقول لك أنني قررت أن أسافر به .. ثلاثة أيام في الأسبوع .. علي مدار العام الدراسي !! ..

واعتذر طارق .. وعاد إلي موضوع الكتاب .. متسائلا :

- **أعتذر لك بشدة يا مدحت .. أما عن موضوع الكتاب ..أحسب أن لديك فكرة جيدة .. إذن .. برأي أي من الفريقين تأخذ ؟! .. الماديون .. أم المثاليون .. وأيهما أقرب إلي قناعاتك ؟! ..**
- **في الحقيقة أن ما يقول به الماديون .. هو أقرب إلي قناعتي .. فهم .. كما تعرف .. يعتقدون بأولوية المادة .. ويعتمدون في ذلك علي الأبحاث العلمية التي تنفي زوال المادة .. كما جاءت به نظرية " لا فوازيه " .. وهو أن المادة .. لا تخلق من العدم .. ولا تفني ....بل تتحول وفق شروط معينة .. وقوانين معينة .. من شكل إلي أخر .. كما يقولون أن المادة موجودة بشكل مستقل عن وعي الإنسان ..**
- **نعم .. فالمادة لديهم هي كل ما يتحسسه الإنسان بحواسه الخمسة .. ولا أدري كيف يعتقد المثاليون أن حواس الإنسان تعكس تصورات في وعي الإنسان .. وهي غير موجودة في الواقع بشكل مستقل عن وعي الإنسان ..**
- **نعم .. فهم يقولون ان المادة هي انعكاس للوعي .. أما عند الماديون .. فإن الوعي هو انعكاس للمادة ..**
- **أنا لا أقتنع بما يقوله المثاليون أن الأشياء لا توجد إلا إذا أدركها الإنسان مباشرة بحواسه .. كأن يراها .. أو يسمعها .. أو يدركها باللمس .. فإذا لم يدركها .. فلا وجود لها ..**
- **فالعالم عندهم لا وجود له إلا في وعي الإنسان ..**
- **وحسب الإنسان أن يغمض عينيه .. فيختفي العالم !! ..**
- **وفي المادية الجدلية .. أن الطبيعة بكاملها .. بدءا من أصغر الجزيئات .. إلي أكبر الأجرام السماوية .. وبدءا من حبة الرمل .. إلي الشمس والنجوم .. وبدءا من الخلية الحية البدائية .. إلي الإنسان .. تتحرك وتتبدل .. دوما وأبدا .. والحياة الإجتماعية ليست هي الأخري ساكنة .. بل هي قيد التبدل والتحول ..**

- **بكل تأكيد .. فالمجتمع مؤلف من طبقات متصارعة .. فثورات البورجوازية ثارت علي النظام الإقطاعي القديم ..**
- **إنها موضوعات طويلة .. ومتشابكة .. ويشرفنا أن تحضر معنا جلسات ثقافية مع العديد من الأصدقاء ..**
- **أين ؟! ..**
- **في بيت أي صديق .. وإن سمح وقتك .. ولم تكن لتمانع .. فسوف أقدمك إلي أصدقائي .. وتكون معرفة خير وصداقة .. إن شاء الله ..**
- **سيكون لي الشرف يا مدحت ..**
- **وعلي فكرة يا طارق .. لي أخت لديكم في مدرسة الفنية بنات ..**
- **صحيح ؟! .. في أي صف ؟! ..**
- **طالبة جديدة .. في الصف الأول ..**
- **إنني أدرس للصف الأول ..**
- **هي هند .. هند جلال خطاب ..**
- **آه .. إن هند أختك إذن ..**
- **تعرفها إذن ؟! ..**
- **أكيد .. إنها ونعم البنات والله .. ونعم الأدب .. والتربية ..**
- **أشكرك ..**

وأخرج مدحت وريقة .. وأمسك قلما .. وكتب بعض الكلمات .. وناولها لطارق .. قائلا :

- **هذا عنواني .. يشرفني أن نلتقي .. ومن ثم أقدمك إلي أصدقائي ..**

وكان الرجل الغريب يمرر نظراته إلي مدحت تارة .. وإلي طارق تارة أخري .. طوال هذه الدردشة .. التي استهلكت الكثير من الوقت .. دون أن ينبس بكلمة ..

واختلي بعد المناقشات .. كل منهما إلي نفسه .. وأفكاره .. وخيالاته .. وذاب مدحت في عالمه .. وعالم الذكريات ..

ولم تزل الذكريات تتداعي أمام ناظريه ..

تذكر ثمانية عشر عاما .. قد انقضت من حياته .. وقلبه من الحياة خواء .. أبيض .. نظيف .. إلا أنه كان يكابد مرارة حياة فقيرة .. وفقر حياة مريرة .. مترعة بالهموم .. مثقلة بالمسئوليات .. رغم صغر سنه .. حياة ضيقة بالأمل ..

إلا أنه لم يكن يوما متبرما .. أو حاقدا ..

بل أحب الناس .. وأحبوه .. وألفهم .. وألفوه ..

وتذكر يوم أن ظهرت نتيجة الشهادة الثانوية .. وكان ما حصل عليه من مجموع الدرجات .. يؤهله للالتحاق بكلية طب الأسنان .. في جامعة أسيوط .. في الصعيد ..

ولكم كان يتمني أن يكون طبيبا !!.. بل كان حلم حياته ..أن يكون طبيبا .. فكان هذا الحلم هو الذي يحثه علي استذكار دروسه ..

وطلبت الأم من زوجها أن يحصل علي إجازة .. ولو ليوم واحد .. فالأمر هام .. وعليهم أن يتخذوا القرار المناسب ..

ولا يمكن أن يتم لهم هذا في غياب الأب ..

وكان جلال يعمل " مساعد ".. يسمونه " صول " .. في وزارة الداخلية وقد تنقل كثيرا أثناء سنوات عمله الطويلة حتي استقر به المقام أخيرا في أحد أقسام الشرطة .. في مركز " أبشواي " .. وهو أحد مراكز محافظة " الفيوم " الخمسة .. في ذلك الوقت ..

ولم يكن راتبه ليتعدي بضع جنيهات .. يمكن عدها علي أصابع اليد الواحدة ..

وهو ما جعل من زواجه للمرة الثانية مغامرة غير محسوبة ..

فمثله لا يستطيع أن يقوم بالإنفاق علي أسرة واحدة .. تتكون من فردين ..

أو ربما ثلاثة علي الأكثر .. فما بالك بأسرتين ؟! ..

واجتمعت الأسرة .. بناء علي الحاح شديد من جانب مدحت .. لكي

يتشاوروا بشأن إكمال دراسته ..
الأب .. والأم .. والأخ الأكبر " ممدوح " .. وطبعا مدحت ..
ولم يكن هناك ما يمنع من وجود سميحه و هند ..
وسأل الأب .. موجها الحديث إلي مدحت :

- **أخبرني يا مدحت .. ما هو المجموع الذي حصلت عليه .. وما يعني ذلك من ناحية الكليات التي يؤهلك هذا المجموع للإلتحاق بها .. وما هي الكلية التي ترغب في التخرج منها ؟!.. أو الالتحاق بها ..**

وفي الحقيقة أن مدحت آنس الجدية والإهتمام في تناول أبوه للموضوع .. وهو ما شجعه وبث فيه الأمل في تحقيق ما يحلم به .. وهو حلم حياته ..
قال .. بأمل :

- **إن مجموع درجاتي يا أبي يسمح لي أن ألتحق بكلية طب الأسنان .. في جامعة أسيوط ..**

قال مدحت ذلك .. علي الرغم أنه يعلم أن امكانيات الأسرة المادية لا يمكن أن تسمح به .. بل أنه مستحيل .. في ظل هذا الراتب الهزيل .. والأفواه المفتوحة .. والالتزامات التي لا تنتهي !
إلا أن الأب كان ناعما .. سلسا .. في إبداء رأيه .. والإستماع إلي الأخرين ..قال :

- **وهل ترغب يا مدحت في أن تكون طبيبا ؟! ..**

قال مدحت .. فرحا .. مبتهجا .. وقد أطلق لخياله العنان :

- **يا سلام يا بابا .. يا ريت !!**

وهللت هند .. في سعادة.. وقالت:

- **يا ريت يا بابا .. يا ريت .. أخي مدحت سيكون طبيبا .. !**

وتبعتها سميحة .. فهللت .. وقالت مثل ما قالت أختها :

- **يا ريت يا بابا .. يا ريت .. أخي مدحت سيكون طبيبا .. !**

فسميحة وهند تحبان مدحت حبا جما .. و ربما كان أقرب واحد في البيت إلي قلبيهما الصغيرين ..

أما ممدوح فكان ساكنا .. وقد اكتفي بتحويل نظره إلي المتحدث في هدوء .. وكأنه ينتظر انتهاء الإجتماع .. ليعرف ما سوف يتم اتخاذه من قرارات .. لا شأن له بها !!

وكان للأم أمل في تحقيق ما يقوله مدحت .. إلا أنها تعلم أن الحلم شيء .. والواقع شيء أخر ..

ولما كان الواقع شيء أخر .. فقد قال الأب بنبرة المتعقل للأمور :

- **ولكن .. أليست أسيوط بعيدة .. بحيث تضطرك إلي الإقامة هناك .. وهو ما يعني .. نفقات أكثر للسكن والمأكل والدراسة .. وأعتقد أنه لا قبل لنا بها ..**

خاصة أنني لا أعرف كيف يخطط أخوك ممدوح للمساهمة في هذه النفقات المطلوبة لدراستك .. ولا أعلم ما هو المبلغ الذي يستطيع تدبيره من أجلك .. فمساهمته ضرورية .. بل حتمية ..

بعد أن قال ذلك .. نظر الأب إلي عيني ممدوح .. وكأنه يستطلع رأيه .. فقال ممدوح بامتعاض .. موجها الحديث إلي الأم .. علها تكون عونا له في تأييد وجهة نظره .. التي جاءت صادمة للجميع !:

- **ولماذا يا أمي يلتحق بالجامعة .. ألا يعلم مدحت ظروف الأسرة المادية ؟!**

ودهش مدحت دهش من أخذ علي حين غرة .. فلم يكن يتوقع ما قال به ممدوح .. فركبه الارتباك .. بل الإنزعاج ..

وعلي الرغم من أن الأم كانت دائما ما تميل إلي محاباة ممدوح .. والميل إلي رأيه ..

فهو أكبر الأبناء .. وهو أول من أيقظ أمومتها .. وهو الحبيب الأول .. وهو المدلل .. والذي كان له من الرفاهية .. أيام أن كان هناك رفاهية .. جانب من الحظ .. قبل أن تتبدل الأحوال ..

وقد عاش ممدوح لنفسه .. فأسقطته الأم من حساباتها .. ولم تعد تطلب منه المساعدة في نفقات البيت .. حتي في أضيق الظروف .. وأمس الحاجة إلي بعض النقود القليلة .. كما لم يكن ثمة أمل في أن يتغير .. إلا أنها لم تخف اندهاشها من هذا الرأي الغريب .. وقد ألقاه ممدوح بقسوة في وجه أخيه .. الذي يأمل في مستقبل أفضل ..

فرنت إليه بنظرة طويلة قاسية .. ثم قالت له .. في لوم وعتاب .. بحنق شديد .. مستنكرة :

- **كيف تقول ذلك يا ممدوح ؟! .. إنني موقنة أن رأيك هذا كأنه مطرقة رفعت ومن ثم هوت بعنف علي يافوخ أخيك .. فبددت أماله .. وكادت تحطمه هو نفسه ..**

هل تريد أن يكتفي مدحت بشهادة الثانوية العامة .. ويلتحق بالجيش .. وبعد قضاء فترة التجنيد بالجيش ..أيا كانت هذه المدة .. طالت أم قصرت .. يبحث عن عمل بالشهادة المتوسطة ؟! ..

أهذا هو المستقبل الذي يستحقه أخوك ؟! .. أي زلزال عنيف هذا ؟! .. كم كانت تكون سعادة أخيك لو أنك وقفت إلي جواره .. ومددت له يدك بكل المساعدة ..

وكان مدحت يستمع إلي رأي ممدوح في دهشة .. كيف يحول أخوه المناقشة إلي هذا المسار الغريب .. وهذا الإتجاه السخيف ..

كيف يحكم بالإعدام علي مستقبله .. ويقضي علي طموحه ؟! .. بهذه البساطة .. وهذا البرود ؟!

إلا أنه آثر الانتظار .. وحافظ علي كياسته .. ريثما يستمع إلي رأي والده .. والذي كان يطمئن إليه ..

وتمتم في نفسه :

- **ها هي أمي تعلن رفضها القاطع لرأي ممدوح .. ولننتظر ونصبر حتي نعرف رأي أبي ..**

أما سميحة .. وهند .. فقد لاذتا بالصمت .. ولم تنبسا بكلمة .. خشية أن يغضب منهما ممدوح .. واكتفتا بتبادل النظرات .. التي تشي بصدمة .. واستنكار !!.. ورفض كامل لهذ المقترح ..

وجاء رأي الأب مشجعا .. مستنكرا ما يفكر فيه ممدوح .. رافضا أن يأخذ الحديث هذا الاتجاه غير المرغوب فيه ..

وقد ندت عن رأسه حركة موحية بالإنزعاج .. واتسعت عيناه الواسعتان السوداوان .. وهو يحدج ممدوح بغرابة .. ثم قال موجها الحديث إلي ممدوح بنبرات ناطقة بالإستنكار .. وبصوت ملؤه الجد والإهتمام :

- **ممدوح يا بني .. لا نريد أن نقف عقبة في طريق مستقبل أخيك .. ولقد اخترت أنت الالتحاق بمدرسة دار المعلمين .. لتكون مدرسا .. فكانت هذه رغبتك .. أما عني فوالله ما أحب أن يكون أخوك موظفا بائسا .. بل أريد أن يكون موظفا مهابا .. محترما ..**

ولذا دعني أحاول تدبير قدر استطاعتي من المال .. وأنت عليك أن تساهم بقسط .. قدر استطاعتك .. ولن يلزمك أحد بما لا تطيق ..

وأما مدحت .. فعليه أن يستذكر دروسه .. علي أكمل وجه .. حتي لا يرسب في أي عام .. لكي لا تزيد الأعباء .. وحتي لا يلام علي التقصير .. فعلينا تدبير النفقات .. وعليه بذل المجهود .. والنجاح ..

وقد اتفق رأي الأب .. مع رأي الأم .. ولزم مدحت الصمت .. وانفرجت أساريرسميحة وهند .. وهللتا .. فرحتين ..

تباين غريب بين رأي الأختين .. ورأي ممدوح ..

ربما كان ذلك يفسر أن الحب هو ما ينسج العلاقات العائلية .. وليس الدم !! .. والفارق كبير ..

وقالت الأم في تأييد واضح وقوي لرأي الأب :

- **سلمت يا جلال .. هذا والله هو الرأي .. وأما عني .. فسوف أساهم بجزء من المبلغ الذي تعطيني إياه كل شهر .. لنفقات البيت .. فلا مانع من أن أضغط قليلا من نفقات الأكل .. فوالله لن نخذل مدحت أبدا .. ولن نحبطه .. وهم مدحت أن ينهض .. ويحتضن أمه ويشبعها تقبيلا .. إلا أنه حبس هذه العواطف بداخله .. ريثما ينتهون من مناقشة الموضوع ..**

وكانت فرحة سميحة لا تقدر .. وقالت مؤيدة لرأي أمها :

- **سوف نقدر يا أمي .. سوف نستطيع أن نتحمل .. لا عليك ..**

وقالت هند واقفة .. متحمسة :

- **لا تمنحيني المصروف اليومي يا أمي .. لا حاجة لي به .. المهم أن يلتحق أخي مدحت بالجامعة ..**

فسألت سميحة بدهشة .. وعطف :

- **وهل تتقاضين مصروفا أصلا يا هند ؟! ..**

كانت هند تريد أن تؤكد أنها تحب أخيها لدرجة أنها لو كانت تتقاضي من أمها مصروفا لجادت به .. وتنازلت عنه .. من أجل أخيها .. حبا فيه .. ورغبة في مستقبل أفضل له ..

ولذا فقد استدركت .. وكأن سؤال أختها قد أفاقها و أيقظها .. فقالت :

ربما كانت أمنا تمنحنا مصروفا في بعض الأحيان .. ولكنني سوف أتنازل عنه من أجل مدحت ..

وتذكر مدحت كيف اغرورقت عيناه بالدموع .. فلم يستطع أن يتحمل هذه العواطف الجميلة التي عبرت عنها هذه المظاهرة التي جاءت بها الأختان في مشاعر رائعة لن ينساها العمر كله ! ..

فنهض واحتضن سميحة شاكرا لها هذه المحاولات الطيبة لتأييده ..
والحريصة علي مستقبله .. وقبلها .. ثم قبل هند وقال لها مداعبا :

- والله إنك لتستحقين أجمل عريس !! .. وإنك أحلي أخت .. أنت وحبيبتي سميحة ..

واتجه بالحديث إلي أمه .. شاكرا ممتنا :

- شكرا لك يا أمي .. ولكن جميعنا نعلم أن المبلغ الذي يعطيك أبي إياه صغيرا .. لا يكاد يكفي نفقات البيت ..

وكان عليه أن يفعل شيئا من أجل ضغط المبلغ المطلوب .. ولذا فقد فكر في شيء عله يقلل من نفقات الدراسة .. فقال متحمسا :

- إنني لست متمسكا بكلية طب الأسنان .. فلا بأس بكلية الآداب ..

فقال أبوه متسائلا ..

- وما الفرق في ذلك .. أقصد كيف يساهم ذلك في خفض النفقات المطلوبة ؟! .. وهل ستكون الكلية في أسيوط أيضا .. أم في القاهرة ؟! ..

وعقبت أمه فقالت :

- أجل .. أخبرنا كم المبلغ المطلوب تدبيره .. في حالة اختيار كلية الآداب ..

فقال .. وقد شعر أن النتيجة تقترب من أن تكون في صالح مستقبله الذي يريد .. وهو ما دفعه إلي أن يخفف من النفقات قدر الإمكان ..

- في حالة اختيار كلية الآداب .. فلن أضطر إلي السفر أو الإقامة في أسيوط ..ولا في أي مكان أخر .. خارج بيتي .. لأنني سوف ألتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة ..

كما أنني أستطيع أن أسافر إلي القاهرة وأعود في نفس اليوم .. فالمسافة من الفيوم إلي القاهرة هي مائة كيلومتر فقط .. وهو ما يعني أنني لن أحتاج إلي سكن أو إقامة في القاهرة ..

ولما كانت الدراسة في كلية الآداب دراسة نظرية .. فسوف أحاول أن أشرح ظروفي المادية .. في غير خجل .. لكل دكتور علي حدة .. علني

أستطيع أن أضغط عدد أيام السفر لحضور المحاضرات إلي ثلاثة أيام فقط في الأسبوع ..

وتفاعل أبوه إيجابيا مع هذه المحاولات المستميتة من جانبه .. وأحس أنه متمسك بالدراسة الجامعية .. وبأنه مصمم علي رسم مستقبله بالطريقة التي يحددها لنفسه ..

فقال باسما .. متفائلا :

- **أراك قد خفضت من النفقات المطلوبة كثيرا .. وأنك تسعي لتحمل نفسك عبئا أراه ثقيلا .. ونحن ما علينا إلا أن نقدر فيك هذه الروح المتفانية ..**

وكان لأمه من الرأي ما كان لأبيه .. فقالت مباركة لخطواته نحو مستقبله راضية به :

- **بارك الله فيك يا بني .. والله ما تركت لنا بعد هذا ما نعترض عليه .. أو نتحلل منه ..**

إلا أن أخاه ممدوح كان له رأيا أخر !! ..

فقال ..

وقد بدا كمن يبحث عن عقبة لا مهرب منها !!.. ولا سبيل إلي اجتيازها !! مستميتا لتحقيق هدفا في نفسه :

- **حتي في حالة السفر ثلاث أيام فقط في الأسبوع .. هيا نحسب المبلغ المطلوب .. مع افتراض موافقة الدكاترة علي عدم حضوره بعض المحاضرات .. وهو ما قد لا يحدث !! ..**

وأخذ ممدوح يحسب المبلغ المطلوب في كل يوم من أيام السفر ..

وكم يحتاج من مبلغ .. لطعام الإفطار وطعام الغداء في المطعم ..

و شراء كتب ومراجع .. وهي مرتفعة الثمن ..

وكان علي مدحت أن يواجه هذا الرأي بما يستطيع أن يقدمه من التنازلات .. و يستميت حتي يحقق مأربه ..

قال وهو واثق من موقفه :

obeikan.com

- **أولا .. لن أسافر إلي القاهرة بالتاكسي .. ولا حتي بواسطة الحافلة .. بل بواسطة القطار ..**

وسوف أذهب من البيت إلي محطة القطار .. سيرا علي الأقدام ..

وهذا ما سوف يتكرر في العودة ..

أما عن الكتب .. فسوف أستعيرها من الزملاء أو الأصدقاء من الطلبة ..

أو حتي من مكتبة الجامعة .. إذا كان ذلك ممكنا ..

ولن ألزمكم بشراء أية كتب !! .. أو مراجع ..

وأما عن شراء الأطعمة .. سواء للإفطار .. أو الغداء ..

فلن أحتاج إلي ذلك !! ..

لأنني سوف أتحمل .. وأتناول ما يتواجد في البيت من طعام .. بعد عودتي .. في المساء ..

فقال أبوه .. وقد أنهي الموضوع :

- **إذن لماذا كل هذا النقاش ..**

ثم وجه الحديث إلي الأم قائلا :

- **بصراحة .. إنني لأراه قد ضحي بكل شيء .. وتنازل عن كل شيء .. فماذا عسانا نرفض ؟! ..**

وقال له متحمسا :

- **سر يا ولدي علي بركة الله .. وإنك والله لم تطلب منا إلا " ملاليم "..**

وظهر البشر علي وجه أمه .. والتمعت عيناها بالفرحة .. والأمل ..

وعلقت علي قول زوجها وهي تشير إلي مدحت :

- **ما أظنه قد ترك شيئا لنفعله .. وما يطلبه .. إن شاء الله .. سيكون يسيرا .. ولن يكون فوق طاقتنا .. بإذن الله ..**

وما هو بالكثير ! ..

وتوجهت الأم إلي ممدوح .. تسأله :

- **والآن يا ممدوح .. ما رأيك .. وما هو حجم مساهمتك في سبيل تعليم أخيك**

.. والوقوف إلي جواره .. حتي يتخرج ويكون له المستقبل الباهر .. إن شاء الله .. فهو أمل الأسرة في مستوي مادي أفضل ولو قليلا .. وأيضا من أجل تمكينه من مساعدة أختك هند في زواجها إن شاء الله .. إنها تجاوزت الخامسة عشرة من عمرها .. أي في سن الزواج .. أو الخطوبة علي الأقل .. ثم أختك سميحة .. إن أمامه مسئوليات عظام ..

فقال ممدوح متهربا من المسئولية .. متعللا بظروفه :

- إنك يا أمي تعلمين أنه ليس لي مصدر دخل إلا راتبي .. والكل يعلم أن راتب المدرسين ضعيف .. وجميعكم تعلمون أنني في حاجة إلي توفير كل مليم لكي أدفع مهرعروسي .. ثم شراء الأثاث .. وإعداد منزل الزوجية .. أليس هذا حملا ثقيلا ؟! ..

ولقد مر عام كامل علي الخطوبة .. ولم أدبر شيئا من احتياجات الزوجية .. ألا تقدرون كل ذلك ؟!

وتجهم وجه الأب .. وصمت .. وكأنه لا يعرف كيف يفعل مع سلبية إبنه الكبير .. التي فاقت كل التوقعات !! ..

وقطبت الأم حاجبيها .. مندهشة .. وسألت ممدوح في استنكار:

- ألا تساهم في نفقات تعليم أخيك إذن ؟! .. هل هذا معقول يا ممدوح ؟! ..

وقال ممدوح في برود عجيب :

- من أين يا أمي ؟!

وضرب الأب كفا بكف .. محاولا الإحتفاظ بالهدوء .. الذي غلب علي المناقشات .. واكتفي بأن قال متململا :

- لا إله إلا الله .. ولا قوة إلا بالله ..

وتدخل مدحت في المناقشة سريعا بروح الفكاهة حتي لا يرفرف طائر الغضب في فضاء الغرفة .. ويحيل صفاء الأجواء إلي غيوم .. فقال مازحا مخاطبا ممدوح :

- **يا ممدوح .. ألم تجد وقتا أكثر مناسبة من يوم النكسة .. لكي تتقدم فيه لخطبةعروسك ؟! ..**

سوف يجعلك هذا تتذكر طول عمرك يوم 5 يونيه .. عام 1967 م .. ألا يجعلك هذا تتشائم من عروسك ؟!

وكان يشير إلي يوم أن باغتت إسرائيل مصر وسوريه والأردن .. واحتلت سيناء من مصر .. كما احتلت هضبة الجولان من سوريه .. والضفة الغربية من نهر الأردن .. وقد سمي العام 1967 .. بعام النكسة ..

وحاولت الأم أن تخفف من حالة الإستياء التي سيطرت علي زوجها .. فقالت له :

- **هون عليك يا جلال .. فالحمل إن شاء الله يسير .. ومدحت .. بارك الله فيه .. قد خفف كثيرا من الأعباء .. وما قصر .. وشيء منك .. وشيء مني .. لن تكون هناك مشكلة ..**

وقال الأب وقد تذكر شيئا هاما :

- **والملابس ؟!**

ثم وجه حديثه إلي الأم .. متسائلا :

- **أنسيت يا منيرة .. أنسيت أن مدحت يحتاج إلي ثياب جديدة .. إنه ذاهب إلي الجامعة .. يعني ناس أغنياء .. يعني ملابس جديدة .. فخمة .. غالية علي الأقل قميص وسروال وحذاء ..**

وماذا يفعل في الشتاء ؟! .. ألا يحتاج إلي حلة واحدة علي الأقل ؟!

ووجه الأب السؤال إلي مدحت قائلا :

- **ماذا تريد من ملابس يا مدحت ؟!**

فقال له مدحت باسما :

- **لا شيء يا أبي .. بعد موافقتكم علي استكمال دراستي .. فلا شيء يعوزني ولا رغبة لي في شيء أخر ..**

وهذا هو كل ما كنت أتوق إليه ..

وأما عن الناس الأغنياء يا أبي .. فلا أحسبن أنني أقل منهم غني ..
وإن كنت أعلم أنه تعوزنا النقود .. فإنني لا أحس أنني فقير ..
ولا أحسبن الأثرياء أعز مني منزلة .. وإنني والله لأفخرن بنفسي وبأهلي .. أيما فخر .. وليس دائما الفخر غرور ..
وإني لكذلك .. وما ينبغي لي أن أكون غير ذلك ..
فمن يريد صداقتي وأنا من أنا .. فأهلا به .. فلا تشغلن بالك بثيابي .. ولا مظهري .. لأنني لا أفعل ..
والعمر كله أمامي .. و بعد أن أنهي دراستي .. وأعمل في مجال عمل يروقني .. فسوف أشتري لكم و لي .. ما أشتهي وما تشتهون .. من ملابس وغيرها ..
لقد التقي مدحت في حياته بكثير من الأصدقاء .. المنتسبين إلي الأسر والعائلات الثرية .. ولكنه لم يشعر بينهم أبدا بفقره .. لأنه لم يطمع أبدا في شيء لا تستطيع موارده المالية أن توفره له ..
لم يحدث أبدا أن قارن بين ما يأكله .. وما يأكله الأثرياء .. ولا بين ما يرتديه .. وما يرتديه أبناء الأثرياء ..
لم يكن قلبه يعرف الحقد .. وما عرفت نفسه الحسد ..
كان قانعا .. عن رضي ..
وراضيا .. عن قناعة ..
حتي عندما قال له صديقه يوما :

- **ألا تؤمن بالحسد .. وقد ذكر في القرآن ؟! ..**

أجابه .. يعرض وجهة نظره في تفسير الحسد :

- **بلي .. اؤمن بالحسد الذي ذكر في القرآن ..**

{ .... ومن شر حاسد إذا حسد }

ولكن لا أقتنع بتفسيرك للحسد ..

فالحسد .. حسب تفسيره كما جاء بالقرآن .. في رأيي .. وهو ما لا أفرضه عليك ..

هو الأسف على الخير عند الغير.. وتمنى زوال النعمة عن مستحقها .. سوآء كانت نعمة دين .. أو دنيا .. أو أن يشتهي المرء ما عند الغير .. فيتمني زوال هذه النعمة من الغير .. ويتمني له الشر .. أو أن يفعل بنفسه هذا الشر .. أو أن يرتب مقدمات وقوع الشر أو مباديء الإضرار بالمحسود .. قولا .. أو فعلا .. ويحمل له الضغينة .. حتي تزول عنه هذه النعمة ..

أى إذا ظهر ما فى نفس الحاسد من الحسد .. وعمل بمقتضاه ترتيب مقدمات الشر ومبادى الإضرار بالمحسود .. قولا أو فعلا ..

ولقد حسد قابيل أخاه هابيل .. ففعل الشر .. وقتله .. أي أن الحسد في حد ذاته ليس هو الذي قتل هابيل .. ولكن الشر الذي ترتب علي الحسد .. هو من قتله ..

ولكنني لا أؤمن أنني إذا رأيت طفلا جميلا .. رائع الوجه .. فيعجبني جماله .. " فيطب ساكتا " .. أو يحدث له مكروه فورا .. فيشوه جماله .. ويقبح وجهه .. بلا سبب .. سوي أنني رأيته فأعجبني .. أو تصدمه سيارة فورا .. فيموت لتوه !! .. فقط لأنه أعجبني !! ..

إذن فالإستعاذة هنا هي إستعاذة من شر الحسد .. وليست إستعاذة من الحسد في حد ذاته .. إنما من الشر الذي قد يؤتيه الحاسد ..

إنظر إلي النص :

{ .... ومن شر حاسد إذا حسد }

وعلي أي حال .. عليك أن تقول " ما شاء الله .. ولا قوة إلا بالله ".. إذا ما رأيت شيئا فأعجبك ..

وكذلك .. ليس كل حاسد يضر .. فقد يكون الحسد محمودا .. أو حسنا .. كأن يحسد حاسد أحدا يراه يسرف في فعل الخير .. كأن يتصدق كثيرا .. أو

حتي يصوم كثيرا .. أو يكفل اليتامي .. فيحسده .. ويفعل مثله .. فيعم الخير ..

ولاذ الصديق بالصمت ..

ولم يعجبه رأي مدحت ..

فهناك تفسيرات متوارثة .. للأحاديث النبوية الشريفة .. ولنصوص القرآن الكريم .. هذه الموروثات .. وضعت في صندوق .. يكفر من يفتحه .. لمناقشة أفكاره .. أو تعديلها .. لتناسب وقتا خاصا .. وزمانا معينا .. وظروفا مختلفة ..

ويبدو أن ممدوح قد تزحزح قليلا عن موقفه .. فعلق قائلا لمدحت :

- **إنك في حاجة إلي حذاء جديد .. ولسوف أذهب معك غدا لشراء ما تحب أن أبتاعه لك .. وأيضا زوج من الجوارب الصوف !**

فقال له مدحت بامتنان شديد :

- **أشكرك يا ممدوح .. وربنا يبارك فيك ..**

وقالت له الأم :

- **إن مدحت يحتاج أيضا إلي قميص .. ولن أقول حلة !! ..**

فأجاب ممدوح .. وكأنه يقول لأمه " لا تبالغي في الطلبات مني .. فليس في الإمكان أكثر من شراء الحذاء " !:

- **إن لدي قميص أستطيع الإستغناء عنه .. فإذا أحب مدحت .. أعطيته إياه ..**

فقال له أبوه :

- **ولكنك أسمن من أخيك .. وسيكون القميص فضفاضا عليه .. فهو نحيف .. ولن يكون القميص مناسبا له ..**

ولكن مدحت وافق .. وقال باسما :

- **لا بأس يا أبي .. يكفي أن يكون القميص من ممدوح .. بل والحذاء أيضا !**

وأفاق مدحت علي صوت حاد قوي ..

وتبين أنه صوت مكابح القطار ..

فعرف أن القطار قد توقف بعد أن وصل إلي محطة " الواسطي " .. فهنا يتوقف القطار لمدة ساعتين .. حتي يمر القطار المقابل .. ومن ثم يواصل الرحلة إلي القاهرة .. حيث يصل إليها الساعة التاسعة صباحا !! ..

بعد أن يكون قد قضي خمس ساعات كاملة في الطريق .. قبل أن يصل إلي القاهرة !!..

- **يا إلهي !! .. خمس ساعات ذهاب .. وخمس ساعات إياب .. وساعة مواصلات داخلية في القاهرة .. وساعة سيرا علي الأقدام من البيت إلي محطة القطار .. والعكس .. في الفيوم ..**

إثنتي عشرة ساعة في السفر يوميا .. في أيام السفر !! .. فماذا تبقي من اليوم للمذاكرة ؟! .. وماذا تبقي من الجهد ؟!.. وماذا تبقي للنوم .. والأكل .. والراحة ..

وهز مدحت كتفيه مبتسما .. وقال :

- **ولو !! .. وأيه يعني ؟! .. لا أبالي !! ربنا يقويني !**

وعلا الصياح .. وتداخلت الأصوات ..

وها هم الراكبون الذين صعدوا إلي القطار من محطة " الواسطي " يتزاحمون .. يتخاطفون المقاعد .. ولقد جاءوا يحملون " القفف " .. و يحملون " المقاطف " ..

وهذه راكبة تجري وراء " بطة " .. استطاعت التسلل من " القفة " التي كانت تحتويها .. حتي أمسكها لها راكب أخر .. وسلمها لها ..

فشكرته وأعادتها إلي " القفة " .. ووضعت القفة تحت المقعد ..

ودبت الحياة في القطار ..

وامتلأت الطرقات بالباعة الجائلون ..

وفوجيء مدحت بأحد الباعة الجائلون يلقي علي حجره بدستة أمشاط ..

وكرر هذا مع كل ركاب العربة .. ولا زال يلقي للجميع .. بالأمشاط !!حيث يفاجأ كل راكب .. بشيء ما وقد ألقي علي حجره !! ..

وبعد أن يصل إلي أخر راكب في العربة .. يلقي إليه كما فعل مع سائر الراكبين .. ومن ثم يعود إلي أول من ألقي إليه بالأمشاط .. لكي يحصل ثمن الأمشاط .. أو يأخذ ما ألقاه مرة أخري ! .. في حال لم يكن الراكب راغبا في شراء السلعة ..

فيرد له الراكب الأمشاط مرة أخري ..

شيء مزعج فعلا .. وغير مقبول بالمرة ..

وهكذا يفعل الباقون من الباعة الذين امتلأت بهم الطرقات .. بمختلف السلع .. من إبر حياكة .. أحبال الغسيل .. حتي أحمر الشفاة .. وإكسيسوارات الزينة للبنات .. وأطقم الصواني .. والأكواب الزجاجية ..

الكثير .. الكثير .. من السلع ..

ومن ثم يأتي دور المتسولين !! ..

إنهم يمرون علي الجميع ..

راكب .. راكب ..

ثم يأتي المحصل .. أو الكمساري .. الذي يسأل الجميع عن التذكرة .. لكي يحصل ضعف قيمة التذكرة من الراكب الذي يركب القطار دون شراء التذكرة من المحطة .. إذا كان هناك أحدهم .. سواء نسي شراء التذكرة من شباك حجز التذاكر بالمحطة .. أو لم يتسع له الوقت لذلك .. أو حتي تعمد ألا يشتري تذكرة .. فالحال واحد .. وهو افتراض سوء النية .. وعلي هذا الراكب أن يدفع ضعف قيمة التذكرة ..

ثم يأتي المفتش .. فيفعل تماما .. ما فعله الكمساري .. لكي يتأكد أنه لا أحد في القطار بدون تذكرة ..

ثم يمر بائع " السميد " .. وبائع اللبان .. والحلوي .. وحب العزيز .. واللب والفول السوداني ..

لا أحد يتركك في حالك لعلك تغفو قليلا ..

وفي خارج القطار ..

الضباب والرطوبة يبلغان من الكثافة أن أشعة الشمس لا تكاد تنفذ إلي الأرض ..

ويصعب علي الراكب .. إذا هو نظر من النافذة يمنة أو يسرة ..

أن يميز أي شيء علي مسافة عشر خطوات ..

والصياح لا ينقطع طوال الطريق ..

والضوضاء والضجيج يملآن المكان ..

ومن لم يصبه الصداع .. ووجع الرأس .. من الضجيج .. والضوضاء ..

والصراخ .. فلن يسلم من " رجرجة " .. القطار واهتزازه .. في الحركة الإرتجاجية .. أثناء سيره ..

فكان الجميع مكدودين متعبين .. مرهقين .. وقد أثقل النعاس أجفانهم ..

واصطبغت وجوههم بصفرة .. كصفرة الضباب ..

وكان كل ركاب الدرجة الثالثة أناسا من متوسطي الحال .. من ممثلي الطبقة الوسطي .. من الكادحين .. يرتدون ثيابا ليس فيها تأنق ..

وتوقف القطار ..

هذه هي المحطة الأخيرة ..

ولافتة كبيرة كتب عليها " أم المصريين " ..

لقد وصلنا بسلام !! ..

وتصافح مدحت وطارق .. وتواعدا علي الإلتقاء في الفيوم .. في بيت مدحت .. ومن ثم تبادل الزيارات ..

وبعد أن ركب مدحت الحافلة التي تقله إلي الجامعة .. ضرب جبهته بكفه :

- **يا ألله .. لقد نسيت الحقيبة في القطار .. ما أغباني .. ماذا يقول كريم .. وأسرته ؟! ..**

فقد أرسلت أسرة كريم في الفيوم إليه حقيبة .. علي أن يسلمها لكريم إبنهم في القاهرة .. تحوي ملابسه الشتوية .. وملابس أخته منال .. إلا أنه

نسيها علي رف القطار .. بسبب استعجاله من ناحية .. ومن ناحية أخري بسبب الضوضاء والضجيج .. والزحام .. والتعب ..

يا لها من مشكلة كبيرة .. لا يعرف لها حلا !! ..

سوف يسأل عنها موظف مكتب الأمانات .. في المحطة ..

وسوف يبحث في القطار في رحلة العودة ..

سوف أجدها ..

هذا ما تمناه !! ..

وهو ما لم يحدث !! ..

فقد أخذ أحدهم الحقيبة .. ولم يسلمها لموظف مكتب الأمانات ..

وضاعت الملابس الشتوية .. لكريم ومنال ..

إلا أنهما لم يوجها إليه اللوم .. ولا أسرتهما فعلت ..

وكان موقفا مليئا بالخجل .. والإحراج ..

جعل مدحت يمتنع عن زيارتهم لشهور وشهور .. بسبب الإحراج !!

وكانت هذه هي أخر مرة .. ينسي فيها مدحت .. شيئا بالقطار .

وأخر مرة يضع شيئا علي الرف .. فكان يضع أي شيء بعد ذلك .. علي حجره !! .. طوال الطريق .. الذي يمتد إلي خمسة ساعات .. علي مقعد القطار !! ..

obeikan.com

الفصـــل الثـالـــث

ذكريات

الرجل الصالح هو الذي يحتمل

الأذي .. لكنه لا يرتكبه .

أفلاطون

****

يبدو

أن الإنسان .. عندما لا يكون له أحلاما .. للغد .. وتكون آلامه أكبر من أن يكون له آمال في المستقبل .. وحتي لا يهوي إلي قاع اليأس .. فإنه يترك لأفكاره .. ولذكرياته العنان .. تفتش في الماضي .. فقد يكون هناك العزاء .. وقد يكون هناك البديل .. فيتذكر موقفا يبهجه .. ولو قليلا .. أو يرسم فوق شفتيه بسمة .. ولو مؤقتة ..

أي أنه يبحث عن السعادة في الماضي .. إذا كان المستقبل يضن عليه بها !! .. ويبخل ..

وهو ما كان يحدث كثيرا .. مع أم مدحت .. التي استلقت علي الأريكة .. منهكة من أعمال البيت .. وراحت أفكارها تفتش في سابق الأيام ..

كانت الأم تؤدي صلاة العشاء .. بينما اتكأ ممدوح علي الأريكة .. يطالع إحدي المجلات .. وافترشت هند الأرض .. تلعب مع أختها سميحه .. لعبة السلم والثعبان .. بعد أن ملتا اللعب بالورق ..

وتناهي إلي أذني ممدوح طرقا بالباب .. فنحي المجلة جانبا .. ونظرإلي هند .. فوجدها مستغرقة في اللعب .. يبدو أنها لم تسمع الطرق.. فقال لها بصوت غاضب :

- **ألم تسمعي يا هند طرقا بالباب ؟! .. هيا أسرعي .. افتحي الباب ..**

ثم قال لها محذرا :

- **ولكن بعد أن تعرفي من الطارق ..**

وفي هذه الأثناء .. كانت الأم قد فرغت من الصلاة .. ومن الدعاء الذي توجهت به إلي الله عز وجل .. " اللهم يارحيم .. إرحمنا برحمتك .. واعفو عنا .. وفك الكرب .. وارزقنا من حيث لا نحتسب " ..

وقالت موجهة حديثها إلي هند التي تكاسلت في النهوض لكي تفتح الباب :

- **هيا يا هند .. افتحي الباب .. لم هذا التكاسل ؟!**

حاضر يا أمي .. إني أراقب سميحه .. فهي تغش في اللعب لكي تفوز !! ..

فقالت الأم في صبر علي ابنتها ..

- **وعلي الطارق أن ينتظر ؟!**

واتجهت هند إلي الباب .. صائحة :

- **من بالباب ؟!**

فجاء صوت مدحت مداعبا :

- **هيا يا هند .. افتحي الباب .. وإلا عدت أدراجي .. بما معي .. وما اشتريته من أجلك .. ومن أجل سميحة ..**

وهللت هند مبتهجة :

- **إنه أخي مدحت ..**

وفتحت الباب .. متسائلة في بشر وسعادة :

- **وما هو الذي معك .. أرني .. لماذا تخفيه وراء ظهرك ؟! ..**

فقال مدحت هامسا .. وهو يعرض عليها ما معه :

- **إنظري يا هند .. إنها فاكهة !! ..**

وأراد أن يقول لها :

" لا تقولي لأحد .. ولنجعلها مفاجأة لماما "..

إلا أن هند صاحت مهللة :

- **فاكهة ؟! .. في بيتنا فاكهة ؟! ..**

وأخذت تنادي أمها :

- **ماما .. ماما .. إن أخي مدحت قد أحضر لنا فاكهة ..**

ودخل مدحت علي أمه .. فقبل يدها .. واتخذ مجلسه إلي جوارها ..

وكانت بعد أن فرغت من الصلاة .. قد استقرت إلي جانب ممدوح علي الأريكة ..

وقدم لأمه في سعادة غامرة .. ما اشتراه من فاكهة .. ثم جعل يده في جيبه .. فأخرج منها بعض النقود .. وأخذ يد أمه .. وفتح راحتها .. ثم وضع النقود جميعها في يدها .. وأطبقها .. وقبلها ..

ولم تكن فرحتها ودهشتها بأقل من فرحة ودهشة هند !!

وقالت الأم .. وعيناها تتألقان .. دهشة .. وسعادة ! :

- **بارك الله فيك يا مدحت .. ولكن .. من أين لك كل هذا يا بني ؟!**

وقفزت سميحة فاستقرت علي حجر مدحت الذي تحبه كثيرا .. واتخذت هند مكانها إلي جواره ..

وكأنهما قطتان صغيرتان تحومان دائما حول من تحبان .. وتجلسان إلي جواره .. بعد أن تتمسحان بجسده ..

بينما ترك ممدوح المجلة جانبا .. وقد حملق في أمه تارة .. وتارة أخري في مدحت .. وكأنه يتساءل .. مثلما تساءلت الأم ..

وأجاب مدحت كل هذه التساؤلات .. الصريحة .. والضمنية .. قال :

- **هو رزق يا أمي من عند الله .. وأنا أعلم أن أخر مرة أكلنا فيها فاكهة .. لا يعلم حسابها إلا الله ..**

وضحك سعيدا .. وهو يمسك بذقن سميحة .. ويرفع وجهها .. ويقبلها .. قائلا لها :

- **أليس كذلك يا سميحة ..**

فقالت .. وهي تبادله القبلات :

- **أجل .. اجل ..**

والتفت إلي أمه .. قائلا :

- **أما النقود يا أمي فهي ما تبقي - بعد شراء الفاكهة - من أجري الذي أعمل به .. ولقد أعددت لك هذه المفاجأة .. لكي أدخل السرور إلي قلبك .. فأنا أعلم أن الجنيهات القليلة التي يعطيها لك أبي أول كل شهر.. لا تسمن و لا تغني من جوع .. فالتحقت بالعمل لدي عم فتحي .. صاحب المطبعة .. الكائنة في الشارع الخلفي والموازي لشارعنا .. وسوف أعمل لديه خلال الإجازة الصيفية .. وقد أخبرني أنه لا يمانع أن أستمر معه خلال الدراسة .. كعمل نصف دوام .. علي أن يمنحني نصف الأجر ..**

كانت الأم تسمع منه في صمت .. بينما انهالت دموعها مدرارا .. ولم تسعفها الكلمات من أن تنبس بكلمة ..

فكانت مشاعرها سعيدة .. حزينة .. فرحة .. متألمة ..

وأحس مدحت بما لم تقله .. وبما تريد أن تقوله .. وبما يختلج في صدرها .. من مشاعر متداخلة ..

ولف زراعيه حول كتفيها ..

وظل ساكنا ..

ورانت لحظات من الصمت ..

وكسرت سميحة السكون .. قائلة :

- **هيا يا أمي .. أعطني من الفاكهة ما يشفي غليلي .. فإني متشوقة !!**

وتناول ممدوح الفاكهة .. وأعطي سميحة ما فرحت به .. وكان لهند نصيبها .. وأخذ هو نصيبه .. ووضع الذي تبقي علي الطاولة ..

وقالت الأم .. من خلال دموعها التي بللت الكلمات :

- **كبرت يا مدحت قبل الأوان!! .. إنك لم تزل في الثانية الاعدادية .. فأين أنت من الشقاء .. والمسئولية ؟!**

وفهم مدحت ما تريد أن تقول .. فقال لها باسما :

- **لا عليك يا أمي .. فمن يستطيع أن يعمل .. فعليه أن يعمل .. حتي لا يترك هذا البيت يشكو من حاجة !**

ولم يزد هذا الكلام .. عيون الأم .. إلا بكاء !

ومرة أخري .. يسود الصمت ..

ولا يدري مدحت .. لماذا قفز أمامه طيف أبيه ..

ولماذا تذكر هذه الواقعة بالذات ..

علي الرغم من مرور نحو عام .. علي حدوثها ..

فقد حدث أن جال بخاطره أن يزور أبيه .. لما شعر بأن به شوقا إلي رؤيته .. وحنينا إلي لقائه ..

وضع مدحت يده في جيب سرواله .. واستخرج ما يحتويه من نقود ..

فوجد أن كل ما يملك هما " قرشان " فقط ..

وكان أبوه يعمل في نقطة شرطة قرية تسمي " بيهمو " .. علي مسافة تقدر بنحو خمسة كيلومترات .. من محطة القطار الرئيسية بالمدينة ..

ولكن قيمة تذكرة السفر بالقطار حتي بيهمو هي " قرشان " .. فما العمل ؟! .. وكيف أتصرف ..

هل أطلب من أمي " قرشين " .. هي قيمة تذكرة العودة ؟! ..

من أين لأمي بالنقود .. فلأتركها في حالها ..

وإذا طلبتها من أبي .. فلن يمنعها عني ..

أما المسافة من البيت إلي محطة القطار .. فسوف تستغرق مني نصف ساعة .. ذهاب .. ومثلها في العودة .. سيرا علي الأقدام ..

فلأتوكل علي الله .. وأذهب إلي أبي .. أقضي معه بعض الوقت .. ومن ثم أعود .. ولو أنني لا أكره أي وسيلة مواصلات .. كرهي للسفر بالقطار .. بطيء .. ممل .. مقاعده في أغلبها مكسورة .. مليء بالأتربة .. علي المرء أن يغير ملابسه .. ويستحم .. فور مغادرة هذا القطار ..

ولكن للضرورة أحكام ..

وعلي قدر " نقودنا " ..

وفي طريقه إلي محطة القطار .. كان مدحت يسير متمهلا .. فلم العجلة ..

واليوم طويل .. ولذا فقد كانت خطواته متراخية .. ومشيته متثائبة .. وساقاه متكاسلتان ..

وتعثرت قدماه في فرع صغير .. كان قد تساقط من شجرة من تلك الأشجار التي تراصت علي جانب الطريق ..

فمال والتقط فرع الشجرة .. وأخذ يلهو به .. فتارة يلوح به في الفضاء .. وتارة يعبث به في التراب الذي تراكم علي امتداد الطريق .. بين الأحجار المبعثرة في غير نظام ..

وما أن سار قليلا .. حتي وجد المياة تغرق المكان .. يبدو أن ماسورة الماء قد أصابها كسر .. أو انفجرت لسبب ما ..

وكان الماء المتسرب كثيرا .. ولما اختلط بالتراب تكون من الطمي ما ملأ الشارع .. ولا زالت المياة تزداد .. والله وحده يعلم متي يأتي رجال مجلس المدينة لإصلاح هذا العطب .. لوقف تسرب الماء ..

ربما بعد أسبوع !! .. تكون الأرض قد غرقت .. وغرق الناس معها ..

وتنامي إلي أذني مدحت صوت رقيق يناديه .. فالتفت صوب الجهة التي جاء منها النداء .. فوجد " منال " .. أخت صديقه " كريم " .. ومعها أختها الصغيرة " هاله " .. إبنتا الشيخ مصطفي ..

ولوحتا له بأيديهما .. واقتربتا منه .. باسمتين ..

فقد كانت الأسرة جميعها يحبون مدحت .. الأب والأم وكريم .. وحتي البنات جميعهن ..

وبادرته منال بالتحية .. قائلة :

- **كيف حالك يا مدحت ..**
- **الحمد لله .. وكيف حالك أنت يا منال .. وكيف حال كريم .. وعمي الشيخ مصطفى ..**

ثم داعب هاله .. وقال لها :

- **وكيف حالك يا هاله .. إلي أين أنتما ذاهبتان ؟!**

قالت منال .. في رجاء :

- **إنني ذاهبة إلي منزل الأستاذ لطفي .. مدرس اللغة الإنجليزية .. وهو موعد الدرس الخصوصي .. فهلا أتيت معنا .. فقط حتى بيت المدرس .. بدلا من أن نذهب بمفردنا ..**

فتساءل .. بغير رفض :

- **وأين كريم ..**
- **إن لديه بعض المهام التي كلفه بها أبي لإنجازها في القاهرة ..**
- **هيا أوصلكما .. فالوقت متسع ..**

قالت منال بامتنان :

- **شكرا يا مدحت .. سوف يسر أبي كثيرا عندما أعلمه أنك لم تتركنا بمفردنا .. وأيضا أخي كريم ..**
- **هيا .. هيا يا هاله ..**

وسألته منال :

- **إلي أين كنت متجها ؟!**

قال وهو يمسك بيد هاله ..

- **إنني ذاهب إلي والدي لقضاء بعض الوقت معه ..**

وإن هي إلا خطوات معدودات حتي فوجيء الجميع بالماء والطمي يتطاير ويلوث سروال مدحت .. وسيقان البنتين .. وملابسهما ..

فقد مر سائق أرعن بسيارته إلي جوارهما في سرعة جنونية .. جعلت الماء والطمي يتطاير .. فيغرق ملابس كل القريبين منه ..

وصاحت هاله مذعورة من المفاجأة :

- **يا إلهي ! .. ما هذا .. لقد أغرقتنا المياة ..**

وصاحت منال في استياء :

- **يا لك من سائق مجنون ..**

وعلق مدحت في غضب :

- **لا بد أنه شاب صغير أرعن .. فلو كان سويا لما انطلق في مثل هذا الشارع بسيارته .. بمثل هذه السرعة .. ولما أغرق الناس بالمياة ..**

ثم سأل منال عما هي فاعلة بعد أن تلوثت ثيابها .. قائلا :

- **والآن يا منال .. ماذا أنت فاعلة .. لا أعتقد أنه يمكنك أن تذهبي هكذا إلي المدرس ..**

وهزت منال رأسها في أسف .. قائلة :

- **أجل .. صدقت .. سوف أعود توا إلي البيت .. فأغتسل .. وأغير ثيابي .. ومن ثم أعود إلي الأستاذ لطفي ..**

وأشارت إلي سرواله الملوث .. متسائلة :

- **وأنت .. ألا تعود إلي البيت أيضا ؟!**

وقال يحدث نفسه :" وهل أقول لك يا منال أنني لا سروال لدي غير هذا ؟!.. الحمد لله علي كل شيء .."

وقال لها مبتسما .. غير مبال بالمياة التي أغرقت سرواله .. فقد كان هو الأقرب إلي السيارة المجنونة .. ولذا ناله الحظ الأوفر من المياة ! ..

- **كلا .. فسوف يجف الماء .. كما أنني أريد أن أقضي مع أبي أطول وقت ممكن قبل أن يحل الظلام ..**

وودعهما .. وأخذ طريقه إلي محطة القطار .. غير عابيء بما أصاب سرواله .. من البلل .. والتلوث !

وذهب إلي شباك حجز التذاكر .. ودفع ما معه من نقود .. وركب القطار .. واستقر في أول مقعد .. وأسلم نفسه لخياله .. تارة يأخذه إلي المستقبل .. فيري نفسه .. وقد تخرج .. وحصل علي ليسانس الآداب .. وحصل علي وظيفة محترمة .. وأصبح رجلا هاما .. له زوجة جميلة ..وإبنه رائعة .. وولد وسيم .. يقطنون بيتا واسعا .. يحيط به حديقة تفوح منها رائحة الأزهار والياسمين ..

وما يلبث أن تعود به أفكاره إلي الوراء ..

فيرى شقتهم المتواضعة .. وقد بليت الأريكة .. كما بلي كل الأثاث في البيت .. حتي أنه لم يعد لديهم إلا الحصيرة التي افترشوها علي الأرض .. حتي جهاز الراديو .. فقد خلا منه البيت .. كما أنه يستذكر دروسه مستعينا بضوء سراج .. يضيء بالنفط !! .. فهم لا يعرفون الكهرباء !! .. وهو واحد من الملايين .. في مصر القرن العشرين .. لا تصل إليهم الكهرباء ؟! .. ولا زالوا يضيئون منازلهم بالنفط ؟! ..

وأفاق مدحت .. فهذا هو القطار قد توقف ..

وهذه لافتة كبيرة كتب عليها اسم القرية .. " بيهمو " ..

وقبل أن يصل القطار إلي محطة بيهمو .. كان سروال مدحت قد جف .. إلا من بعض بقع الطمي .. وقد حاول أن يفركها .. فيخفف منها قدر الإمكان ..

وكان الطريق من محطة القطار إلي بيت والده عبارة عن ممر ضيق مترب غير ممهد .. ويحده من كلا جانبيه الزراعات .. وينتهي بشارع أكثر اتساعا .. وقد أقيمت علي جانبيه البيوت من الطوب اللبن ..

وقد أفرد الفلاحون مساحات لا بأس بها في هذه الدور .. لإيواء حيواناتهم .. من بقر أو جاموس .. أو حمير .. كما خصصت أماكن أخري لتربية الدواجن والطيور .. مثل الدجاج .. والبط .. والأوز ..

كما أن بعض البيوت لا تخلو من الحمام ..

وتتشابه معظم البيوت في الريف من حيث التصميم .. والبناء .. فهي في الغالب من طابق .. أو طابقين ..

وتقريبا الملامح واحدة .. سواء كان أصحاب البيت من الأثرياء .. أو من البسطاء .. فهم جميعا لا يأخذون من طرف الحضارة إلا بأيسره و أهونه .. محتفظين بما ألفوا من هذه الحياة الريفية البسيطة .. غير المتكلفة .. فلا تنسيق بين الأشياء .. ولا ترتيب .. ولا اهتمام بذوق معين في اختيار ألوان الأثاث ..

قد يكون المتاع كثيرا .. ولكنك تجده في غير نظام .. وقد استقر كيفما اتفق .. في إهمال شديد ..

فلا غرفة مخصصة لإستقبال الضيوف .. ولا غرفة مخصصة للأكل وتناول الطعام ..

بل يأكلون حيث يتفق لهم أن يأكلوا ..

وحتي مع توافر المقاعد و الكراسي .. فإنهم يؤثرون الجلوس علي الحصر والأبسطة .. علي الأرض ..

وفي قلب الصمت .. كانت الماشية تخور .. وتعالي نباح الكلاب ..

ها هو البيت ..

وطرق مدحت الباب .. واستقبله أبوه بالترحاب .. معبرا عن مفاجأته بهذه الزيارة .. ولكنه تحفظ .. فلم تكن نبرة صوته معبرة .. هل هي مفاجأة سارة ..أم أنها مفاجأة غير سارة ! ..

وهم مدحت أن يقول له :

" يا أبي .. أهي سارة أم أنها غير سارة هذه المفاجأة " ..

إلا أنه آثر ألا يهتم بهذه الفكرة التي راودته .. ونسيها تماما ..

وقال وهو يأخذ لنفسه مقعدا :

- **لقد أوحشتني يا أبي .. ففكرت في أن أزورك اليوم .. وأقضي معك بعض الوقت ..**

وسأله أبوه عن الأحوال في البيت .. وعن أمه .. وأخواته .. لكي يطمئن أن الأمور تسير بخير ..

وكانت زوجة أبيه قد أعدت طعام الغداء ..

فتناولوا الطعام ..

ولم يكن الطعام يختلف عما يتناولونه .. هو ووالدته وأخوته .. في البيت ..كما أنه لم يكن مبالغا في عدد أصنافه علي المائدة ..

وهو .. ربما ما كان يشير إلي عدالة والده في توزيع راتبه .. علي البيتين .. وهذا شيء إيجابي يحسب للوالد ..

ثم شربوا الشاي ..

وقد كان من عاداتهم في الريف أن يعدوا الشاي من دورين !!

فهناك كوب شاي في الدور الأول .. حيث يكون التركيز فيها أكثر قليلا ..

ثم يليها كوب شاي ثانية .. في الدور الثاني ! .. وتكون محلاة أكثر وأقل تركيزا ..

وعلي الرغم أن مدحت كان يرغب في قضاء الوقت بالتحدث والتسامر مع أبيه .. إلا أن الأخير كان قد انشغل بتدخين الغليون !!

فقد جلس الأب يعد الغليون .. وينظفها .. ويحشوها بهذا الشيء اللعين الذي يكرهه مدحت وأمه وكل أخواته .. ألا وهو الأفيون ..

وانقضي بعض الوقت ..

ولا زال الأب مشغولا بما يدخن ..

ولما كان المنزل يفتقد إلي المذياع .. فلم يجد مدحت ما يشغل به وقته .. ولذا أحس بأنه يرغب في مغادرة المكان ..

وقال لأبيه :

- **اسمح لي يا أبي بالعودة .. فقد رأيتك .. واطمأننت عليك ..**

فقال له أبوه .. بعد أن نفث شريطا كثيفا من الدخان .. من بين شفتيه:

- **ولكنك لم تقض معنا إلا وقتا قصيرا ..**
- **لقد اطمأننت عليك ..**
- **هكذا أنتم شباب اليوم .. لا يلبث أن يصيبكم الملل .. ولا تستطيعون إطالة الإقامة في مكان واحد .. وقد اعتدتم الثرثرة .. بغير حساب !!**

وقال مدحت .. في تردد .. وخجل ..

- **لقد كان معي قرشان فقط .. وقد دفعتهما لشراء تذكرة القطار .. وأريد منك قرشين .. لشراء تذكرة العودة ..**

ولم يكن مدحت يتوقع أن تثور ثائرة أبيه لهذا الطلب البسيط ..
أم هو سوء حظه الذي جعله يطلب أي شيء من والده .. بينما هو يدخن الأفيون..اللعين !!
فقد اندفع أبوه في نبرة قاسية .. وبصوت مرتفع سمعته زوجته .. وجاءت من الغرفة الأخري علي أثره .. لتستطلع سبب غضبه ..
وقد ضرب الأرض بقدمه .. حتي ارتجت أركان الحجرة .. بغير مبرر ..
قال غاضبا .. ملوحا بيده الممسكة بالغليون :

- **ولما لم يكن معك أجرة العودة .. لماذا تركب القطار وتأتي إلي هنا ؟!**

وفي اندهاش شديد .. قال مدحت في صوت ضعيف .. متألم :

- **يا أبي .. لم يكن يجول بخاطري أن تمنع عني هذا المبلغ البسيط ! .. كما أنني فكرت في أن عدم وجود أجرة العودة .. ليس بالسبب الذي يمنعني من رؤية أبي .. عندما أشعر بأنه أوحشني ! ..**

ولم ترد هذه الكلمات الأب عن قسوته .. كما لم تجد صدى في قلبه .. الثائر !! ..
فقال مستنكرا تصرف إبنه :

- **وماذا إذا حضرت إلي هنا .. ولم تجد أحدا بالبيت ؟!.. كيف كنت ستحصل علي قيمة التذكرة ؟! .. هل فكرت في هذا ؟! .. وكيف كنت ستعود ؟! ..**

فقال مدحت مستسلما .. بكلمات تقطر حزنا .. وهو يتمنى لو تميد به الأرض .. وتبتلعه ابتلاعا !!:

- **ساعتها يا أبي .. كنت سأعود .. سيرا علي الأقدام ! ..**

فألقي أبوه كلمات .. كانت كقنبلة .. أطاحت بعقله .. ومشاعره ..
فقد قال له .. والغليون لا يفارق يده .. ودخان الأفيون يملأ فضاء الغرفة :

- **إذن فافعل !! .. إن المسافة لا تتعدى خمسة كيلو مترات !!.. من هنا حتي بيتك !**

واستدار مدحت .. والدموع تنهمر مدرارة .. وقلبه يخفق .. وكأن قدماه

غير قادرتين علي حمله !! ..

وهبط الدرجات قفزا ..

حتي أنه لم يسمع صوت زوجة أبيه تنادي له .. بأن يصعد مرة أخري ..

وقد نهرت زوجها علي هذه القسوة .. قائلة :

- **كيف ترده .. وقد جاء لزيارتك .. ما هي قيمة القروش .. أمام غضب الولد .. وحزنه من تصرفك وقسوتك ؟! ..**

فأجابها .. يشرح موقفه :

- **ليست مسألة نقود .. إنني أريد أن أعلمه أن يفكر .. قبل أن يفعل .. وهو ابني .. وأنا أحبه .. ولكنني لا أحب فيه هذا الإرتجال في التصرف .. بدون تفكير ..**

وانصرف مدحت .. غير مستوعب لموقف أبيه !..

إنه لا يجد سبيلا إلي تصديق ما صك أذنيه !!..

وتمتم في نفسه :

- **إن الأبوة لم تختلج بصدره قط !! .. أم أنه الأفيون اللعين ؟ ! ..**

أي نوع من الرجال أبي ؟! ..

ولكنه يعود فيحنو علي أبيه .. متراجعا عن أحكامه القاسية ..

ثم يفكر .. ويتابع حديثه مع نفسه :

- **إن أفعاله ليست مرآة صادقة لقلبه .. فكثيرا ما يبدو صائحا .. ساخطا ..**

وأحيانا يبدو رحيما محبا لزوجته .. رفيقا عطوفا علي أبنائه ..

ولم يشأ أن يلقي اللوم علي والده !! .. ولا أن يحكم بقسوته !!

ومضي في طريق العودة ..

ولكن الشمس قد بدأت في الغروب ..

وبعد دقائق سوف يحل الليل .. ويبتلع الظلام كل شيء ..

وتذكر مدحت أن أعمدة الإنارة علي جانب الطريق لا تضيء .. فكان عليه

أن يجد في السير .. أحيانا .. ويجري أحيانا .. حتي لا يدركه الظلام قبل أن يصل إلي البيت ..

وبين البكاء .. والدهشة .. والاستنكار ..

قطع مدحت الطريق .. عائدا إلي البيت ..

وقد أعياه الجري ..

وأعياه أكثر .. موقف أبيه المتناقض !!

وأفاق مدحت علي صوت سميحه .. تقول له :

- مدحت .. كم هي رائعة هذه الفاكهة .. إنني أحب الفاكهة كثيرا .. متي تشتري لنا فاكهة مرة أخري ؟! ..

واهتز كيان مدحت ..

ورفع أخته الصغيرة .. واحتضنها .. وأشبعها تقبيلا ..

وقال لها :

- إن شاء الله يا حبيبتي .. كلما احتجت إلي الفاكهة .. اطلبي مني .. وسوف أشتريها لك .. وأجعلك تأكلينها كلها .. حتي تشبعين ..

ثم سألها مداعبا :

- هل تبقى منك شيئا.. أم أكلتيها كلها ؟!

فقالت له في براءة :

- لقد أكلت نصيبي فقط .. الذي أعطانيه أخي ممدوح .. وقد أكل هو أيضا نصيبه .. وهكذا فعلت هند ..

فأخذ مدحت نصيبه من الفاكهة الذي تركه له ممدوح .. ووضعه في يد سميحه قائلا :

- هذا لك يا حبيبتي .. فقد أكلت نصيبي بينما كنت قادما إلي البيت !! .. كلي حتى تشبعي ..

فتعلقت الصغيرة برقبة أخيها .. حتي تستطيع أن تقبله .. وهي تقول له :

- شكرا لك يا مدحت .. إنني أحبك كثيرا ..

ولم يكن قد أكل شيئا في الطريق ..

و نادت الأم ابنتها هند .. وأعطتها بدورها نصيبها من الفاكهة .. وكأنها تقول لنفسها :

" لن أكون أقل تضحية من مدحت " ..

وانصرفت الصغيرتان في سعادة .. تتلذذان بالتهام الفاكهة .. التهاما !!

واستلقى مدحت على الأريكة .. إلي جوار أمه .. وقد أسند رأسه على حجرها .. وأمسك يدها ووضعها فوق شعره .. وكأنه يطلب منها مداعبة شعره .. وتدليك فروة رأسه .. فطالما أحب منها ذلك ..

وبينما أمه تداعب شعره .. سألها فجأة :

- **يا أمي .. هل تذكرين يوم أن رفض أبي أن يمنحني قرشين .. ثمن تذكرة العودة بالقطار ؟! ..**

فضحكت الأم قائلة :

- **لم أكن أعلم أن قلبك أسود .. ألا زلت تتذكر هذا اليوم ؟! ..**

وبادلها مدحت الضحكات .. وقال موضحا موقفه من والده :

- **كلا .. والله يا أمي .. فأنت تعلمين أن هذا الموقف لم يغير شيئا .. ولكنني إذا كنت قد تذكرته الآن .. فإن ذلك فقط بغرض استيضاح الأمر .. ولكي أسألك .. لم فعل أبي ذلك ؟! ..**

وكانت الأم لا تزال تداعب شعره ..

فقالت ..

وقد جاءت كلماتها بطيئة .. مترددة .. كمن يبحث عما يقول ..

ويتحسس وقع الكلمات :

- **ربما أراد أبوك يومها .. أن يعطيك درسا .. كي تفكر .. قبل أن تفعل .. خاصة أنه يومها سألك سؤالا منطقيا .. لم تجد له جوابا .. عندما سألك : "ماذا لو لم تجد أحدا هنا بالبيت .. كيف كنت ستحصل علي قيمة التذكرة " .. هل تذكر ؟!..**

فقال مدحت باسما :

- **وربما تقولين ذلك لأنه زوجك !**

قالت .. وهي تحاول أن تذكره بأن أباه .. ليس بالأب الجاحد ..

- **بل ربما تتذكر أنت .. كيف كان سعيدا بولادتك .. فرحا بك في صغرك ..**

وكان يصطحبك دوما في نزهاته .. ويسير برفقتك في الشوارع القريبة ..

ممسكا بيدك .. متباطيء في سيره .. حتي لا تتعثر خطواتك الصغيرة ..

حتي تتعلم المشي .. وتقوى ساقاك .. وتنمو عضلاتك ..

وكان لا يضيق ذرعا بمئات الأسئلة التي كنت تلقيها علي مسامعه ..

فيجيبك بصبر و أناة !! ..

وربما لا تذكر يوم حملك فوق كتفيه .. وقد تدلت ساقاك .. وأمسكت رقبته بكلتا يديك .. فلم تكن قد تجاوزت الأربع سنوات .. وراح يلعب معك .. وتلهوان وتضحكان .. وفجأة سال بولك مدرارا علي ثياب أبيك .. وعلي صدره .. ولم يكن ليغضب منك .. في ذاك اليوم .. فهو يدرك أنك لم تزل صغيرا .. ولم تكن لتتمالك نفسك ..

بل أنه كان دائما يسرع لتلبية رغباتك ..ويسعد برضائك .. كلما حقق لك طلبا ..

كان هذا قبل أن تضيق به الظروف ..

عليك أن تتذكر رعايته لك ..

رعايته لك .. ولي .. ولكل الأسرة ..

عليك أن تعلم أن الأسرة .. جميعنا .. عنده .. أغلى من الدنيا ومن عليها ..

عليك ألا تأخذ أباك بآخر موقف .. ولا حتي ببعض المواقف ..

عليك أن تتذكر دائما أنه أبوك .. وليس صديقك .. أو رفيق دراستك ..

ولا تتحدث عن الهفوات .. أو الأخطاء ..

إن العصمة لله وحده ..

وقد يكون الأب في بعض الأحيان متناقضا .. فالأمر يتعلق بالحالة النفسية .. والوضع المالي .. وأشياء كثيرة ..

منها طبعا .. هذا الشيء اللعين الذي يدخنه والدك ..

وفي النهاية .. الأب هو الأب ..

ولا أحد يقيم الأب .. ولا الأم .. حسب أخر موقف !! ..

هو يحبك .. ولكن بطريقته !! ..

وربما كان يهدف إلي أن يعلمك شيئا هاما .. وهو أن تفكر جيدا قبل أن تفعل شيئا .. فلا تتصرف بعفوية وارتجال ..

قال مدحت .. وقد تذكر موقفا غريبا من أبيه .. أشد غرابة ..

- **نعم يا أمي .. إن لأبي مواقف غريبة .. متناقضة أشد التناقض !! ..**

هل تذكري يوم أن كنت ألعب بعود الثقاب .. وأشعله .. وأشعل به الشمعة .. وأراقب لهيبها المرتعش .. لقد أمسك أبي بأصبعي الضعيف بين يديه القويتان .. وجعل أصبعي علي نار الشمعة .. وضغط عليه حتي اكتوى بالنار .. لدرجة أن فقاعة قد تكونت علي أصبعي .. وظللت أصرخ من أعماقي .. وأبكي متوسلا أن يفلتني .. ولم يفلتني منه إلا يديك الرحيمتين .. وصراخك في وجهه .. وقلتي له يومها :

" هل تريد أن تحرق الولد الصغير .. ماذا فعل حتي تعاقبه هذا العقاب القاسي ؟! .."

لقد قال لك .. في هدوء يحسد عليه :

" إن حبي له أكثر من حبك له .. ولكنني أعلمه ألا يلعب بالنار مرة أخري .. أما تدليلك له فلن يفيده في شيء !! " ..

إن هذا التناقض في تصرفات أبي يفسر كل هذا ..

ثم أردف .. وقد أخذ يقبل يدها :

- **تعلمين يا أمي أنني أحب أبي .. وأعلم أنه لا يفعل ذلك لقسوة في طباعه .. أو كره لنا .. كما أنه ليس ساديا .. يحب إيذاء الآخرين .. بل إنه يحبنا**

بطريقته .. كما قلت لي الآن .. كما أنه يرغب في حمايتنا من الأسوأ .. كالدب الذي كاد أن يقتل صاحبه .. بلطمة قوية علي وجهه .. لكي يبعد عن وجهه الذبابة ..

وضحكت الأم .. وقالت مداعبة :

- **احترس إذن من لطمة قوية علي وجهك .. فإن يده لا زالت قوية !! ..**

فضحك مدحت .. وقال :

- **ولكن أبي ليس دبا !! ..**

فعلقت ضاحكة :

- **كما أنه لا ذباب علي وجهك !! ..**

obeikan.com

الفصل الرابع

في القطار

ما أجمل أن يكون الإنسان
شمسا بين الناس..
يلتمسون منه الدفء..

فإذا غاب اشتاقوا إليه.

****

كانت

الساعة قد جاوزت العاشرة صباحا بقليل .. عندما وصل مدحت إلي الكلية .. وقد اعتاد أن يذهب أولا إلي " الحمام " .. حتي يغسل وجهه ورأسه .. وينفض التراب عن ملابسه ..
وقبل أن يتجه إلي الحمامات .. كان هناك من يلوح له بيده .. وينـاديه .. والتفت مدحت صوب مصدر الصوت .. إنه يعرف صاحبة هذا الصوت الحلو .. العذب .. الذي يرق له قلبه ..
إنها " عفاف " .. زميلته في الكلية ..
وأقبلت عليه مبتسمة .. والبشر يكسو وجهها .. واقترب منها يبادلها الإبتسام ..
وعندما اقترب منها أكثر .. لاحظت التراب يغطي شعره .. ووجهه .. وحتي ثيابه ..
ولدهشتها .. فقد قالت له مازحة :

- **من أين أنت قادم ؟! .. لا تقل أنك قادم من المقابر .. أو أنك خارج للتو من تحت أنقاض عمارة قد انهارت !! .. أم أنك .. ودون أن نعرف .. قد التحقت للعمل مع رجال الدفاع المدني .. ممن يرفعون الأنقاض .. في حالات سقوط العمارات ..**

وضحكت .. كما ضحك مدحت .. وقال لها وهو يضع بعض المذكرات

في يدها .. قائلا :

- **كيف حالك يا عفاف .. خذي هذه المذكرات .. وسوف أوافيك إلي المدرج بعد قليل .. ريثما أغتسل .. وأنفض عن نفسي كل هذا الغبار ..**

واستتلي مازحا :

- **أهكذا .. بكل هذه السخرية .. تستقبلينني اليوم ؟! ..**

قالت عفاف .. وقد تناولت المذكرات .. معتذرة بلطف :

- **ما عاش من يسخر منك يا مدحت .. إنني أمزح .. والحقيقة أنني لي الكثير من العذر .. فإن الكثير من التراب قد علق بك .. فهيا اغتسل .. والحق بي .. وسوف أحجز لك مكانا إلي جواري كالعادة .. ولكن لا تتأخر .. فإنني متشوقة أن أعرف كيف فعلت هذا بنفسك !!**

واتجهت هي إلي المدرج ..

ومضي مدحت .. كعادته .. إلي الحمامات ..

وإن هي إلا دقائق معدودة حتي عاد .. ووقف أمام باب المدرج مستكشفا .. وأخذت عيناه تجولان هنا وهناك .. يستطلع المكان الذي استقرت فيه عفاف .. ورغم أن منال قد أخذت تلوح له فور أن دخل من باب المدرج .. إلا أنه لم يرها ..

ها هي عفاف .. إنها تجلس في الصف الثالث .. وقد حجزت له مكانا إلي جوارها ..

واتجه نحوها .. وشق طريقه بين الطلبة .. حتي وصل إليها .. واتخذ مكانه إلي جوارها ..

كان مدحت عند حسن ظن الناس به .. حسن الخلق .. يضحك في وجه الجميع .. مسالما بطبعه .. ويشي بريق عينيه ببياض قلبه .. يلتزم جادة الشرف والاستقامة ..

وكان له نظرة بارعة في عالم الفن والأدب .. واسع الثقافة ..ينفر من المشاحنات .. ويتجنب ما يريب ..

وهذا هو ما عهدته فيه عفاف .. بعد أن راقبته عن كثب .. طوال فترة الدراسة بالكلية التي قضياها معا .. وهي عامين وبعض عام .. وكلما تعرفت عليه أكثر .. كانت تتقارب منه أكثر .. حتي شعرت مؤخرا أن علاقة من نوع خاص .. هذه التي تربطها به .. رغم أنه لم يحدث يوما أن قال لها كلمة توحي بمشاعر خاصة منه تجاهها .. وربما كان هذا ما جعله بالنسبة لها .. شخصا مميزا ..

وهو أيضا ما وصفته به لأبيها .. عندما سألها عن سلوكياته .. وسمعته بين أقرانه ..

فقد فكرت عفاف في أن يأتيها مدحت إلي البيت .. في الفيوم .. لكي تذاكر بصحبته .. فهو ذكي .. فاهم دروسه جيدا .. وسوف يساعدها ذلك كثيرا في استيعاب الكثير من الموضوعات التي تحتاج إلي شرح منه .. ولو أنه كان لها في ذلك مآرب أخري .. بالإضافة إلي المذاكرة .. فإلي جوار مساعدتها في استذكار الدروس .. كانت تحب مجرد وجودها في حضرته .. وتأنس بقربه .. كما أن له دراية عميقة في مسائل السياسة .. والإقتصاد .. والعدالة الإجتماعية .. وطبقات المجتمع .. والهوة السحيقة بين هذه الطبقات .. والتي تزداد مع مرور السنوات .. بدلا من محاولة تقليلها .. فإنها تزداد اتساعا .. في رأيه .. فالغني يزداد غنى .. والفقير يزداد فقرا .. فكانت تحب أن تبادله هذه الأفكار المشتركة بينهما ..

ولثقة أبيها في سلوكياتها .. وحسن تصرفها .. فقد وافق علي أن تدعوه إلي البيت .. لمقابلته .. للتعارف .. وتناول الشاي معا ..

و نظرت عفاف إلي وجهه .. وقد ارتسمت ابتسامة عريضة علي شفتيها .. قائلة :

- **والآن أخبرني .. بالتفصيل الممل .. كيف استطاعت كل هذه الأتربة أن تتراكم علي شعرك .. ووجهك .. وملابسك !**

وكان وجهه مشرقا .. مبتسما ..إلا أنه قال مترددا .. ومتهربا من الدخول في موضوع يمس صميم حياته :

- **الأن ؟! ..**

قالت بالحاح :

- **نعم .. الآن ! .. الآن !**

ضحك ضحكة مكتومة .. وقال متعللا :

- **ألا تعلمين أنه بعد أقل من عشرة دقائق .. سوف يدخل الدكتور ؟! ..**

قالت مهللة .. وكأنها قد حظيت بانتصار في مباراة هامة :

- **آه .. أنت تعني أن هناك فعلا موضوع كبير وراء هذه الأتربة .. وأن شرحه يطول .. لقد أوقعت نفسك في فخ .. وسوف أكون كلي آذان صاغية بعد هذه المحاضرة .. مباشرة ..**

وأثناء المحاضرة .. كان مدحت قد نسي ما كان بينهما من حديث .. وما كان يشغله إلا فهم الدرس .. واستيعاب الشرح ..

إلا أن عفاف لم تكن كذلك !! ..

فقد كانت تنتظر انتهاء الدكتور من القاء المحاضرة .. ومن ثم خروجه من المدرج .. حتي تعرف ما قد يحكي لها مدحت من أخبار .. عن الغبار! .. وما أن انتهت المحاضرة .. وخرج الدكتور .. حتي اعتدلت عفاف في جلستها بحيث تواجه مدحت .. وقد شابكت يديها فوق صدرها مبتسمة وقالت :

- **ما رأيك .. هل تحكي هنا .. أم أن الموضوع يحتاج مني أن أدعوك إلي فنجان شاي في الكافيتريا ؟! ..**

فابتسم مدحت لما وجد منها من إلحاح .. وقال مستسلما :

- **بل سوف أحكي لك كل شيء .. بينما نتمشى .. هنا .. بين أسوار الكلية .. وكان مدحت قد اعتاد كل يوم .. منذ بدء الدراسة .. منذ عامين .. وبعض**

العام .. اعتاد أن يخرج من الكلية .. مباشرة إلى محطة القطار .. إلى الفيوم .. كما لم يدخل الكافيتريا .. يوما من الأيام !! ..

قالت .. وقد بدت كمن يتوقع أن يسمع أخبارا هامة ! :

- **ليس مهما أين تحكي .. بل المهم أن تحكي ! ..**

قال .. والبسمة لا تفارق شفتيه :

- **هيا !**

وخرجا من المدرج .. معا .. وسارا جنبا إلي جنب .. وقد صمت مدحت .. وهي تسير إلي جواره .. ينتظمان الخطى .. ويتهاديان في خفة .. وهي تنظر إلي جانب وجهه .. المواجه لها .. في انتظار أن يبدأ حديثه ..

وبعد دقائق من الصمت .. وكأنه كان يفكر فيم يمكنه أن يقصه عليها .. وما يمكن أن يكون مثارا للحديث .. وما هي المساحة التي قد يطلعها عليها من حياته .. وظروفه .. وأسرته ..

قال في تردد :

- **عفاف .. إنني فعلا سوف أقص عليك ما ترغبين في التعرف عليه .. فهل لك أن تساعديني .. وقولي لي .. ماذا بالتحديد ترغبين في معرفته .. ومن أين أبدأ ؟! ..**

وأسعدها أن يفتح لها قلبه .. قلبه المغلق بمائة مفتاح .. فها هو علي وشك أن يخبرها بما ترغب في معرفته .. وأخذها الطمع !! .. كما أخذتها النشوة .. وامتلأت عيناها فرحا .. وفاضتا بشرا وسعادة .. فأشرق وجهها ..

قالت .. يغمرها السرور :

- **كل شيء .. كل شيء يا مدحت .. أرجوك .. أخبرني عن كل شيء .. فأنا أحب أن أعرف كل شيء عنك .. عن حياتك .. عن أسرتك ..**

وخشيت أن تكون قد تمادت .. فتساءلت .. في عطف .. ورقة :

- **هل هذا ممكن ؟! .. أم تراني فضولية أكثر مما يجب ؟! ..**

وضحك مدحت .. حتي يخفف من حساسيتها .. ومن قلقها .. وتخوفها أن يكون في طلبها فضول ومغالاة ..

وقال .. متفهما :

- **بل علي العكس .. إنما يسعدني أن تكوني راغبة في التعرف على حياتي .. وظروف أسرتي .. فهو فضول حميد .. ومغالاة مقبولة .. محببة للنفس ..**

فلما سمعت ذلك .. زال عنها التكلف .. وقالت .. مهللة كطفلة .. فرحة .. تطلب من أمها أن تحكي لها حدوتة ما قبل النوم !! :

- **إذن كل شيء يا مدحت .. فلا تهمل شيئا ..**

ويبدو أن مدحت كان قد عزم أمره .. وقرر أن يطلعها علي تفاصيل حياته .. وظروف أسرته ..

وأخذ يحكي لها كل شيء .. كل شيء .. بلا خجل ..

إن أباه رجل رقيق الحال .. تتجسد في حياته .. حياة الطبقة المتوسطة .. بكل عذاباتها .. بكل آلامها .. فتتبادله الأيام .. بين الفرح .. ساعات .. والحزن .. شهور ..

وأمي .. لكم أحب أمي .. إنها ملاك بغير أجنحة .. ملاك يتهادي على الأرض .. فينشر بيننا الرضي .. وقت الضيق .. والبشر .. وقت الأزمات .. وما أكثرها ..

إن حبنا لأمي يفوق خيالك يا عفاف .. وهى في الحق .. تستحق منا أكثر من هذا الحب ..

إنك لا ترينها إلا مبتسمة ..

وأخي ممدوح .. حكاية .. بل قولي إنه حالة ..

لقد تزوج العام الماضي .. وكانت زوجته له فأل سعادة وخير .. فقد حظي بفرصة السفر إلي الجزائر في إعارة لمدة أربع سنوات .. فهو يعمل مدرسا في إحدي المدارس الإبتدائية .. في الفيوم ..

إنه يحب زوجته إلي درجة غريبة .. يحبها بجنون ..

ولكن .. هل تعلمين .. لقد أحببناها نحن أكثر منه !! ..
فقد اكتشفنا أنها زوجة عظيمة .. وفتاة رائعة .. وكان لها أثرا جميلا علي حياته .. فقلبتها رأسا علي عقب ..
تخيلي .. كان ممدوح أنانيا .. نرجسيا .. لا يحب إلا ممدوح !! .. ولا يفكر إلا في ممدوح ..
وشيئا فشيئا وجدناه يتغير .. وبدأ يساهم مع أمي في نفقات البيت .. بل ويرسل لأمي ولهند وسميحة وأبي ولي .. بدأ يرسل لنا الهدايا والملابس .. وكل هذا بموافقتها .. بل أحيانا بإيعاذ منها ..
والأكثر من ذلك .. أنه قام بتحمل كل نفقات خطوبة أختي هند التي تمت منذ أيام .. وقال أنه سوف يتكفل بنفقات زواجها بعد شهور قليلة .. بعد امتحاناتها .. فهي طالبة في الثالثة من الثانوية الفنية ..
وهند هذه أروع أخت .. إنها حقا فتاة رائعة .. وإنني أحبها أكثر من أي شيء في الدنيا .. ولا يضاهيها في هذا الحب .. إلا حبي لأختي الأصغر سميحة .. وماما .. إنني طبعا أحب أبي كثيرا .. وأيضا ممدوح .. ولكن قلبي ينفطر .. ولا أرى هند أو سميحة غاضبة أو متكدرة .. لا أعرف كيف أصف لك حبي لهما ..
وخطيب هند مدرس في مدرستها .. شاب رقيق جدا .. مؤدب .. ومثقف .. اسمه طارق .. وقد تعرفت عليه ذات يوم مصادفة .. بالقطار .. وتقابلنا .. وتآلف بسرعة معي ومع كل الأسرة .. حتي تآلف أيضا مع كل أصدقائي .. في الفيوم .. وعلمنا أنه سوف يصحبها إلي اليمن .. في إعارة أيضا ..
ولكن عليك .. يوما من الأيام .. أن تتعارفي مع هند .. وسميحة .. إنهما رائعتان .. وسوف تكتشفين ذلك بنفسك ..
و حكى لها ماذا يعمل والده .. وكيف أنه ظل يذاكر دروسه حتي حصوله علي الشهادة الإعدادية .. علي أضواء سراج .. يعمل بالكيروسين !! .. فلم يكن بيتهم يعرف الكهرباء !! ..

وكيف كان يعمل أثناء إجازات الصيف .. وهو لم يزل تلميذا في المرحلة الإبتدائية .. مقابل القليل من النقود .. لكي يمنحها لأمه .. حتى يمر باقي الشهر بسلام .. بعد نفاذ ما كانت تحصل عليه من الأب .. الذي كان قد تزوج من زوجة ثانية .. فأصبح يعيل بيتين .. في حين كان راتبه .. لا يكاد يكفي بيتا واحدا ..

وكيف أن راتبه لم يكن ليسمح لمدحت أن يلتحق بكلية عملية ..

ولا أن يقيم في القاهرة ..

وكيف اضطر أن يسافرإلي القاهرة .. في القطار .. وما أدراك ما القطار !!

وأنه مع هذا .. كان قد حقق تقدير جيد جدا .. في السنة الأولي .. والسنة الثانية .. ويتوقع .. علي الأقل .. نفس النتيجة .. هذا العام .. بإذن الله ..!

وكانت تسمع منه باهتمام بالغ ..

حتي أنهما لا يدريان كم من الوقت قد أمضيا في التمشية ..

يقول .. وتسمع ..

قالت .. وقد جاشت مشاعرها:

- **أشكرك طبعا يا مدحت علي هذه الثقة الغالية التي أوليتني إياها .. وعلي أن فتحت لي قلبك .. فادخلتني حياة أسرتك كلها .. وإنها أسرة رائعة .. يسعدني أن أتعرف عليها .. وأتقرب منها ..**

وصمتت قليلا .. ثم أردفت :

- **أما عنك .. فوالله .. إنك لبطل يا مدحت .. ولكم قاسيت .. وتحملت .. وصبرت ..**

قال مدحت بثبات :

- **الحمد لله .. أنتظر التوفيق من المولى ..عز وجل .. وستكون هذه هي أحلى مكافأة ..**
- **هل تعلم أنه لدي خبر لك ؟! ..**

قالت عفاف ذلك .. وقد استدارت .. وهمت بالإنصراف .. وهي تنظر في ساعة يدها .. مشيرة إلى أن الوقت قد حان لكي تعود إلى غرفتها في المدينة الجامعية .. سكن الطالبات المغتربات ..

قال لها باسما :

- **لست جادة فيما تقولين ..**
- **لقد أوكلني بابا في أن أدعوك يوم الجمعه القادم .. لكي تشرب معه فنجان شاي .. في بيتنا .. في الفيوم !**

قال متسائلا :

- **وهل ستكونين في الفيوم يوم الجمعه ؟!**

هزت رأسها بالإيجاب .. قائلة :

- **أجل ..**

سألها مندهشا :

- **وهل يعرفني والدك؟! ..**
- **لكثرة ما حدثته عنك ..**

قال وهو يشير بأصبعه السبابة إلي صدره :

- **عني أنا ؟!**
- **أي نعم !!**
- **وماذا قلت له عني ؟! ..**
- **وهل أنا ساذجة ؟! .. لقد أوقعتك في فخ .. فقلت لي كل شيء ..!!**

فهل أقع في نفس الفخ !! ..

وضحكت بصوت مسموع ..

ولوحت له بيدها .. قائلة مودعة :

- **مع السلامة ..**

واستدار مدحت بدوره .. متجها إلي محطة القطار .. لكي يعاود رحلته الشاقة .. المضنية ..

obeikan.com

كانت عفاف فتاة رائعة .. ينضح الحسن من محياها .. وجسدها .. وجهها جميل .. متسق الملامح .. موردة الوجنتين .. دقيقة الأنف والشفتين .. لها عينان سوداوان .. واسعتان .. تفيضان حياة .. ويسطع منهما بريق لامع .. وضوء باهر ..

شعرها البني .. يزيدها جمالا .. وقد انسدل في سلاسل إلى أسفل ظهرها .. وأما صوتها العذب .. الرقيق .. فكان يشبه لحن .. أبدع الفنان في لحنه وعزفه علي القيثارة ..

وقد جعل قلبها الطيب .. كل من يعرفها .. يلتف حولها .. وينجذب إليها .. وكأن قلبها مغناطيس .. جاذب للقلوب !!

في القطار .. أسند مدحت ظهره إلى مسند المقعد الخشبي .. وإلقي برأسه إلي الخلف .. تاركا العنان لخياله .. وأفكاره .. تذهب به إلي حيث شاءت .. فالوقت طويل .. ساعات .. وساعات ..

ولشد ما كانت دهشته .. عندما سمع صوتا جاءه من الخلف .. قائلا :

- **من فضلك يا أستاذ .. هل هذا المكان بجوارك .. ينتظر أحدا .. أم يمكنني أن أشغله ؟!**

قالت ذلك وقد اعتدلت واقفة أمامه .. في ابتسام ..

- **منال ؟! .. يا لها من مفاجاة !!**

وكانت مفاجأة أدهشت مدحت ..

فما لها بالقطار ؟! ..

وقد اتسعت عيناه ..

فجلست منال إلى جواره .. بعد أن أفسح لها مكانا مناسبا .. وقد تنازل لها عن مكانه إلى جوار النافذة .. وقالت في ابتسام.. مع التركيز على عينيه .. وكأنها تريد أن تقرأ فيهما شيئا قد يخفيه !!:

- **إنها حقا مفاجأة .. ولكن عليك التوضيح .. فمن المفاجآت .. السارة .. و منها غير السارة !! .. فأيهما هذه ؟! ..**

فأجاب .. وقد ارتسمت ملامح الجدية على وجهه :

- **إنها مفاجأة سارة جدا يا منال .. وأنت تعلمين ذلك .. ولكم يسعدني أن نعود اليوم معا .. وأن مفاجأتك والله قد أدخلت علي قلبي المسرة .. وأن وجودك هنا الآن .. كقطر الندى !.. وأن المفاجأة .. قد سببت لي الارتياح .. كل الارتياح ! ..**

فقالت .. وقد غضت بصرها .. واحمرت وجنتاها .. خجلا :

- **ولماذا إذن لا أراها كذلك .. بالنسبة لك ؟!**

فحار .. وهربت منه الكلمات .. وابتسم قائلا :

- **يقولون " ياما في السجن مظاليم " ..**

وأجابت مازحة :

- **هذا في السجن !! .. ولكننا هنا في القطار !!**

وما أن أكملت منال جملتها .. حتي سقطت فوق رأسها " قفة " .. كانت إحدي الراكبات قد وضعتها فوق الرف .. الذي يعلوها مباشرة .. فصاحت في فزع :

- **يا إلهي .. ما هذا ؟! ..**

وأسرع مدحت .. فرفع عنها القفة التي استقرت في حجرها .. بعد أن سقطت علي رأسها .. وأعادها إلي الرف .. ولكن في مكان لا يشغل أحد المقعد الذي تحته ..

وقال لها مطمئنا :

- **لا تخافي .. بسيطة .. وكثيرا ما يحدث هذا .. وأكثر ..**

وأخذت تنفض عن شعرها .. ووجهها .. الغبار الذي تناثر عليها .. من القفة ..

وهي تلعن القفف ..

وأراد مدحت أن يخرجها من حالة الإستياء .. فضحك .. قائلا :

- **الحمد لله أنها لم تسقط عليك " عسلا " .. كما حدث من قبل .. وإلا**

لما علمنا كيف نتصرف .. ولكانت ورطة .. ما بعدها من ورطة !!

وضحكت منال ضحكة عريضة .. وقد نسيت الغبار الذي تناثر عليها .. وسألت مدحت .. ولا زالت تضحك :

- **أحدث هذا معك ؟! .. احكي لي .. ماذا حدث .. وكيف تصرفت ؟! ..**

قال مدحت .. وقد حاول أن يجعل من الموضوع مادة فكاهية .. ولو أنه لم يكذب ..

- **لقد كان يوما غريبا من أوله ..**

فقد كنت أجلس هنا تقريبا .. على نفس هذا المقعد .. أو الذي يليه ..

وعندما وصل القطار إلى محطة " الواسطى " .. وكان يوم الثلاثاء ..

وفي هذا اليوم يكون عدد الراكبين كثيرا جدا .. فتزاحموا .. وتزاحموا .. وكان من بينهم من يحمل الدجاج .. والبط ..

وانزلقت قدم إحدي الراكبات ممن كانوا يحملون الدجاج .. وسقطت أرضا داخل القطار .. فطار الدجاج هنا وهناك ..

فتدافع الراكبون .. بعضهم يحاول أن يساعد الراكبة المسكينة التي لازمت الأرض تصيح .. وتقول أن ساقها قد التويت تحتها .. وأن الألم شديد ..

بينما انشغل البعض الآخر في محاولة الإمساك بالدجاج حتي لا يطير خارج القطار .. عبر النوافذ ..

ولهم الحق .. كل الحق في ذلك .. فالنوافذ .. إما أنها مفتوحة رغما عن الراكبين .. لأنه لا زجاج لها ..

وإما أن الزجاج موجود .. ولكنه مكسور !! ..

وطارت دجاجة هائجة خوفا ممن يحاولون الإمساك بها .. واستقرت فوق القفة التي كانت على الرف الذي يعلوني .. مثل هذا الرف ..

وأشار إلي الرف الذي سقطت من فوقه القفة علي رأس منال .. التي لم تتوقف عن الضحك .. وهو يحكي هذا الموقف الطريف ..

وسألته .. من بين ضحكاتها المتتالية :

- **ثم ماذا ؟! .. أين العسل ؟! ..**

فاستتلى قائلا :

- **هذه الدجاجة التي استقرت فوق القفة .. الموضوعة علي الرف الذي يعلوني .. اندفع إليها أحدهم .. لكي يمسك بها .. خشية أن تخرج من النافذة ..**

كانت اندفاعته قوية .. بحيث أنه فعلا أمسك بالدجاجة .. ولكنه تعلق في القفة .. فسقطت بعنف فوق رأسي .. وكانت تحوي عسلا .. أبيض .. عسل نحل .. ولسوء حظي .. فإن العبوات لم تكن قد أحكم إغلاقها .. وسال منها العسل علي شعري .. ووجهي .. حتي القميص الذي كنت أرتديه .. في ذاك اليوم .. لم يسلم من العسل !! ..

وكادت منال تسقط أرضا من كثرة الضحك !! .. وقد اهتز جسمها من الرأس إلي القدمين .. مع ضحكاتها .. التي جاءت من الأعماق ..

وسألته :

- **ثم ماذا ؟! .. ماذا كان عليك أن تفعل في هذا الموقف الغريب ؟!**

قال .. وهو لا يقل عنها تأثرا بالموقف الكوميدي :

- **لقد أصبحت أنا قبلة كل الأنظار والعيون ..**

وتجمع الركاب من حولي .. بين ضاحك من هذا المنظر .. والعسل يملأ وجهي .. وشعري .. وبين جاد .. ومشفق .. يتساءل عمن يحمل الماء حتي أغتسل !! ..

فلم يكن بالقطار ماء !!

ولا حتي في الحمام الوحيد .. الذي وجدوه في إحدي العربات !!

سألت .. ولا زالت تضحك :

- **كيف تصرفوا إذن ؟! ..**

فقال .. مازحا :

- **ألم تسمعي من يقول " قدر .. ولطف ".. أي أن الله قد ينزل البلاء علي الإنسان .. ويخفف منه .. فيجعله " لطيفا " ..**

وفعلا .. كانت مصادفة طيبة .. أن كان هناك راكب يحمل زجاجة ماء .. فقد يحتاج إلي أن يشرب .. وهو يعلم أن القطار بطيء .. وأن سفره سيطول ..

المهم أن هذا الراكب الطيب .. تبرع بالماء .. وغسلت رأسي .. ووجهي .. وأزلت بعض العسل من القميص الذي كنت أرتديه ..

ولكنني اضطررت أن أغادر القطار .. في أول محطة .. واستدير .. وأعود أدراجي إلي الفيوم .. في أول قطار عائد من القاهرة !!

وكادت أمي وأخوتي يسقطون أرضا من كثرة الضحك .. عندما وصلت إلي البيت .. وقصصت عليهم هذه الحكاية الطريفة !! .. حكاية العسل .. فقالت منال .. مبتسمة :

- **إذن فقد صدق من قال " اللي يشوف بلاوي الناس .. تهون عليه بلوته " وقال مدحت ضاحكا :**
- **عليك أن تحمدي الله .. فالتراب أرحم ..**

وضحك مدحت كثيرا .. وكان قد تذكر شيئا .. فقال ضاحكا :

- **هل تذكرين يوم أن أغرقت المياة ثيابك .. أنت وهاله .. في الفيوم ؟! .. وضحكت حتي ترقرقت في عينيها الدموع .. عندما تذكرت هذا اليوم الذي أغرقتها بالمياة تلك السيارة المجنونة .. عندما هم مدحت لتوصيلها إلي مدرس اللغة الإنجليزية .. الأستاذ لطفي .. قالت :**
- **وهل أنسى ذلك اليوم .. لقد كان سائقا أرعن .. مجنون ..**

ونظرت إليه .. ولا زالت تضحك .. قالت :

- **بالأمس أغرقتني المياة .. أما اليوم فيغرقني التراب .. أهذا هو كل ما أحصل عليه .. عندما ألقاك في كل مكان ؟! .. في الفيوم .. وحتي في القطار !! ..**

قال .. مندهشا :

- **إنما ذلك .. لحظي العثر !! ..**

وضحكا .. من القلب ..

ومر بعض الوقت في سكون .. وصمت ..

وقالت منال .. تكسر السكون :

- **هل تعلم يا مدحت ..أحيانا أقول في نفسي .. إن مدحت هذا فدائي ..**

لا .. لا تكفي كلمة فدائي .. إنك تقاسي كل القسوة .. في السفرمستقلا هذا القطار اللعين .. الذي لا يصلح لسفر البشر .. ولا يصلح إلا لنقل البهائم .. والحيوانات .. مع أسفي لك .. واعتذاري الشديد ..

فأنت تعاني .. كل المعاناة .. في استذكار دروسك .. في وقت لا نعلم من أين تحصل عليه .. بعد قضاء اثنتي عشرة ساعة في السفر؟! .. كما ذكرت لي من قبل ..

وصمتت لحظات .. ثم أضافت .. مواسية :

- **فمتى تأكل .. ومتى تنام .. ومتى تذاكر .. بعد يوم طويل من المحاضرات في الكلية ؟!**

وكيف تحصل علي تقدير جيد جدا .. كل عام ..

وليس هذا فحسب ..

بل أنك .. وهو غريب جدا .. أنك لا تري أنك مكافح ..

بل لا تري أن ظروفك تقسو عليك ..

فلا تشكو شيئا .. لا الزمن .. ولا الناس .. ولا المجتمع ..

بل إن الأكثر من كل هذا وذاك .. هي روح الفكاهة التي ترفرف من حولك .. وتحلق في فضاءك ..

وتضفي علي حياتك شيئا من الرضي .. والقبول ..

الرضى بالأمر الواقع .. والقبول بقضاء الله ..

دائما روحك مرحة .. دائما تبدو متفائلا ..

كيف ينشأ الإنسان سويا .. وقد أحاطت به هذه البيئة ..

كيف لا يكون معقدا .. من ينشأ في ظلال هكذا ظروف ؟!..

الظروف المعقدة .. المحبطة ..

كيف يكون محبا للناس .. من كان له مثل هذه الظروف ؟! ..

كيف لا يكون مكتئبا .. عبوسا ؟! ..

كيف جعلت الناس يحبونك ؟! ..

أليست هذه معادلة صعبة ؟! ..

ألا يقولون أن الإنسان إبن بيئته ؟! ..

فإذا البيئة أرضعت إبنها الفقر .. والعوز .. والحرمان .. فهل تنتظر منه إنسانا سويا .. رائعا ؟! ..

إنني جد آسفة يا مدحت .. علي التحدث معك هكذا حديث .. ولكن ما بيننا هو ما يرفع عني التكلف .. وانتقاء الألفاظ ..

ولو لم أكن أعرفك جيدا .. لزعمت أنك تمثل .. أو تدعي غير الحقيقة .. ولكنك لست كذلك ..

ولما كان رأيي هذا .. هو رأي كل من عرفوك ..

فمن أنت ؟!..

ألست فعلا .. فدائي ؟! ..

بينما كانت منال تدلي برأيها في مدحت .. كان يغض البصر .. وقد كست حمرة الخجل وجهه .. وقليلا ما كان ينظر إلي عينيها .. وكثيرا ما كان يرسل بصره من خلال النافذه .. إلي الأفق البعيد ..

وقال .. بعد أن انتهت منال من حديثها .. بكلمات .. لا يعرف كيف يستدعيها ..

وفي نبرة شاكرة .. ممتنة :

- **كل هذا عني ؟! .. أشكر لك يا منال كل هذا الكلام .. الذي لم أسمعه من أحد قبلك .. ولا أظن أنني أستحقه !!**

ولم تعلق منال ..

وقد أسند كل منهما ظهره .. ورأسه .. علي مسند المقعد ..

والقطار يقطع الطريق .. في بطء .. شديد .. بحركة ارتجاجية .. فكان يتأرجح ذات اليمين .. وذات الشمال .. كأنه قارب تتقاذفه الأمواج .. في عرض البحر .. أو مثل أوزة تجري وقد مال جسدها يمينا ويسارا .. في اهتزاز مستمر.. إلا أن حركة القطار تكسر عظام الراكبين .. وتصيب رؤوسهم بالصداع ..

وهو ما حدث .. فعلي اعتبار أن هذه هي المرة الأولي لمنال .. التي تسافر فيها بالقطار .. فكانت تشعر أن عظامها تكاد تنكسر .. بسبب حركة القطار واهتزازه بعنف ..

ولا يدري كل منهما .. فيم يفكر صاحبه ..

ولا إلي أين تحلق أفكاره ..

ولكي يكسر الصمت .. قال مدحت .. دون أن يوجه أنظاره إلي منال .. بل ظل يجول بعينيه من خلال النافذة :

- **أين كريم .. إنني لم أره اليوم في الكلية ؟ ..**

قالت .. وكأنها تنتظر فرصة جيدة .. للحديث عن " عفاف " !!

- **لقد كان موجودا في المدرج .. ولكنك بحثت عن عفاف .. واتجهت إلي مكانها مباشرة .. حتي أن الحديث بينكما .. بعد انتهاء المحاضرة .. كان طويلا !!.. وأنتما تتمشيان داخل أسوار الكلية !! ..**

ولم يكن من الصعب عليه أن يتبين ما وراء الكلمات .. ولم يزد عن أن يرسل ناظريه لمشاهدة الحقول التي يمر عبرها القطار .. في صمت ..

وشعرت منال أنه عليها أن تفسر شيئا .. فقالت :

- **أما عن المفاجأة التي كنت قد أعددتها لك .. والسفر علي متن هذا القطار**

اليوم .. فقد رغبت في أن أكتشف بنفسي كم هو سيء السفر بواسطة هذا القطار .. وكم هو شاق .. إلا أنني اكتشفت أنه أكثر سوءا .. مما وصفت لنا !! .. كان الله في عونك ..

قال مدحت .. قانعا .. راضيا .. وقد غض من بصره :

- **الحمد لله .. أنه موجود " أي القطار ".. رغم سوء السفر به .. وإلا لكنت في مشكلة كبيرة .. وربما .. بدونه .. لما استطعت أن أكمل دراستي الجامعية .. كما تعلمين ..**
- **ندعو لك .. بقوة التحمل .. والصبر !.. ونثق أنك تستطيع !! ..**

قالت ذلك .. ولكن يبدو أن ما يخالج صدرها .. جعلها تحاول البحث عن الكلمات المناسبة .. فأردفت قائلة :

- **وهناك شيء أخر .. أود أن أطلعك عليه ..**

فنظر إليها .. وقال مبديا الإهتمام :

- **تفضلي يا منال .. إني مصغ إليك ..**

قالت بخجل شديد .. كسي وجهها حمرة .. وقد تحامت عيناها عينيه ..

- **أنت تعلم يا مدحت أننا خمسة أخوات من البنات .. ويبدو أن والدي يشعر أنه قد كبر .. ويشفق علي أمي .. التي كبرت أيضا .. ويقول أن ما يقلقه هو أن تتحمل أمي .. من بعده .. مسئولية خمسة بنات .. كلهن في سن الزواج .. ويري أنه يحتم عليه هذا الوضع .. أن يوافق علي أي عريس يتقدم لواحدة منا .. إذا وافقت عليه البنت !!**

وصمتت .. لتعرف رد الفعل علي مدحت ..

ومرت دقائق في سكون .. وصمت ..

وكأن مدحت لا يعرف ماذا عليه أن يقول ..

كما لم يكن خافيا عليه ما تصبو إليه ..

ولكن كان عليه المناورة ..

فلا هو يريد أن يسبب لها إحراجا ..

ولا هو في وضع إجتماعي ومادي .. يؤهله للتقدم إلي أهلها طالبا يدها .. ولو أنها فتاة جميلة .. حسنة الخلق والتربية الدينية ..

قال .. مبديا التعاطف :

- **ربنا يطيل لهما في العمر .. ولا خوف عليكن .. فكل واحدة منكن أجمل من الأخري ..**

ولم تجد منه .. ما أرادت !! ..

وكأنما تحاول أن تسهل له المطلوب منه .. في عزة نفس .. قالت :

- **وإذا تقدم لي شاب.. في ظروف مادية غير مناسبة .. ووافقت عليه أنا .. فسوف يوافق عليه أبي !!**

وأسقط من يده !! .. فلا مهرب ..

قال مدحت مجاملا .. وربما هي الحقيقة :

- **وهل مثلك من ترضي بهذا ؟! ..**

وصمت قليلا .. ثم أردف :

- **الأسرة العريقة .. المستوي الإجتماعي المرموق .. لا مشكلات في الناحية المادية .. جمالك .. الذي لا ينكره أحد .. فتاة جامعية ..!! .. ما شاء الله .. لا شيء ينقصك يا منال حتي تقولي ما قلت .. لا شيء ..**

ونظرت إليه في حيرة وصمت .. وهمت أن تسأله .. " لماذا لا تتقدم أنت تطلب يدي .. إذا كنت تراني كذلك ؟! " ..

إلا أنها آثرت الصمت .. حفظا لماء وجهها ..

فليس عليها أن تقول له شيئا أخر ..

بل أنه ما كان عليها أن تقول له ما قالت !! ..

وكان مدحت قد عقد العزم .. وقرر أن ينأي بنفسه عن موضوع الزواج من منال .. ليس لأنها تفتقر إلي الجمال .. بالعكس .. إنها جميلة .. بل رائعة .. ظاهريا .. وروحا ..

ولكن لأنه لا يجرؤ حتي علي مناقشة الموضوع مع نفسه .. فأين أسرته

من أسرة منال .. بل أين هو نفسه - وحاله هكذا - من الزواج ؟!

كانت منال فارعة الطول .. وجهها أبيض مشرب بحمرة .. سوداء العينين .. أنفها دقيق مستقيم ..

وكانت غمازتيها حول الشفاة الدقيقة تزيدانها جمالا .. خاصة حين تضحك .. أو تبتسم ..

أما الشعر الأسود الفحمي اللامع الناعم .. فكان يجعل من وجهها مثالا للوجه الرائع .. حين تصففه بحيث ينسدل بعضه علي جبهتها حتي يغطي ما فوق حاجبيها .. ومن الخلف .. ينسدل باقي شعرها حتي يغطي ما حول كتفيها ..

وهو ما كان يحدث به مدحت نفسه .. إن فتاة .. جميلة .. يعجب بها ..

هاهي تجلس إلي جواره .. تكاد تطلب هي يده للزواج .. وتريده بإلحاح .. إلا أنه يؤمن بأنه ما أكثر ما يبعدها عنه .. وما أطول المسافة بينها وبينه .. وبين أهلها .. وأهله ..

obeikan.com

الفصل الخامس

التخرج

الحياة أمل فمن فقد الأمل فقد الحياة

أفلاطون

****

ما أن وقف مدحت في مدخل المدرج .. وجال بعينيه من حوله .. ومن أمامه حتي رأي موريس وسامي وسمير الخضري يجلسون علي اليسار من المدرج .. في الصف الرابع ..

أما المجموعة الأخري من الأصدقاء .. فكانت تضم كريم ومنال .. ومعهما أسامه .. وكانوا يلوحون له .. كما لو كانوا في انتظاره ..

توجه من فوره إلي حيث يجلسون .. وقد حجزوا له مقعدا إلي جوارهم .. في الصف الثالث .. وسط المدرج ..

وبعد أن تبادلوا التحية .. قال له أسامه مازحا :

- **كم أنت محظوظ يا مدحت ..!!**

وقبل أن يكمل حديثه .. قاطعه كريم ضاحكا ضحكة رنانة .. التفت إليه علي أثرها الطلبه من حوله ..

وقال :

- **لا .. لا .. تحدث عن الحظ علي أي انسان أخر .. إلا مدحت !!**

وأضافت منال مبتسمة :

- **نعم .. صدقت يا كريم .. فقد ضل الحظ طريقه إلي مدحت !!**

وقال مدحت ضاحكا :

- **ما بالكم يا شباب ..**

ثم أردف مستبشرا :

- **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .. فلا تحبطونني ..**

ثم أشار إلي أسامه .. وقال ولم يزل ضاحكا :

- **ولربما تحقق الحظ علي يد أسامه .. فلنسمع منه ..**

قال أسامه :

- **لقد طلبت مني أمي اليوم أن أوجه الدعوة لمدحت لتناول الغداء لدينا في البيت .. وبالمرة .. بالمرة .. أدعوك معه يا كريم .. أنت وأختك منال .. أي أنكما علي هامش الدعوة !! .. تخيلا ذلك ..**

فقال كريم ضاحكا :

- **ولو .. سوف نقبل الدعوة .. وسوف نتخذ أماكننا حول طاولة السفرة قبل أن تفعلوا .. فأنا أموت في أكل الحسين !! ..**

وقالت منال قول الواثق من نفسه :

- **بل إنكم لا تعرفون شيئا .. إنها تعتبرني أنا وكريم من أهل البيت .. فلا حاجة لنا لدعوة .. ولذا .. فسوف نتقدمكم .. في حفل الغداء ..**

وسأل مدحت موجها الحديث إلي أسامه :

- **ولكن .. ما سبب هذه الدعوة اليوم ؟!**
- **ربما لأن الامتحانات قد اقتربت .. وبعدها تتخرجون .. وتصبحون من حملة المؤهلات العليا .. أي من وجهاء المجتمع .. ومن شاغلي الوظائف المرموقة .. وتنسون أسامه .. وأهل أسامه !!**

وها هي عفاف ترتقي درجات المدرج .. صوب مدحت .. فقد كانت تجلس في البنش في الصف الأول .. ويبدو أن مدحت لم يرها عند قدومه ..

وبعد أن قدمت التحية إلي منال وكريم وأسامه .. قالت لمدحت :

- **انتظرني بعد المحاضرات اليوم يا مدحت .. فاليوم الخميس كما تعلم .. وسوف أسافر اليوم معك إلي الفيوم ..**

فضحك مدحت وقال مازحا :

- **أه .. إذن عليك يا عفاف أن تحضري معنا حفلة الغداء التي دعانا إليها**

أسامه لتوه ..

فتدخل أسامه في الحديث .. موجها لها الدعوة :

- **والله يا عفاف ليتك تقبلين .. فإن وجودك معنا يسرنا .. بل يشرفنا ..**

فقالت عفاف في امتنان :

- **أشكرك كثيرا يا أسامه .. قد أفعل .. في يوم أخر ..**

ثم وجهت الحديث إلي مدحت .. متسائلة :

- **في أي وقت تعود من منزل أسامه ؟!**

قال مترددا .. فهو لا يدري متي ينتهي من تناول طعام الغداء ..في بيت أسامه .. فهذا يتوقف علي أشياء .. خارج سيطرته !

- **إنني لن أتمكن من إدراك القطار الذي ينطلق في الثالثة بعد الظهر .. مما سوف يضطرني إلي انتظار الموعد الذي يليه في السادسة مساء ..**

قالت .. متسائلة :

- **وماذا في ذلك ؟!**
- **إنك لا تدرين إذن أنه يصل إلي الفيوم بعد خمس ساعات !! .. أي في الحادية عشرة مساء .. !! .. ألا يعني هذا لك شيئا ؟! ..**

فهزت رأسها .. بأن نعم .. إنه وقت متأخر جدا .. أن تصل إلي الفيوم في الحادية عشرة مساء ..

وقالت .. في إلحاح :

- **ولكن هناك حل أخر ..**

وصمتت ثواني .. ناظرة إليه .. وأردفت :

- **سوف أنتظرك في محطة الحافلات .. إنس القطار اليوم !**

وصمت مدحت .. وقد تعلقت عيناه بعينيها .. دون أن يقول لها شيئا .. إيجابا .. أو رفضا ..

إنه متردد لسبب ما . . لا يستطيع أن يفصح عنه ..

وقرأت ما تقول عيناه .. ولم تستطع أن تقوله شفتاه ..

وحدثت عفاف نفسها .. " المسكين .. ربما كان يفكر في أن الفرق بين قيمة تذكرة الحافلة .. و قيمة تذكرة القطار .. هو ما يجعله يتردد .. وربما كان ما يملكه من نقود .. إنما يكفي فقط للسفر بالقطار " .. فقالت له عفاف وهي تستدير منصرفه .. وكأنها قد حزمت الأمر !!

- لا تكن سخيفا .. سمجا .. ودع ما تفكر فيه .. سوف أنتظر منك مكالمة .. عندما تهم بمغادرة بيت أسامه .. فأنت تعلم رقم تليفون السكن .. ومن ثم نتجه مباشرة إلي محطة الحافلات .. في ميدان " أحمد حلمي" .. فلا تتأخر ..كما أنني سوف أتصل بوالدي .. حتي لا ينتظرني في المحطة في الفيوم .. لأنك سوف تصحبني إلي البيت !!

وصمت ..

فكان صمته موافقة .. علي كل ما قالت ..

مكتفيا بابتسامة عريضة ..

ملوحا لها .. بأن مع السلامة ..

رغم أنها كانت قد انصرفت ..

وتابعتها عيناه .. كانت تنطلق رشيقة الخطو .. ريانة كزهرة الربيع .. خفيفة كالفراشة ..

وكانت منال تتابع الحديث الذي جري للتو .. بين عفاف .. ومدحت ..

وأدركت أن الأمر بينهما .. ربما .. ربما كان ينطوي علي أبعد مما تظن !!

إن الشك يداخلها ..

وإن النفس لتنازعها إلي مصارحته بما يدور في خلدها ..

ولكن الشجاعة تخونها .. ويعقلها الحياء ..

وضاق صدرها ..

إن نورا يخمد في قلبها .. وتنطفيء شموعه .. الشمعة تلو الأخري ..

حتي الأمل الوهمي .. الذي كان يجعل أمنيتها محتملة التحقيق .. قد تبدد .. وتلاشي ..

وتسللت أحاسيس اليأس والحزن إلي أعماقها ..

ولم تعد تدري مما يدور حولها شيئا !!

وألقي بها بدون رحمة في مركز الدوامة .. دوامة لا تبقي جسدها كل متماسك .. بل أجزاء .. تتقاذفها الرياح .. ممزقة ..

والدنيا تراءت لها ألوانا وأصوات ..

أفكارا .. وخيالات ..

ملائكة وشياطين ..

كلها أشياء متلاطمة ..

وشردت .. وشرد ذهنها ..

دامعة العينين .. كسيرة الفؤاد ..

حتي أنها لم تكن لتدري .. متي بدأت المحاضرة .. ومتي انتهت ..

إلا عندما قال لها كريم :

- **هيا يا منال .. فلننطلق إلي الغداء !! .. في حي الحسين ..**

ولو كان الأمر بيدها .. لاعتذرت عن هذه الدعوة .. ومضت إلي البيت .. لكي تلقي بجسدها علي الفراش ..

وتدفن رأسها تحت الوسادة .. و تترك لعينيها فرصة البكاء .. قدر ما تشاء !! .. حتي تجف الدموع ..

وتوجهوا إلي حي الحسين .. حيث يقيم أسامه ..

كان والد أسامه .. تاجرا ميسور الحال .. وقد جاوز الخامسة والخمسين من العمر .. بدين قليلا .. وقد غزا الشيب رأسه منذ سنوات ..

وكان يبدو لمن يراه سليل أسرة تركية ..

فكان وجهه أبيض .. مستدير .. واسع العينين .. جميل الملامح ..

إلا أن زوجته .. والدة أسامه .. متوسطة الجمال .. تميل بشرتها إلي السمره .. ضيقة العينين .. لا نستطيع أن نقول أن أنفها دقيق ..

إلا أنه لم يكن كبيرا ..

ولكن لم يكن يعوزها رقة .. أو طيبة ..

بل كانت ودودة .. مبتسمة العينين والشفتين دائما ..

وكان من الغريب أن يرث الأولاد جمال الأب .. وترث البنات ملامح وسمرة بشرة الأم ..!!

فكانت أخته " فاطمه " متوسطة الجمال ..

وقد اكتفت بالتعليم المتوسط ..

إلا أن الجمال لا ينحصر في الوجه .. والجسد .. بل يتعداهما إلي العقل والروح ..

فكانت لطيفة .. قوية .. طيبة القلب .. تتحلي بمكارم الأخلاق ..

ولم تكن أخته " خديجه " أوفر حظا من فاطمه .. في التعليم .. ولا في الجمال !! ..

وكانوا يقطنون عمارة رقم 8 .. في حارة " القزازين " ..

قبل الحسين مباشرة .. للقادم من جهة " الدراسة " .. إلي اليمين بمحاذاة مسجد الحسين ..

أما حارة القزازين .. فكانت نموذجا أصيلا لتصميم و لشكل الحارات في حي الحسين ..

فقد تراصت البيوت علي الجانبين .. يفصلها عن بعضها شريط ضيق من الأرض ..لا يتعدي في بعضه عن مترين .. وفي البعض الآخر مترين ونصف .. تكاد تسده عربة يد ..

وهاهي بيوته تكاد مشربياتها تتلامس .. ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها .. كخلايا النحل .. والتراب يغطي أرض مليئة بالحفر .. فيتحول وحلا بمجرد تساقط بعض الماء .. أو المطر ..

والمقاهي التي امتلأت أناس .. لا يشغلهم إلا تدخين " النرجيلة " .. ولعب النرد والدومينو .. وتناول الشاي .. والقهوة ..

كل الوقت يقضونه في الثرثرة ..

واللعب! ..

بينما هناك الكثير من البطون الجائعة .. والأيدي الممدودة .. والعيون المتوسلة !.. حول الحسين .. وفي كل الشوارع والحارات المحيطة به !

كما كانت النسوة يرحن ويغدين في الحارة .. وقد اختفت أجساد أغلبهن وراء ملاءات اللف السوداء .. بعضهن سافرات .. وبعضهن منتقبات ..

وكان أسامه دائم التفاخر بمأكولات مطاعم حي الحسين .. التي لا مثيل لها في أي مكان أخر ..

فهنا أشهي طعمية .. وألذ فول مدمس .. وأطعم كباب .. وأمتع كوارع .. وأحلي لحمة راس ..

وتراصت علي الجانبين دكاكين العطارة .. والبقالة ..

وصالونات الحلاقة .. والخطاطين ..

وبازارات منتجات خان الخليلي .. والآثار المقلدة .. والتحف ..

كما اصطف ماسحو الأحذية علي الرصيف .. في جانبي الطريق الضيق ..

وفي العقار رقم 8 .. إلي اليسار .. إرتقي أسامه وأصدقاؤه الدرج .. صعودا إلي الطابق الثالث ..

حيث كانت الأم تستقبلهم في ترحاب .. ومودة ..

وكانت حجرة الإستقبال واسعة .. منسقة الأثاث .. وقد تجملت النوافذ بستائر جاءت ألوانها متناسقة مع ألوان البساط الفاخر .. وألوان القماش الذي كسيت به كراسي الصالون .. الذهبي ..

كما استقرت في أحد الأركان أصيصة كبيرة .. إحتوت أزهارا رائعة تم إختيارها بعناية .. من زهور البيتونيا البرية ..

كما كانت الزهور تملأ عتبات النوافذ .. من زهور البورتولا الصغيرة .. والبيجونيا .. التي وضعت بعناية في أواني الزهور البلاستيكية ..

وفي ركن أخر وضعت أباجورة كبيرة فوق طاولة مرتفعة قليلا ..

كما علقت في السقف " ثريا " .. أضاء كريستالها وتلألأ .. توحي بذوق رفيع .. وسعة في العيش ..

وأما الحائط المواجه للأريكة الكبيرة .. فقد علق عليها إطار رائع الصنع .. لبعض الآيات من القرآن الكريم ..كانت قد تم تطريزها بالصدف .. مما زادها تألقا وجمالا ..وطعمت حولها .. بالنحاس .. مثل منتجات خان الخليلي ..

وفي الوسط من الغرفة استقرت طاولة جميلة .. من الخشب .. الموشي أيضا بالصدف .. وضع فوقها قطعة رائعة من الرخام ..

وجاء الطعام ..

كانت أهم الأصناف التي قدمت .. هي " المكرونة بالبشاميل " ..

والغريب أن أول مرة يأكل فيها مدحت المكرونة بالبشاميل .. كانت هنا .. عند أسامه !! ..وآخر مرة أيضا ..

وكان يحبها كثيرا ..

ولذا كانت أم أسامه .. في كل مرة يتناول فيها الغداء لديهم .. كانت تعد له هذا الصنف الذي أحبه .. والذي لا يتناوله إلا هنا !! ..

أما في بيته فلم يكن مدحت يشتهي أي صنف من أصناف الطعام أو الشراب .. فقد اعتاد أن يأكل الموجود من الطعام .. وكأنما يأكل فقط ليسد جوعه .. ويفي بحاجة معدته للطعام ..

فلا تذكر أمه أنه طلب منها يوما أن تعد له صنفا معينا من ألوان الطعام المختلفة ..

وكان أصدقاء مدحت يرون في هذا عزوفا عن الدنيا .. وزهدا ..

وهي صفة كانوا يحبونها من صفاته الجميلة العديدة ..

ومما اشتهر عنه أيضا عزوفه عن النساء .. فلم يكن يري في البنات من حوله إلا الزميلة في الجامعة .. أو الجارة أخت صديقه .. أوإبنة الحي ..

أما الفتاة الأنثي التي يري فيها الشباب وجمال الجسد .. و سحر العيون .. فلم يكن يشتهيها .. كما يفعل معظم الشباب ..

لم يكن ذلك عن حياء أو خجل .. ولكنه التزام .. واحترام ..

احترام لنفسه .. و بنات جيرانه .. وأخوات أصدقائه .. وزميلات الجامعة .. أو الكلية ..

فلا علاقات .. ولا مغامرات نسائية ..

فتاة واحدة هي التي استطاعت .. وفي غفلة منه .. أن تتسلل إلي قلبه .. هي عفاف .. إلا أنها لم تستطع أن تجعل عقله يغير من طباعه المغلقة الصامدة أمام أية علاقات نسائية .. قبل أن يحقق المستقبل المنشود .. لكي يكون جديرا بالزواج والإرتباط الآمن من غوائل الزمن ..

فحسبه نفسه وأسرته .. من المعاناة .. والبؤس .. الذي لا يتمناه لأولاده .. ولزوجته ..

حتي أن الجيران كثيرا ما كانوا يطلقون عليه " الشيخ مدحت " ..

وعلي ضيق ظروفه المادية .. ورغم ضيق ذات اليد بالنسبة لأسرته .. ربما تمنته كثير من الأسر زوجا لإبنتهم .. بعد أن يتخرج ..

فقد كان مثالا للخلق الكريم .. والسيرة الحسنة .. ومثالا للزوج كما تتصوره الطبقة المتوسطة ..

لم يكن مدحت يعتد التردد علي المقهي .. ولم يكن من المدخنين قط .. ولا يقرب الشرب ..

وكان بالطبع .. كغيره من الجامعيين .. ينتظره مستقبل عريض مضمون .. وربما حاولت بعض الأمهات أن يغزلن حوله شبكة الزواج .. فيغضضن البصر .. حول محاولات بناتهن الجلوس إليه .. واستدراجه لأي نوع من العلاقات ..

إلا أنه لم يكن ليسمح لنفسه أن يقدم علي أي نوع من المغامرات معهن .. أو أن يقدم لهن الوعود بالزواج .. أو حتي الإرتباط ..

وكانت أم أسامه صديقه .. أم .. مثل غيرها من الأمهات ..

فلا بأس أن تفكر مثلهن .. في شأن زواج بناتها ..

وبعد تناول الشاي .. استدعت أم أسامه مدحت .. في غرفة أخري ..

متعللة بأنها ترغب في أن يصلح لها شيئا .. فإن إبنها أسامه .. لايصلح في البيت شيئا إذا فسد ..

وفي الحقيقة .. لم يكن لديهم في البيت شيئا في حاجة إلي إصلاح ..

بل كانت ذريعة .. تتذرع بها أمام باقي الضيوف !!

وأجلسته .. قائلة :

- **تفضل يا مدحت .. إجلس .. إنما أردت أن " أدردش" معك قليلا ..**

فجلس ..

و قال .. وقد حار فكره:

- **خير يا أمي .. تحت أمرك !**

وكانت قد استقرت في المقعد الذي يجاوره ..

وبدت .. كمن تتنازعها الأفكار .. أفكار تدفعها إلي الإقدام .. وأفكار تصدها .. فلا تتحدث ..

وتمتمت في همس .. وهي تتحامي عينيه :

- **يا إلهي .. ما أصعب الموقف .. ما أصعب الموقف ..**

وانعقد لسانها حياء و خجلا ..

ولكن ثمة ما كان يدفعها دفعا .. أن تنهي .. ما جاءت بمدحت من أجله ..

فقالت في خجل شديد :

- **تعلم يا مدحت أن أسامه يحبك كثيرا .. ويشيد بنبلك و أخلاقك .. وإن لك والله لمكانة عظيمة في نفوسنا .. جميعا أهل البيت .." وكانت تشدد علي كلمة جميعا " .. بعد أن لمسنا من سلوكياتك .. وأفكارك .. والتزامك بالدين .. طوال أربعة أعوام .. هي سنوات الجامعة مع أسامه ..**

وكان مدحت يسمع إليها .. ولا يعرف بماذا يرد علي هذا الثناء ..

ولايعرف حتي أسبابه .. ولا إلي أين يقوده ؟! ..

قال .. في حيرة :

- **أنتم الأحسن يا أمي .. ولقد نلت كل الشرف بالتعرف عليكم .. وعلي إبنكم .. صديقي أسامه ..**

قالت الأم .. وقد تلعثمت .. وتاهت الكلمات منها .. وصعد الدم حتي بلغ رأسها .. وكست حمرة الخجل وجهها :

- **لا أعرف والله يا مدحت .. كيف أقولها لك !! ..**

وسكتت لحظات .. كانت لها كأنها الدهر !! ..

ثم أردفت .. وهي خافضة الرأس ..

- **إن المثل يقول " أخطب لإبنتك .. ولا تخطب لإبنك " !! .. أليس كذلك ؟! وصمت ..**

فهو أيضا لا يعرف شيئا مما تقول ..

وشعرت أنه عليها أن تكمل ..

قالت .. وكأنها عزمت علي أن تقولها .. وتتوكل علي الله !!

- **هل أنت خاطب يا بني .. أو تقدمت لطلب يد فتاة ما ؟!.. أو مرتبط بشكل أو بأخر ؟!..**

وهنا وضح الأمر .. وعرف مدحت ما يجعل الأم تتصبب عرقا ..

وتنكمش علي نفسها .. وتريد لو تميد بها الأرض !!

فأشفق عليها .. وعلي أمومتها !!

قال في تأدب كبير .. وبصوت ناعم .. يليق بمخاطبة هذه الأم التي ترغب في سترة إبنتها :

- **أبدا يا أمي .. لم يحدث .. فلم أتقدم لخطبة فتاة ما .. كما أنني لست مرتبطا ! ..**

وحتي يجنبها المزيد من الإحراج .. فلا تسترسل في حديثها عارضة إبنتها عليه للزواج ..

فقد استتلي .. معللا :

- **ولا أخفي عليك يا أمي .. كما لم أخف علي أسامه .. إن الوضع المادي للأسرة .. لأسرتي .. لا يسمح لي .. الآن .. بمجرد التفكير في الزواج .. أو حتي الإرتباط ..**

فإن لي أخت .. في سن الزواج .. وعلي أولا أن أنفق علي زواجها .. كما أنه علي أن انتهي من أداء فترة التجنيد .. ربما عام .. وربما نيف وعام .. لا أدري علي وجه الدقة .. لكم من الشهور .. ستدوم فترة التجنيد .. ومتي أخرج من الجيش ..

وهناك أمي . . لأنفق عليها .. وأعوض عنها سابق الأيام .. ولو أنني لا يجب أن أتجاهل جهود أخي مدحت في مساعدة أمي قدر استطاعته ..

وأيضا أختي هند .. إنها بارة بوالديها .. وقد تحسنت ظروف البيت كثيرا عن ذي قبل .. ولكن هذا لا يعفيني من المسئولية .. تجاه أسرتي .. فإنني أشفق علي والدي أيضا .. وعلي مساعدته ..

ولا شيء غير هذا .. يدعوني إلي نسيان فكرة الخطوبة .. أو الزواج .. في الوقت الراهن ..!

وتنفست الأم الصعداء ..

وزال عنها الكابوس الذي كاد أن يطبق علي أنفاسها .. ويوقف ضربات قلبها !!

وقد شعرت في هذه اللحظة .. بمقدار ما يحمله هذا الفتي .. من نبل وطيبة وأخلاقيات ..

وحمدت الله أنها لم تكشف له عن مكنون صدرها ..

وإلا لكان الموقف الرهيب المحرج الذي كانت تود أن تتلافاه .. وتتجنبه .. قالت .. وقد عادت الدماء تجري في عروقها ..وعادت إليها ابتسامتها التي فارقتها طوال هذا اللقاء !:

- **إن شاء الله يا بني .. سوف يعطيك ربك ما تستحق .. طالما كان لك**

هذا الهدف الجميل من مراعاة أمك .. وزواج أختك .. فلن يردك الله خائبا ..

واستأذن منها ..

وطلب عفاف في التليفون .. وأخبرها أنه سوف ينطلق بعد دقائق معدوده .. من الحسين .. إلي ميدان رمسيس .. و من ثم إلي ميدان أحمد حلمي .. وفي الحافلة .. جلس مدحت إلي جوار عفاف في صمت ..

فقد أرسل نظراته عبر النافذة .. يشاهد الصحراء .. ورمالها .. ويمتد بصره إلي نهاية المشهد .. هناك عند الأفق .. حيث تتماس خطوط الرمال والسماء .. وقد مالت الشمس إلي المغيب .. وانحدرت وراء الأفق .. وقد أرسلت إلي الأرض هذا المشهد الرائع .. بأشعتها الذهبية التي تتلألأ متدفقة .. باعثة دفأها إلي القلوب ..

زجاج النوافذ سليم .. وقد أسدلت عليه الستائر ..

هكذا .. لفت زجاج النوافذ غير المكسور .. انتباة مدحت ..

والمقاعد نظيفة .. بلا أتربة .. غير ممزقة .. فلا يطل الإسفنج الذي يبطنها من تحت الكسوة الجلدية التي تغلفها ..

وقد اختفت " القفف " من المشهد ..

إلا أن شيئا أخر جعل مدحت يبتسم ..

فقد رأي تحت النافذة .. علي جدار الحافلة .. بعض الكلمات كتبت بالأقلام الحبر الجاف .. أو بالألوان .. مثل :

للذكرة .. " هكذا كتبت الكلمة .. " .. الخالدة .. كما رسم إلي جوارها قلب .. وفي داخله نقش حرف " أ " .. في الجهة اليسري منه .. وحرف "س" في الجهة اليمني ..

ونظر مدحت إلي عفاف .. ولا زال مبتسما .. قائلا:

- **سوف تندهش أمي اليوم عند عودتي من القاهرة ..**

فابتسمت لابتسامته .. وتساءلت :

- **ولم الدهشة ؟!**

قال .. وهو يشير إلي شعره .. وملابسه :

- **لن تري شعري مغبرا !! .. ووجهي .. وملابسي ..غير مكسوة بالتراب !!**

وتحولت ابتسامة عفاف .. إلي نظرة إشفاق وأسي .. قالت :

- **لم تعد إلا أيام .. وتتخرج .. وتنتهي هذه السلسلة الجهنمية .. من العذابات .. والمعاناة ..**

وصمتت عفاف بعض الثواني .. ثم أردفت .. وكأنها تستحث مشاعره :

- **سوف تنسي القطار .. وأيام السفر .. وتنسانا جميعا !! ..**

فنظر مدحت إلي عينيها مباشرة .. وكان وجهه باسما .. وشفتاه باسمتان .. وكأنه كان يريد أن يقرأ في عينيها ما تريد أن تقول .. وإلي أي اتجاه .. ترغب في تحويل الحديث !! ..

قال .. ولا زال يحدق في عينيها :

- **قد أنساك .. ولكنني لن أنسي عم " رمضان " .. والدك .. إنه بمثابة والدي .. كما لن أنسي والدتك .. فإنني أعتبرها أمي الثانية .. وإنني أحبهما كل الحب ..**

إنني ألمس فيهما بساطة رائعة ..

وحين أجلس بينهما .. أجدني مشدودا إليهما .. لطيب مجلسهما .. وطيب حديثهما ..

فقالت بخبث .. وقد اتسعت ابتسامتها :

- **رويدك .. رويدك .. وماذا إذن عن إبنتهما ؟!**

وكانت كلماتها مفاجأة .. ألجمت لسانه ..

نظر إليها في دهشة .. وظل صامتا !!

وأدركت في التو تسرعها وخطأها .. وأنها قالت كلمات ما كان لها أن تقولها .. وأفشت بشيء .. ما كان لها أن تفشي به ..

واستدركت بسرعة .. قائلة :

- **أقصد .. وأين إبنتهما من كل هذا ؟! ..**

ومرة أخري صمت .. واكتفي بالنظر إليها ..

إنها مرتبكة .. وها هما عيناها .. تنطقان بما يخالج صدرها !!

ومرة أخري .. أحست أنها أخفقت في اختيار كلماتها ..

فأحيانا ما يصلح الإنسان خطأ .. بخطأ ..

قالت في إرتباك جلي .. ظهر في لغة جسدها ..

فقد راحت تحرك يديها حركة عشوائية .. لا تعني شيئا !! ..

- **عمك رمضان .. والدك ! .. وأمي هي أمك !**
- **أكيد !**
- **فأنا أختك إذن !!**

فقال لها .. يبادلها مكرا .. بمكر .. وقد ضحك بصوت مسموع :

- **تعلمين قدر حبي اللا نهائي لأختاي .. ألا تفضلين أن تكوني أختي !! ..**

وران صمت لفترة غير قليلة .. وكأن علي رأسيهما الطير !

قال مدحت بعدها .. بنبرة جادة :

- **أريد أن أقول لك شيئا يا عفاف ..**
- **أري فيما تريد أن تقول .. شيئا جادا !! .. عله خيرا يا مدحت !!**

قالت هذا لما استشعرته في صوته من جدية .. وعمق ..

فقال بنفس النبرة الجادة :

- **صديقنا " سمير الخضري " ..**

ونظر إليها ..

ولم تعلق بشيء .. في انتظار التوضيح ..

واستتلي :

- **إن لك عندي رسالة شفهية منه .. !**

واندهشت .. و قد عبرت كلماتها عن هذه الدهشة .. فتساءلت :

- **أية رسالة هذه ؟! .. ولماذا تجهم وجهك .. وبدت عيناك جادتين ؟!**

- **إنه يريد أن يتقدم لوالدك .. طالبا يدك .. للزواج ! .. ويريد أن يعرف رأيك في هذا الأمر .. قبل أن يقدم عليه ! ..**

فقالت .. وقد زال عنها القلق :

- **لقد أقلقتني يا مدحت .. أهذه هي الرسالة ؟! .. وهذا هو الموضوع ؟! .. وأنت .. فيم كان القلق الذي بدا عليك .. والتجهم .. والنبرة الجادة ؟! وتمعنت في وجهه .. وكأنها تروم سبر غوره .. واستشفاف ما يربكه ويقلقه ..**

قال .. مدافعا عن نفسه :

- **لم ألاحظ شيئا من هذا علي نفسي !**

قالت .. وقد كان يهمها كثيرا أن تعرف رأيه ..

- **لا أفهم .. ما رأيك أنت ؟! .. بماذا تريدني أن أجيبه ؟!! ..**

وأسقط من يده ..

ولم يحر جوابا ..

صمت ..

وصمت ..

وكان يقلب الأمر علي مختلف جوانبه .. وكل وجوهه .. في سرعة خاطفة .. في صمت ..

فعليه أن يختار ما يمكنه قوله .. وما يصح الإفصاح به .. وتؤمن مغبته .. ولقد هم أن يقول لها " لا أستطيع أن أتدخل .. وأن هذا الموضوع لايخص أحدا في الدنيا سواك " ..

إلا أنه آثر الصمت ..

إنه يعرف جيدا أن من تتعلق به .. إنما تتعلق بخيوط الأوهام !! ..

إنه الصدق اللا متناهي مع الذات .. والذي هو جزء من طبيعته ..

وكان صمته .. هو أكثر ما أحزنها ..

بل أن صمته وقع من نفسها موقعا أليما ..

وسرعان ما عاد إليها القلق ..

قالت بصوت ممزق .. وقد غلف الحزن كلماتها:

- **كنت أعتقد يا مدحت .. أنك أخر شاب في الدنيا .. قد ينقل لي مثل هذه الرسالة البائسة !!..**

ولمعت عيناها بدمعة تترقرق فيهما رغما عنها ..

وأردفت مندهشة متألمة :

- **وكأن ما جاء بها .. لا يعني شيئا لك !! ..**

وحارت الأفكار في رأسه ..

ولاذ بالصمت .. مرة أخري ..

وتصارعت أفكار وأحلام الماضي .. مع ظنون الحاضر ..

وكان ميدان هذا الصراع .. هو رأسها الصغير ..

وشعرت أن الدنيا تدور بها ..

وكاد يصيبها الغثيان ..

وألقت رأسها للخلف .. وتركتها تستقر علي مسند المقعد .. بينما تركت لعينيها الوقت كافيا .. لتمطر كل ما كان لديها من دموع !!

وغرق قلبها في خيبة أمل صادمة .. فبكي ..

بكي بكاء مريرا ! ..

وأدركت .. والأسي يملأ صدرها .. أن أملها قد انطفأت شعلته .. ربما إلي الأبد !! ..

لقد أطاحت بها رياح الصمت .. صمت مدحت .. البلهاء !! ..

ولم تكن في حياتها أشد تعاسة وحزنا .. مما هي عليه الآن .. في هذه اللحظة ! ..

ولم تكن عفاف تدري شيئا عما حولها .. إلا في صباح اليوم التالي عندما استيقظت .. وهي تشعر بانقباض داخلي ..وخوف يملأ كيانها ..

وأخذت تتذكر أحداث الأمس ..

فلم تكن تدري متي وصلت الحافلة إلي الفيوم .. ولا كيف أوصلها مدحت إلي البيت ..

ولا متي غادر إلي بيته ..

وبرغمها .. تسرب إلي نفسها شعور بالحزن ..

وكانت خائفة ..

خائفة من شيء ما ..

خائفة حتي الموت !!..

وقد امتلأت نفسها بكل أشباح القلق .. والرعب ..

وفي طريقه إلي البيت .. كان مدحت مهتما بها .. مشفقا عليها .. إلا أنه يعرف ظروفه جيدا .. ويقدر مسئوليته الأخلاقية تجاهها ..

وما كان ليخدعها إطلاقا .. مهما كان السبب ..

وعندما وصل إلي البيت .. فتحت سميحة الباب .. وكعادتها معه .. ألقت بنفسها في حضنه .. وقبلته ..

صائحة .. مهللة :

- **إنه أخي مدحت يا أمي ..**

وتناهي إلي أذنيه صوت أمه تقول :

- **تعالي يا مدحت .. إنني هنا ..**

وعلي التو .. اتجه إلي الصالون .. حيث مصدر الصوت ..

لم يكن لديهم ضيوف .. إلا أن الأم كانت تجلس علي الحصيرة التي فرشت علي الأرض ..

مال إلي يد أمه .. ورفعها .. كما اعتاد أن يفعل .. وطبع عليها قبلة طويلة .. حانية ..

ثم ألقي ظهره علي الحصيرة .. بمحاذاة والدته .. ثم جعل رأسه تستقر في حجرها.. وأخذ يدها ووضعها علي رأسه .. قائلا :

- **دلكي لي شعري يا أمي .. وفروة رأسي !!**

إنه يحب هذا كثيرا .. منذ كان طفلا ..

وتساءلت أمه في دهشة وابتسام :

- **أين التراب يا مدحت ؟! ..أين ذهبت به ؟! .. إن شعرك غير مغبر اليوم .. وكذلك وجهك .. وملابسك !!**

فقال مدحت ضاحكا :

- **تخيلي يا أمي .. لقد قلت هذا لعفاف ..**

وأخذ يحدثها عن كل أحداث اليوم .. من الماكرونه بالبشاميل .. إلي عودته من القاهرة بالحافلة ..

وبينما كانت أصابع الأم تعبث بشعره .. وتداعبه .. كانت أفكاره تبدو وكأنها موجة صغيرة .. في محيط هائج .. يعبث بها التيار .. في قسوة .. وقهر .. ولا حول لها ولا قوة ..

فماذا يفعل مع منال ؟! ..

هذه الفتاة الرائعة ..

إنها تنتظر منه كلمة واحدة ..

ولكن هيهات ..

فإن الرجل الذي يعيش عالة علي زوجته وأسرة زوجته .. أبعد ما يكون عن مدحت .. وطباعه .. وشخصيته ..

وماذا عن عفاف ؟! ..

إنها لا تقل حظا من الجمال .. عن منال ..

إن حديثي عن سمير قد أحزنها ..

ماذا علي أن أفعل ؟! ..

إنني لا أستطيع أن أعطي وعودا .. لا حيلة لي في تنفيذها ..

إنهما تعلمان جيدا كل ظروفي ..

لا أستطيع ..

لا أستطيع ..

وحاول مدحت أن يتجنب الإنفراد بعفاف في مكان واحد بدون تواجد باقي الزملاء .. وهو نفسه ما فعله مع منال .. حتي آخر يوم في الامتحانات .. أما يوم ظهور النتيجة .. فكان يوما رائعا .. حفر في ذاكرة الجميع .. مدحت .. ومنال .. وكريم .. وعفاف ..

فقد تلاقوا في بيت مدحت .. وجاءت سميحة بكل صديقاتها في الحي .. وحتي الأم .. أعلنت نبأ نجاح مدحت لجيرانها ..

فجاءت كل النسوة في الحي .. حاملات زجاجات الشربات .. وأقماع السكر !! .. والهدايا المختلفة ..

فقد كانت أم مدحت أحب النساء إلي قلوب جيرانها في الحي .. بقلبها الطيب .. العطوف .. كما أحبوا فيها الأم الصالحة .. والزوجة المتفانية المخلصة .. التي كرست حياتها لخدمة أولادها ومنزلها ..

حتي بعد أن تزوج زوجها من امرأة أخري .. وما ترتب علي ذلك من النقص في نفقات بيتها بدواعي الإنفاق علي البيت الجديد .. والزوجة الأخري ..

وكانت تواجه الأزمة .. تلو الأزمة .. بإحساس عميق من السكينة .. والسلام النفسي .. الذي خيم عليها .. لإيمانها العميق بالله .. وبأن بعد العسر .. يسرا .. وأن عليها أن تتسلح بالصبر .. والإيمان .. وأن أملها كبير في أن صلواتها .. ودعواتها .. يوما ما سوف تستجاب ..

جاء الجميع لمباركة مدحت علي نجاحه .. وكأنهم ينتظرون في شوق .. هذا اليوم .. الذي أسعدهم كثيرا .. وابتهجوا به كثيرا ..

وتم توزيع الشربات .. علي كل المهنئين .. والمهنئات ..

ودقت الطبول .. كما لو كان عرسا ..

وتحولقت الفتيات .. ورقصن ..

وارتفع صوت الغناء .. يعلن فرحة كل الحي بنجاح أبنائهم ..

وليس مدحت وحده ..

فهناك كريم .. ومنال .. وغيرهم كثيرون ..

وكان يوما غسلت فيه الكثير من الهموم ..

وبعد انتهاء " الفرح " .. والاحتفالات ..

طلب مدحت .. من كريم وهاله .. بطريقة لا تنم عن تخطيط .. ولا تشي بخبث أو مكر .. أن يصاحبونه .. عندما هم بتوصيل عفاف إلي بيتها ..

ولم يكن هذا التصرف يمر مرور الكرام .. علي منال !! .. التي قالت في نفسها " أموت واعرف .. لماذا فعل مدحت ذلك ؟! " ..

لماذا يحاول مدحت أن يتجنب الإختلاء بعفاف إلي هذا الحد ؟! ..

بينما ترك هذا التصرف الذي أقبل عليه مدحت .. الألم والأسي .. في قلب عفاف ..

obeikan.com

الفصل السادس

زفاف عفاف

كل إنسان يصبح شاعرا إذا لا مس الحب قلبه

أفلاطون

***

كانت

الطائرة قد أقلعت .. في طريقها إلي دولة الكويت .. وقد أقيم علي متنها احتفال للعروسين .. عفاف .. وسمير ..

احتفال بسيط .. ولكنه رائع ..

كان أصدقاء سمير في الكلية يعلمون أنه الإبن الوحيد المدلل لأسرة كريمة علي قدر غير قليل من الثراء .. وأنه يمكنه أن يعيش في يسر .. ورغد من العيش .. في كنف أسرته .. في القاهرة .. إلا أنه فضل أن يذهب بعروسه إلي الكويت ويعمل هناك .. في الوظيفة التي تمكن أحد الأصدقاء من تأمينها له.. في شركة البترول الوطنية الكويتية ..

وقد شجعه علي اتخاذ قرار السفر إلي الكويت .. وجود الكثيرين من أصدقاء الجامعة ..

ومنهم من تزوج .. وسافر فعلا بصحبة زوجته ..

أسامة .. وزوجته ليلي .. وأختها ندي .. وسامي ..

وكانت فرص العمل في الكويت متوفرة .. خاصة للشباب المصري المؤهلون من خريجي الجامعات المصرية .. وأصحاب المهن المختلفة ..

وهو ما جعل سمير يقول لمدحت قبل أن يودعه في المطار :

- **عندما تكون جاهزا للسفر .. عليك إخباري بذلك .. حتي نبحث لك عن عمل مناسب .. وتأتي إلي الكويت .. مثلما حدث معي .. ومن ثم تؤجر شقة ونؤثثها لك جيدا .. ثم تسافر إلي القاهرة .. وتزف إلي عروسك ..**

ونكون في انتظارك في الكويت .. وهو ما فعله أصدقائي لي ..

فكلنا نساعد بعضنا البعض ..

ومضي مدحت في طريق العودة .. بعد أن أوصل العروسين إلي المطار ..

وودعهما ..

- **هل أنت مبتهج هكذا ؟! .. هل أنت سعيد بما فعلت بي ؟! .. هل أنت مسروربما فعلت بنفسك ؟! .. إنني أعلم بما في نفسك .. وما هو كائن بداخلك .. أكثر مما تعتقد .. ها أنت تري بنفسك .. إلي ماذا قادنا عنادك ..**

وقد انهمرت دموعها رغما عنها .. فأخرجت منديلا ورقيا من حقيبة يدها ..ومسحت دمعها ..

إلا أن شيئا فاجأها .. وأذهلها ..

فقد رأت الدموع تسح سحا من عينيه .. دون أن ينبس بكلمة ..

مدحت ؟! ..

لقد كادوا في الكلية أن يسمونه " الصخرة " .. لشدة ما تحمل من ظروف قاسية .. يصعب أن يتحملها غيره .. في رضي !!..

مدحت ؟! ..

الذي لم يبكه الزمن بما أهال عليه من مشاكل .. ومحن .. وابتلاءات .. بل ظل صابرا .. متجلدا .. مرحا !!..

ناولته منديلا ..

وقد أدركت أنه ليس عليها أن تضغط علي أعصابه أكثر من هذا ..

كما شعرت أنه إنما يتألم .. أكثر مما تتألم ..

قالت له في مواساة .. وشجن :

إمسح دموعك .. فلم تعد تغني عنا شيئا ..

وصمتت ثواني ..

ثم أردفت في استسلام :

- **علي أية حال .. علينا أن ننسي .. فلم أعد ملك نفسي !! ..**

الوداع !

كانت هذه هي أخر كلمات .. سمعها من عفاف ..

بينما كان سمير مشغولا بنقل الأمتعة .. ووضعها علي السير المتحرك لنقلها إلي نقطة تجميع الحقائب .. لنقلها إلي بطن الطائرة .. حيث تستقر حقائب الركاب ..

لم تكن عفاف تعلم أن كلماتها إنما هي سكين حادة .. راحت تمزق قلبه .. تمزيقا .. وأنها .. عندما غادرت .. إنما غادرته معها روحه ..

كما لم تكن تعلم أنها عندما ودعته .. وخلا لنفسه .. أجهش بالبكاء .. إلي حد أنه لم يكن يدري من حوله شيئا .. واعتصره الألم .. حتي شعر بأن شيئا يحطم عظامه .. ويخلع قلبه من بين أضلعه ..

لقد عرف الآن .. ولأول مرة .. شعور الأم التي ينتزعون منها رضيعها !!

ولم تزل كلماتها تصك أذنيه .. وهي تقول له :

" هل أنت سعيد بما فعلت بي ؟! "

" هل أنت مسرور بما فعلت بنفسك ؟!"

ولكن .. لا ..

لا تلم أحدا ..

فإن أحدا لم ينتزع منك عفاف ..

إنك أنت .. من انتزع منك عفاف .. ووهبتها لآخر ..

ليس لك أن تلوم أحدا .. فلا تلومن إلا نفسك ..

لقد أقمت بنفسك هذا الحائل .. الذي حال بينك وبينها .. إلي الأبد ..

ألم تحمل إليها .. بنفسك .. رسالته إليها .. طالبا منها الزواج ؟! ..

هل يفعل عاقل ذلك ؟! ..

حتي عندما حاولت هي أن تستكشف مشاعرك تجاهها .. ومدي تمسكك بها .. ورغبتك في الإرتباط بها ..

وسألتك ..

" ما رأيك أنت .. وبماذا أجيبه ؟! "

جاء رأيك خنجرا .. يمزق قلبها تمزيقا ..

ألم تلذ بالصمت ؟!

ألا يعني هذا أنه لا يعنيك من أمرها شيئ ؟! ..

وتجاهلت كل شيء ..

تجاهلت قلبها .. تجاهلت حبها ..

لكأنك قلت لها أن لا أحد غيرها يملك الإجابة علي هذا السؤال ..

وأنت ؟! ..

إن المرأة لتحب أن يحارب حبيبها الدنيا من أجلها ..

فمن حاربت .. من أجلها ؟! ..

لقد أتيت لها برجل آخر ..

ولقد قتلتها بهذه الفعلة الغبية ..

ألا تذكر حين قالت لك :

" كنت أعتقد يا مدحت .. أنك أخر شاب في الدنيا .. قد ينقل لي مثل هذه الرسالة البائسة !! "

كيف لم تحرك فيك هذه الكلمات شيئا ؟! ..

كيف لم توقظ فيك هذه الكلمات قلبا .. يضيع حبه .. وهو نائم .. يغط في سبات عميق ..

وتماديت في نكرانك لها .. ولقلبها .. بل تماديت في إيذاء مشاعرها ..

وتماديت في تمزيق باقي الروابط التي قد تجعلها تنتظرك ..

والخيوط التي قد تصلك بها ..

وأخيرا كسرت القشة التي قد تنقذ الغريق ..

ووقفت تنظر إليها .. تشاهد يديها وهي تلوح في الهواء .. بأن لا تتركني أغرق ..

وجاءك سمير ..

وقد اصطحب معه والده ووالدته .. فاصطحبتهم بدورك إلي بيت عفاف ..

رغم عدم قبولها الرسالة .. ولا مضمونها ..

بل رغم أنها وصفتها لك بأنها " رسالة بائسة " ..

وكأنك تكابر !!

وكأنك تعاند !!

ووضعتها في مأزق غريب !!

والآن ..

بعد أن قدمت سمير و أسرته إلي والدها .. قائلا :

- **إن عائلة سمير من أكبر العائلات المحترمة في القاهرة ..**

وأثنيت علي أخلاقه .. وسلوكياته ..

وكأنك تبرز محاسن ومزايا بضاعتك ..

وكأنك تريد أن تطمئن إلي إتمام " البيعة " !!

والبنت تنكمش علي نفسها .. وتبكي من الداخل ..

وتتساءل .. في نفسها ..

لماذا ؟! ..

لماذا يا مدحت تفعل ما تفعل ؟! ..

ألا تحبني .. كما أحبك ؟! ..

ألا تريدني .. كما أريدك ؟! ..

وليكن ..

فلماذا تصر أن تلقيني بيديك .. إلي اليم ؟! ..

وتصرخ .. في صمت ..

من حقي تفسير .. علي الأقل !!

وكان من الطبيعي .. ومن المتوقع .. أن يرحب بهم والدها .. أيما ترحيب .. بل يسعد بهم .. وبمصاهرتهم ..

وفي الحقيقة أن أسرة سمير .. لسوء حظ عفاف .. لم يكن يشوبها شائبة !! .. أو شبهة ..

ولم يكن لأسرة متوسطة الحال .. مثل أسرة عفاف .. أن ترفض مصاهرتها..

وبعد مناقشة روتينية .. قصيرة ..

وبالكلمات المعتادة في هذه المواقف ..

طلب والد عفاف من والد سمير .. مهلة .. فقط عشرة أيام .. لمعرفة رأي العروس ! ..

وغادر سمير .. والعائلة .. علي أمل ..

انتظارا لرأي العروس !!

ولم يكن آخر خيط قد تمزق ..

ولم يكن آخر أمل .. قد ذهب مع الريح ..

وطلبت عفاف الإنفراد بك .. في بيتها ..

وها هي حجرة الصالون .. لو تكلمت .. لشهدت ..

ولو لم تكن الدموع سرعان ما تجف .. فها هي الأريكة .. التي أغرقتها دموع عفاف !!.. بين يديك ..

لقد قالت لك أمام والدها .. وقد استأذنته لتناقش معك أمرا .. عندما سألها رأيها في العريس الذي أحضره مدحت بنفسه !! :

- **تعالي معي .. فلي عندك بعض الأجوبة .. والتوضيحات !!**

ولانفعالها .. خرجت عن طورها .. وجذبتك من يدك .. أمام والدها .. في عنف و حنق .. ودخلت ممسكة بذراعك .. وأنت تسير وراءها .. إلي حجرة الصالون .. حتي أنها تمادت .. فأوصدت الباب وراءها ..

سألتك .. وقد جن جنونها .. واتسعت .. من الدهشة .. حدقاتها :

- **من أنت ؟! .. هل أنت مدحت الذي أح..**

لقد همت في انفعالها الشديد .. أن تقول لك :

" هل أنت مدحت الذي أحببته طوال أربع سنوات " ..

إلا أنها استيقظت .. وقالت :

- **هل أنت مدحت الذي عرفته طوال أربع سنوات ؟! ..**

لماذا أنت بارد هكذا ؟! ..

لماذا أراك مغيبا ؟! .. ماذا دهاك ؟! ..

لماذا أراك منوما ؟! ..

ألا تراني أضيع منك ؟! ..

فإن لم يكن يعنيك ضياعي .. فليكن .. دعني أذهب ..

دعني أذهب .. ولكن ليس بيدك ..

لا تدفعني أنت إلي الضياع !! ..

ألا تراني أغرق ؟! .. فليكن .. دعني أغرق ..

ولكن لا تدفعني بيدك إلي أعماق النهر ..

إن صمتك يقتلني .. ويمزقني ..

ولم تزدد .. إلا صمتا !!

ولم تزدد هي .. إلا بكاء !!..

قالت في يأس وكبرياء :

- **حسنا .. ليس لديك إلا الصمت ..**

مسحت الدموع ..

تبادلت معك النظرات في صمت .. للحظات ..

أنت عنيد .. محموم .. ويائس ..

وهي غاضبة .. بائسة .. ويائسة !! ..

ولو أن سبب اليأس في الحالتين .. يأسك .. ويأسها .. لم يكن واحدا !! .. فيأسها كان سببه نفاذ الصبر عليك .. وانطفاء آخر شمعة من شموع الأمل .. في الإرتباط بك .. فقد أطاح صمتك للتو بأخر بصيص للأمل .. فاهتز .. وترنح .. ثم سقط صريعا .. يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

أما يأسك فكان بسبب استسلامك للظروف التي تحطم عظامك .. وتشل قلبك عن الحب .. عن النبض .. بل عن الحياة ..وكفنته في ستارة سوداء ثقيلة .. كريهة ..

أصلحت من شأنها ..

رفعت رأسها عاليا في شموخ ..

فتحت الباب بثقة ..أو بكبرياء .. أو بعناد.. ومرارة ..

أو قل فتحت الباب بيأس .. وإستسلام .. وإحساس بالضياع ..

قالت لأبيها :

- **علي بركة الله يا أبي .. إني أوافق !! ..**

وتهلل الأب فرحا .. وقال مبتسما :

- **الحمد لله .. لقد أقنعك مدحت إذن بالموافقة ..**

فوجهت نظرة قاسية إلي مدحت .. وتكلفت الإبتسام المر..

وقالت في نبرة .. لايفهمها إلا مدحت :

- **نعم يا أبي .. وما كان لأي شاب في الدنيا .. أن يقتنعني بالموافقة .. غير مدحت !**

ثم وجهت الحديث إلي مدحت .. في يأس:

- **كل الشكر لك يا مدحت .. وإن من الصمت ما قتل !! ..**

وفي لهجة حازمة .. قالت لأبيها :

- **إنني أوافق يا أبي .. ولكن تحت شرط واحد ..**

تساءل الأب في صبر وروية ..

- **وما هو ؟! ..اطلبي ما شئت .. ولنتناقش بشأن طلبك مع سمير .. و لا أظنه يرفض لك طلبا .. حسب ما رأيت من تمسكه بك ..**

قالت .. بنفس النبرة من الجدية والحزم :

- **إذا أراد سمير إعلان الخطوبة منذ الآن .. فلا بأس .. ولكن عقد القران يكون بعد ثلاث سنوات .. علي الأقل !!**

وتساءل الأب عن الأمر .. مندهشا:

- **ولماذا ثلاث سنوات ؟! ..أليست فترة طويلة ؟! ..**

قالت تشرح وجهة نظرها :

- **خلال السنوات الثلاث .. أكون قد انتهيت من تقديم رسالة الماجستير .. وفي نفس الوقت .. يكون سمير قد أنهي مدة الخدمة الوطنية .. أي فترة تجنيده .. وهو طلب منطقي ..**

ويبدو أن الأب قد آنس في رأيها التعقل ..

فقال .. آملا قبول هذا الطلب من قبل سمير :

- **وأنا يا إبنتي لا أعتقد أنه يرفض هذا الطلب .. هو طلب بسيط معقول .. ولن نقدمه باعتباره شرطا .. وأنا متيقن من موافقته إن شاء الله ..**

وخرج مدحت من بيت عم رمضان .. وصراع يكاد يفجر رأسه ..

وما كان الصراع في رأسه ليتوقف .. منذ أن نقل إليها تلك الرسالة المشئومة ..

فكان عقله يستدعي الصبر .. ويلوذ بالتريث .. والتروي .. وأمامه مشهد واحد ..هو الذي يعترف به .. إنه مشهد ينبع من المسئولية ..

لقد أصبح مسئولا عن توفير نفقات البيت .. مسئولا عن نفقات تعليم سميحة .. مسئولا عن نفقات زواجها ..

ناهيك عن نفقات المعيشة ..

وثار قلبه علي هذا الجحود .. وآلي علي نفسه إلا أن يعذب هذا العقل الذي تحجر في رأسه .. وأفسد عليه سعادته .. وألقي بالإنسانة الوحيدة التي أحبها .. وأحبته .. ألقي بها .. بنفسه .. بين أحضان من لا تحب .. ودفعها لأن توافق علي أول إنسان تقدم للزواج بها .. بعد أن ألقي بها في أتون اليأس ..

المهم الآن أن لدي مشكلة .. لا أدري لها حلا ..

عقد قران عفاف بعد أيام قلائل ..

ولا أتخيل وجودي بين المهنئين !!

وما كان لمدحت أن يتغيب عن حضور حفل الزفاف .. تحت أية ذريعة .. كما أن حضوره هذا الحفل يتطلب قدرات لا قبل له بها .. ويحتاج شجاعة نادرة ..

هكذا حدث نفسه ..

فقد يفلت منه الزمام ..

قد ينهار ..

وقد أراد فعلا أن يتعلل بأية ظروف .. ويتذرع بأية ذريعة ..

إلا أن عم رمضان رفض رفضا قاطعا ..

كما رفض سمير مجرد أن يناقش الموضوع ..

واضطر مدحت إلي حضور حفل الزفاف ..

إلا أنه تحامي قدر الإمكان .. عيون عفاف ..

لقد انصرف اهتمام مدحت إلي شيء أخر .. فقد لاحظ ما تشي به عيون أمه .. وسميحة .. من سعادة .. وبهجة وسرور ..

إن سعادتهن غامرة ..

هل هكذا تفعل الثياب الجديدة ؟! ..

فقبل أيام .. كان مدحت قد اصطحبهما .. إلي محل يبيع الملابس النسائية .. وجعلهما يختارا ما يحلو لهما .. وما يناسب أذواقهما ..

قال لهما .. وهو يشير إلي حافظة النقود :

- **كل واحدة تختار ما يناسبها .. ولا تخشي شيئا .. فالمال وفير .. والحمد لله .. فلا تضيعا الفرصة ..**

ولم تكن سعادتهما تقدر .. فلم يحدث أن قال لهما أحد من قبل مثل هذا القول .. ولمعت العيون .. وتلألأ فيها بريق البهجة والسرور .. بريق الأمل الجميل .. الذي حققه مدحت .. وبريق الحلم الرائع .. الذي أصبح حقيقة ..

ليس الحلم هو الثياب الجديدة .. وليس الأمل هو الملابس الجديدة .. بل مدحت ..

كان مدحت لهما هو الأمل .. كان لهما هو الحلم .. ومصدر السعادة .. و من الغريب .. أن كانت سعادته أكثر !!

ومن الغريب .. أن يشعر كمن ولد له إبن جديد .. حياة جديدة ..

فقد أحب هذه السعادة التي غمرت أسرته .. إنها حياة جديدة ..

لقد أحب هذه السعادة في حد ذاتها .. وأسعدته ..

إذن .. فطريق السعادة واضح .. جلي .. كما يراه بعينه .. وبقلبه ..

فكلما احتاج إلي السعادة .. فعليه إسعاد أسرته !! ..

وكان حفل الزفاف قد أقيم في صالة المناسبات في فندق رائع ..

فبعد أن أكملت العروس زينتها .. في كوافير " عبير " .. تجمع عدد كبير من السيارات التي جاء بها المهنئون .. واستقرت العروس في سيارة فاخرة .. كانت قد زينت بالزهور .. والورود .. وشرائط الزينة .. والدانتيلا ..

فكانت في أبهي صورة ..

واستقر إلي جوارها العريس .. في حلته السوداء .. والبوبيون الذي تصدر ياقة قميصه الأبيض .. وحذاؤه الأسود اللامع ..

أما العروس فكانت في أجمل فستان زفاف .. أبيض .. من الحرير والدانتيلا والأورجانزا .. وقد انحسر عن ساعديها .. وقد تلألأت الكريستالات والشوارفسكي علي جوانبه .. وصدره .. والزخارف والزينة البراقة اللامعة .. وعلي رأسها الطرحة .. الطويلة .. والممتدة حتي الأرض .. و قد طرزت بنفس تطريز الفستان .. ونفس نقوشاته .. وقد افترش منها مساحة متر .. خلف العروس .. ومن فوق الطرحة استقر إكليل الفل والياسمين .. بتصميم راق وأنيق ..أظهرها في لوحة فنية جميلة ..

وقد زينت يديها بقفازات بيضاء جميلة .. امتدت من أطراف أصابعها .. حتي كست نصف ذراعها .. كما أمسكت منديلا أبيض مطرز الأطراف .. وقد أظهر التصميم الرائع للفستان جسمها بكامل رونقه .. وجاذبيته .. ومن الواضح أن عائلة سمير من العائلات الموسرة .. وهو ما بدا واضحا في هذه الأعداد الكبيرة من الأهل الذين جاءوا بسياراتهم الفارهة .. وانشغل مدحت بالتجوال بين أصدقاء الجامعة الذين حضروا حفل الزفاف .. وقضي وقته بتجاذب الأحاديث معهم ..

وكانت سميحة في فستانها الجديد .. رائعة الجمال .. فبدت زهرة .. متفتحة .. لفتت أنظار الكثيرين ..

وهمس كريم لمدحت أن أحد أصدقاءه يرغب في الحديث معه ..

إنه " فؤاد " .. ويعمل محاسبا بالمملكة العربية السعودية .. وقد جاء في أجازة فقط لمدة شهر واحد .. وقد انقضي من الأجازة عشرة أيام .. وهو يبحث عن عروس .. علي أن يعقد القران .. ومن ثم يغادر إلي السعودية .. ويرسل لعروسه تأشيرة للمملكة .. بعد إعداد مسكن الزوجية .. وقد أعجبته سميحة جدا .. بل أنه – كما يقول هو بنفسه – قد أخذ بها .. فهل يأتي إليكم في المنزل .. فيطلب يدها .. ؟! .. علي أي حال الوقت ضيق .. وهو يفضل لو كان ردكم سريعا .. لإتمام الإجراءات ..

ولم يكن هناك ما يمنع من استقبال فؤاد .. في بيت مدحت .. هذا ما أجاب به مدحت .. علي طلب كريم .. الذي قابل فؤاد .. وأعلن له الترحيب به في أي وقت ..

و في ساعة متأخرة من الليل .. انتهي الحفل .. وغادر الجميع .. وغادر العروسان ..

وفي اليوم التالي .. سافر سمير وعفاف .. بالطائرة .. إلي الكويت .. في ثياب العرس ..

حيث أراد أصدقاؤه هناك أن يستقبلوهما في احتفال جديد .. وزفاف جديد ..ومن ثم يتجهان إلي الشقة التي كان سمير قد أعدها سلفا .. للزوجية .. لم يبخل سمير عند البحث عن الشقة التي ستكون سكنا له ولعروسه .. كانت الشقة بالطابق الرابع .. في شارع فهد السالم .. في وسط البلد .. بمدينة الكويت .. حيث أقيمت أشهر الفنادق الخمس نجوم .. فكان هناك فندق الشيراتون .. والميريديان .. وفنادق أخري أقل شهرة .. مثل فندق كاريلتون .. وهو الفندق الذي أقام فيه الفنان " سعيد صالح " .. والفنان " أحمد زكي " .. وباقي الفرقة المسرحية التي جاءت إلي الكويت في ذلك الوقت لكي تعرض مسرحية " العيال كبرت " ..

كما كان هناك حديقة عامة .. هي حديقة البلدية .. التي يقصدها الكثيرون .. لجمال تنسيقها .. وهدوءها.. وندرة أشجارها .. وقد كان مدخلها الرئيسي من شارع فهد السالم ..

وقد أضاف إلي أهمية الشارع .. وجود بعض الفروع لبعض البنوك .. مثل بنك الكويت الوطني ..

وأيضا المقر الرئيسي لشركة البترول الوطنية الكويتية ..

واستبشرت عفاف خيرا ..

فقد سرها أن تقيم في هذا الحي الجميل .. وتطل شقتها علي هذا الشارع الحيوي ..

وهكذا كان الإنطباع الأول .. الذي أدخل البهجة إلي نفسها ..

وساهم جمال الشقة في ترسيخ الإنطباع الأول ..

- **يا لها من شقة رائعة .. أشكرك علي اختيارها .. واختيار الحي .. وأيضا الشارع الذي يشرح الصدر .. بهذا النسيم الذي تبعث به حديقة البلدية .. ويفوح عطره فيملأ المكان كله ..**

قالت عفاف ذلك .. بينما كانت تتجول بالشقة .. لاستطلاع تصميمها .. ونوافذها .. والغرف .. والحمام .. والمطبخ ..

اقترب منها سمير .. حتي صارت بين يديه .. واحتضن وجهها براحتيه .. وقال باسما :

- **الحمد لله .. أن أعجبك كل هذا ..**

ولا زال يحتضن خديها براحتيه ..

وغضت عينيها .. خجلا .. إلا أن البريق فيهما كان يشي بقدر كبير من السعادة ..

ولاذت بالصمت ..

وأردف :

- **ومن الآن فصاعدا .. لا شكر " جاف " ..**

ولا زال باسما .. ولا زال يحتفظ بخديها بين راحتيه .. في حب .. وحنان ..

ورفعت عينيها متسائلة .. مبتسمة .. في صمت !!

- **نعم .. فالشكر لا بد أن يكون مصحوبا بقبلة هنا .. وقبلة هناك .. وحضن هنا .. وحضن هناك .. وعواطف ..**

قال ذلك .. بينما كان يقبلها في خديها .. وشفتيها ..

وفي رقة .. وخجل .. انسلت من بين ذراعيه .. ورنين ضحكاتها يسبقها فيملأ فضاء الغرفة ..

وجلست علي كرسي التواليت .. وهي تقول ..

- **لن أشكرك علي شيء إذن ..**

قال .. وهو يقترب منها مرة أخري ..

- **بل سوف أجعلك تشكرينني كل يوم .. بل كل ساعة ..**

ونهضت .. وهرولت بعيدا عنه .. تحاول أن تجد شيئا تحتمي به ..

وهي تضحك في سعادة غامرة ..

قالت في تحد .. من خلال ضحكاتها :

- **سوف نري ..**

مد لها يده .. وأمسك يدها .. ورفعها إلي شفتيه .. وطبع عليها قبلة

حانية .. وهو يقول :

- **هيا .. فلنتجول بالشقة .. فأنا أريد أن أعرف إنطباعك عن الأثاث .. والديكورات ..**

قالت .. بنبرة امتنان ..

- **الله عليها .. لقد أعجبتني .. إنها تنم عن ذوق رفيع .. وأشكرك جدا علي اختياراتك الرائعة ..**

وهلل .. ضاحكا .. مبتهجا ..

وفي حركة سريعة أحاط خصرها بيديه .. وضمها إلي صدره .. فلم تتمكن من الفرار .. وهي تضحك بسعادة ..

قال .. منتصرا :

- **ها .. لقد قلت " أشكرك " مرة أخري .. لكي أقبلك ..**

وأخذ يقبلها ..

وقالت .. ولكن في استسلام ..

- **والله نسيت .. حسنا .. لن أنسي مرة أخري ..**

ولكن ما أسعده أنه لم يأنس منها هروب .. ولا مقاومة .. ولا حتي انسلت من بين ذراعيه .. كما حدث منذ قليل .. عندما قبلها أول مرة .. وهو ما جعله يطيل .. ويشبعها تقبيلا ..

إلا أنها دفعت ذراعيه برفق .. وقالت في نبرة ناعمة :

ألا تخرج من الغرفة .. حتي أغير فستان الفرح ؟! .. وأنت أيضا ..ألا تغير ملابسك ؟! ..

فندت عنه ضحكة تشي بسعادة ملء القلب .. والعين .. والروح ..

قال :

- **أليست هذه غرفة النوم ؟! .. فأين يغير الناس ثيابهم ؟! ..**

وهم يخلع ملابسه .. وهو يدعوها أن تغير ثيابها ..

ثم قال .. فجأة .. وكأنه قد نسي أمرا هاما ..

- **بل انتظري .. لقد كدت أنسي ..**

قالت في دهشة:

- **ماذا ؟! ..**

قال مقتربا منها .. في مداعبة :

- **نعم .. فلقد رأيت في أحد الأفلام .. وكان فيلما مصريا .. فلا يكون لديك أية حجة .. كان العريس يساعد عروسه في نزع ثيابها .." ق .. ط ..ع..ة.."... " ق.. ط ..ع .. ة .."...**

هكذا قالها .. وهو يقف عند كل حرف ..

واستتلي :

- **ولعلمك .. هي أيضا فعلت ذلك .. وساعدته علي خلع ملابسه !**

ضحكت كثيرا .. وهي تسأله :

- **وما اسم هذا الفيلم ؟! ..**

وكأن السؤال فاجأه .. قال متلعثما :

- **وما اسم هذا الفيلم ؟! .. نعم .. اسمه .. اسمه .. لا أذكر .. ثم ماذا يعنينا باسم الفيلم ..**

قالت .. مبتسمة ..

- **تذكر المشهد .. ولا تذكر اسم الفيلم ؟!**

ولم يعرف بم يجيب ..

قالت .. وهي تدعي الجدية .. بينما أمسكته برفق .. في محاولة منها لأن تجعله يستدير ..

- **هيا استدر .. وتوقف عن هذا العبث .. ودعني أغير ملابسي ..**

كان المخدع مستطيلا .. يتوسطه الفراش .. وقد استقر التواليت والمشجب في الجهة المقابلة للفراش ..

وعلي الجانب منه صوان الملابس .. وعلي الحائط المواجه لصوان الملابس كان سمير قد ثبت صورة عفاف بعد أن وضعها في إطار رائع .. وقد أسعدها جدا أن فعل ذلك بصورتها ..

واستدار سمير .. حتي واجه التواليت .. وكان ظهره يواجه عروسه .. وراحت تنزع إكليل الفل و الياسمين .. ومن ثم أخذت تنزع ثيابها عن جسدها .. قطعة .. قطعة ..

بينما أخذ هو يستمتع بمشاهدة صورة جسدها التي انعكست كاملة .. واضحة .. جلية .. علي صفحة مرآة التواليت ..

مرددا بصره بين ظهرها الرشيق .. هابطا .. حتي ساقيها .. مهنئا نفسه علي هذا الحسن .. متمتما في نفسه :

- **يا لهذا الحسن .. والله إنك لحسنة الوجه .. حسنة الجسم .. وإني لأكون طامعا .. إذا كان لي بالدنيا مطالب أخري سواك !!**

وكانت عفاف تتابع خلع ملابسها مبتسمة .. فهي تعرف أنه يشاهدها في صورتها التي انعكست كاملة علي صفحة مرآة التواليت !! ..

وكان سمير قد فرغ من ارتداء " البيجاما " ..

واتجه إلي الحمام .. قائلا :

- **سوف أغسل أسناني وأعود إليك بعد ثواني ..**

فقالت ضاحكة .. مازحة :

- **ولماذا بعد ثواني .. بل إصنع لي معروفا .. وعد في الصباح ..**

قال منذرا :

- **في الصباح ؟! .. حسنا .. سترين صباحي .. بعد قليل ..**

وعاد .. متوعدا ..

وقال مازحا :

- **هل سمعت صياح الديك ؟! .. ها يا حبيبتي .. لقد صبح الصباح ..**

و كانت قد جلست علي كرسي التواليت .. تسوي ما تبعثر من خصلات شعرها .. و تصلح ما فسد من تبرجها ..

ولم تنس رش بعضا من رذاذ هذا العطر الرائع .. علي قميصها القصير الأحمر .. الذي يبدأ من فوق .. بعد نهديها .. وينتهي من أسفل .. مع نهاية البطن !! ..

كما مست بالعطر خلف أذنيها .. وحول رقبتها .. وخديها ..

رآها .. وقد وقفت تتأمل نفسها أمام مرآة التواليت ..

واتجه صوبها .. من الخلف ..

وقد أذاب جمالها عقله ..

وأحاط بذراعيه خصرها .. وضمها إليه حتي التصق جسدها كاملا .. بجسده .. ومال بوجهه قليلا .. حتي مست شفتاه رقبتها .. أسفل أذنها اليمني ..

قال هامسا :

- **ما أجملك ؟! ..**

قبلها .. أشبعها تقبيلا ..

انكمشت .. انسلت برفق من بين ذراعيه ..

واتجهت صوب الحمام .. قائلة :

تريث قليلا .. فيم العجلة .. لقد كدت أنسي أن آخذ حماما .. أريد أن أعود فأجدك تغط في نوم عميق ..

فقال مازحا :

- **آه .. إنك تحذرينني من أن أنام قبل عودتك .. هكذا أفهمك !!**

فقالت ضاحكة .. وقد اختفت وراء الباب ..

- **يبدو أنك تفسر كلامي وفق ما تريد ..**

فاقترب من الحمام وهو يقول :

انتظريني .. فأنا أيضا أريد أن أخذ حماما ..

فتناهي إلي أذنيه صوتها .. وقد جاءت كلماتها من خلال ضحكات رنانة ..

قالت :

- **هيهات .. ولقد أغلقت الباب من الداخل ..**

ووقف يطرق باب الحمام بأصبعه ..

قال .. متوددا :

- **من أجلي .. هذه المرة فقط .. وهي أخر مرة ..**

اختفت وراء ستارة الحمام .. فهي تعلم أنه يشاهد طيف جسدها ..من خلال زجاج باب الحمام .. وقالت :

- **محال ..**
- **أمري إلي الله .. الصبر جميل !!**

قالها وهو عائد إلي غرفة النوم ..

وعادت .. بعد الحمام .. وقد أخفت جسدها .. وراء روب حريري أبيض .. فقط .. ورأي ما وراء الروب .. فأشعل جمال جسدها .. نار الفتنة في دمه .. وجري وراءها متوعدا .. ضاحكا ..

انتزعت الروب ..

ألقت بجسدها فوق الفراش ..

رفعت الغطاء ..

وذابت تحته ..

ولم تزل تضحك ..

وهو بجوارها ..

و قد اختفي جسده ..

تحت الغطاء ..

يقترب منها ويضمها ..

- **نسيت أن تأخذ حماما !!**
- **لا حاجة بي للحمام الآن !!**

- **نسيت أن تطفيء الأضواء ..**
- **لقد فاتني أن أخبرك أنني أخاف الظلام !!**

obeikan.com

الفصل السابع

مدحت في الكويت

حمدا لله .. علي أوهامنا ..

إنها لا تحرمنا بقية أمل ..

وبقية عزاء ..!!

كانت

هند ترتب أغراض أخيها مدحت في حقيبته .. بينما سميحة تساعدها في الضغط علي الحقيبة بكلتا يديها .. وبساقها أحيانا .. حتي تستوعب كل الملابس والأغراض المختلفة .. فلا يضطر إلي اصطحاب حقيبتين ..

ونصف هذه الأغراض .. كانت تخص سمير .. وعفاف ..

فقد كان علي مدحت أن يذهب إلي بيت سمير .. في القاهرة .. ويأتي بما يرغب أهله في إرساله إليه .. بالكويت ..

وهو ما فعله أيضا بالنسبة لعفاف ..

وضحك مدحت .. فقد تذكر يوم أن فقد حقيبة صديقه كريم في القطار .. والتي كانت تحوي ملابسه وملابس أخته منال .. ولكنه نسيها علي رف القطار .. وكان عليه أن يسلمها لكريم في القاهرة ..

وقد اجتمع الجميع بغرفة الصالون ..

فقد عاد ممدوح من الجزائر .. بصحبة زوجته " وفاء " .. وإبنه " أحمد " .. خمس سنوات .. وإبنته " سحر" .. ثلاث سنوات .. وذلك لقضاء عطلة الصيف .. ثلاثة أشهر كاملة .. وهكذا يفعل كل المدرسون الذين يعملون بالخارج .. في فصل الصيف ..

كما عادت هند من اليمن .. وزوجها طارق .. وإبنتهما " لي لي " .. أربع سنوات ونصف ..

وكان فؤاد .. زوج سميحة قد رتب أجازته السنوية في هذا التوقيت .. تنسيقا مع ممدوح .. وفؤاد ..

فعاد مع سميحة .. وابنتهما " سمر " .. ستة أشهر .. في نفس التوقيت .. كالنت الأسرة قد اكتملت ..

وكان ممدوح .. وطارق .. قد جددا عقود عملهما في الخارج .. لأن العقد للمدرس المعار يكون صالحا لمدة أربعة أعوام فقط .. ولكنه قابل للتجديد .. لمدد أخري .. حسب اتفاق الأطراف المتعاقدة ..

وكانت سعادة الأم .. قد اكتملت ..

أما الأب .. فلم يكن هناك من يفوقه سعادة .. عندما أحاط به أحفاده .. يلعبون .. ويضحكون ..

فرغم كبر سنه .. كان ينحني .. ويستند إلي أربعة أطرافه .. مثل الحصان .. حاملا فوق ظهره الأطفال .. الذين أحبوا جدهم كثيرا .. لمداعبته لهم .. ومشاركتهم اللهو .. والضحك .. والسرور ..

وكان الحال .. غير الحال ..

وكبر الأولاد ..

ولم تكبر الأم .. ولم يكبر الأب .. أو هكذا بدا عليهما ..

فكانت الحياة الجديدة .. هنيئة سعيدة .. وكأنها جددت خلاياهما .. وأنعشت فيهما روح و ملامح الشباب من جديد .. وحيويته .. ونضرته ..

وأشرق من جديد وجه الأم .. بوجودها وسط أولادها .. وأحفادها .. وقد عوضها الله عن صبرها خيرا ..

وقد اشترك الأولاد جميعا .. في إعادة تأثيث البيت .. واستبدلوا كل ما فيه .. بالأثاث الجديد .. وأصبح لديهم في البيت صالون جديد .. وتلفاز .. وبوتاجاز .. وكل شيء جديد ..

وكانت وفاء .. زوجة ممدوح .. قريبة جدا إلي قلب الأم .. كإبنتها تماما .. وكيف لا .. وكانت وفاء هي التي ..بمعجزة .. غيرت ممدوح هذا التغيير الرائع .. حتي أصبح ينافس مدحت في البر لوالديه ..

كانت وفاء .. وقد أحبت ممدوح كثيرا .. كانت تري فيه انسانا .. يمكن إعادة اكتشافه .. بل ومساعدته علي أن يكتشف نفسه .. وأن ما به من بخل ظاهر .. ومن حب للنفس شديد .. إنما هو بسبب ضيق اليد .. والعوز .. والفقر .. خاصة أن هناك موروث ثقافي شائع جدا - ولو أنه موروث خاطيء - يقول " إن ما يحتاجه البيت .. محرم علي الجامع " ..

ومن المؤكد .. قياسا علي ذلك .. أن ما تحتاجه النفس .. محرم علي الغير .. وهو قياس منطقي ..

فهو يري أنه أحق من الغير بهذا الشيء القليل جدا .. من أن يمنحه للغير .. فهو أيضا بحاجة إليه .. وهذا ما يراه الأخرون بخلا .. وحبا للنفس ..

واما عن انطوائه علي نفسه .. وشحة عواطفه تجاه الأخرين .. تري وفاء أن الفقراء ينقسمون ثلاثة أقسام .. في مواجهة الفقر الشديد ..

فالقسم الأول .. وللأسف كان ممدوح ينتمي إليه .. هم من قهرهم الفقر.. فاستسلموا .. وضعفوا .. وأحبوا نظرية المظلمة .. وانكمشوا علي نفسهم وكرهوا الناس .. وكرهوا المجتمع .. وعاشوا منعزلين .. مكتئبين .. وقد أرجعوا كل شيء في حياتهم .. إلي ظلم المجتمع لهم ..

ورضي هؤلاء .. طوعا .. بأن يكونوا طبقة المسحوقين في الأرض .. الذين يعيشون تحت خط الفقر ..

وأما القسم الثاني .. وكان مدحت نموذجا جيد له .. علي الرغم أنهما نشئا .. وترعرعا .. في بيت واحد .. وبيئة واحدة .. من الفقر والعوز والحرمان .. إلا أن هذا القسم .. هو الذي قهر الفقر .. ولم يستسلم .. وقرر أن يلتحق بالطبقة الإجتماعية الأعلي .. ليس بالأحلام .. ولا التمني .. بل ناضل .. وتحمل كل العذابات .. حتي وصل إلي أول درجة .. في سلم الإرتقاء الإجتماعي ..

ويبقي القسم الأخير .. وقد مثلته هنا .. الأم .. في خير تمثيل .. وهم من حافظ علي توازناته الداخلية .. وحافظ علي سلامه النفسي .. فلا هو انعزل

عن المجتمع .. وحقد عليه .. وعلي كل الناس .. وعاش كئيبا .. مكتئبا .. ولا هو حاول الإرتقاء إلي الطبقة الإجتماعية الأعلي .. لكي يقهر الفقر .. ربما لأنه فقد الأدوات المساعدة .. ربما لأنه ضل الطريق إلي هذا الهدف .. المهم .. النتيجة .. أنهم عاشوا راضين .. بغير كره للمجتمع .. وأيضا .. بغير تطلع للأفضل .. فقد رضوا بهذه الحياة .. بهذا الشكل ..

وكان إذن من الممكن .. ولو بعد كثير من المحاولات .. أن تغير وفاء من طباع زوجها .. للأحسن .. وتجعله .. هو نفسه .. يحب ممدوح .. الجديد .. الذي عاد للناس .. وعاد لنفسه .. أولا ..

و كانت وفاء تنادي أم زوجها .. كما تنادي أمها .. " يا أمي " .. وكانت فعلا تعتبرها في منزلة الأم ..

وأحبها الجميع .. الأب .. الأم .. هند .. بأسرتها الجديدة .. وسميحة .. بأسرتها الجديدة ..

إذن .. سوف يسافر مدحت أيضا ..

وليكن الله معه .. في غربته ..

ولو أن الأم سوف تبقي وحيدة .. معظم الأوقات .. دون أنيس .. إلا أنها شجعت مدحت علي السفر .. فليبحث عن مستقبله .. ويبني حياته بالطريقة التي يخطط لها .. مثل باقي الشباب ..

ورفعت الأم يديها إلي السماء ..

فهي ملاذها دائما ..

داعية إلي الله أن يحفظه .. غير ناسية طبعا باقي الدعاء ..

فقد أرسل إليه سمير تأشيرة لدخول دولة الكويت .. عندما علم أن وزارة التربية الكويتية في حاجة إلي شغل العديد من الوظائف ..

وأيضا بنك الكويت الوطني ..

كما أمن له سكنا .. مع بعض المصريين .. العزاب .. في حي السالمية ..

وقالت له الأم :

- **ألم يكن من الأفضل يا بني .. أن تخطب قبل السفر .. وفي أول أجازة لك تعقد القران ؟! ..**

قال لها وهو يمسك يدها ويرفعها في حنان إلي شفتيه ويقبلها :

- **أين أنا من الزواج يا أمي .. كما أن سبعة وعشرون عاما لا تجعل مني عجوزا .. فقطار الزواج يمكنه أن ينتظرني ثلاث سنوات أخري .. حتي أوفي التزاماتكم .. أنت وأبي .. ثم أحقق لك حلم الحج بإذن الله .. مع أبي .. بعدها يمكنني أن أتزوج .. بنفس راضية ..**

وبعد أقل من شهر .. كانت الرسائل تنهال علي أم مدحت .. مبشرة بالخير .. مطمئنة ..

وقد أثني فيها علي صديقه سمير .. الذي فعل من أجله الكثير ..

كما أنه قد التحق بالعمل في وزارة التربية الكويتية .. براتب جيد ..

أو هكذا كان يراه جيدا ..

إلا أن سمير وعفاف وندي وبعض الأصدقاء كان لهم رأي أخر .. في موضوع المرتبات التي يتقاضاها المصريون في الكويت .. سواء في الوزارات أو حتي في البنوك ..

فهي رواتب رمزية .. كما أخبرهم الدكتور عبد العظيم جمال الدين .. ذات يوم .. في أحد الإجتماعات الدورية..

كان الدكتور عبد العظيم أستاذ العلوم السياسية في جامعة الكويت .. وكان راتبه الشهري ربما يصل إلي عدة أضعاف مرتب أي موظف منهم !!

و في يوم العشرين من نوفمبر عام 1977 م كان بعض الأصدقاء مجتمعين مع الدكتور عبد العظيم .. عندما أخبرهم أنه سوف يغادر إلي العراق .. وأنه تم الترتيب للخروج في مظاهرات تجوب كل شوارع بغداد .. اعتراضا علي إلقاء الرئيس المصري .. محمد أنور السادات .. خطاب في الكنيست الإسرائيلي ..

وانقسم الأصدقاء إلي رأيين ..

فاتفق البعض مع رأي الدكتور عبد العظيم .. ووافق علي السفر إلي العراق .. والإشتراك في المظاهرات المزمع تنظيمها ..

وأما مدحت .. وقد شاركته ندي الرأي .. فقد قال للدكتور عبد العظيم :

- **لو أنني في مصر الآن لخرجت في المظاهرات المنددة بسفر الرئيس إلي إسرائيل .. وفي هذه الحالة لن يمتد تفسير تصرفي هذا إلا لمعارضة الرئيس في موقف معين .. وليس معارضة بلدي .. أو معارضة مصر .. أما السفر إلي العراق لتنظيم مظاهرة ضد الرئيس المصري .. فيمكن تأويلها إلي أنها معارضة مصر إطلاقا .. ولذا فلن أشارك في مظاهرات .. ولا هنا في الكويت .. ولا في العراق .. وقد أسافر إلي العراق معكم .. ولكن سيكون هذا علي سبيل قضاء وقت .. ورحلة سياحية .. ولن تكون أكثر من ذلك ..**

وشاركته ندي في هذا الرأي ..

وكان لسفر الرئيس السادات إلي إسرائيل ردود فعل متباينة في الداخل والخارج ..

وكان تأثيرها سيء جدا علي مستوي البلاد العربية ..

وفي الحقيقة أن السادات كان قد إقتنع أن الإسرائيليين غير جادين في مفاوضات السلام .. وأن الولايات المتحدة الأمريكية لن تحاول ممارسة أي ضغوط علي الإسرائيليين ..

بالإضافة إلي أنه كان يأمل أن تمتد اتفاقيات السلام لتشمل انسحاب الإسرائيليون من كل الأراضي المحتلة .. وهو ما ينعكس إيجابا علي حل المشكلة الفلسطينية ..

وهو ما جعل السادات يغامر هذه المغامرة .. كما لم يقدر آثارها السيئة علي البلاد العربية ..

و قبل هذه الزيارة إلي الكنيست الإسرائيلي .. كان السادات قد سافر لاستطلاع الرأي .. إلي رومانيا .. وقابل شاوشيسكو .. بهذا الخصوص ..

حيث قال له الأخير أن " مناحم بيجن " .. رئيس الوزراء الإسرائيلي .. راغب في السلام .. وأيضا سافر إلي المملكة العربية السعودية .. وأيضا إلي إيران ..

ومن الغريب أن السادات أعلن في مجلس الشعب المصري .. في افتتاح دورته في 1977 م .. أعلن أنه علي استعداد للسفر إلي إسرائيل ..

وانهالت عاصفة من التصفيق .. من أعضاء المجلس ..

فكيف لم يدهشهم هذا القرار ..

وكيف صفقوا له بدون اعتراض ..

وكيف لم يدرسوا حتي جوانبه .. السلبية والإيجابية ..

وكان علي السادات أن يسير في الطريق لنهايته ..

فوقع مع الإسرائيليين اتفاق كامب ديفيد .. في 17 من سبتمبر 1978 م .. في ولاية ميريلاند الأمريكية .. مع مناحيم بيجين .. بمباركة وتحت إشراف الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ..

وأما علي مستوي البلاد العربية .. فقد تم إتخاذ سياسات رافضة لهذه الإتفاقية ..

ومعارضة لمصر ..

فتم تعليق عضويتها في جامعة الدول العربية .. كأحد ردود الفعل الرافضة .. تقريبا بإجماع الدول العربية ..

وبالفعل شارك سمير وعفاف.. وسامي وموريس .. وباقي الأصدقاء في المظاهرات التي طافت بشوارع بغداد للتنديد بزيارة السادات للكنيست الإسرائيلي ..

أما مدحت وأسامة وزوجته ليلي وأختها ندي .. فقد تنقلوا بين الحدائق العامة .. والأماكن السياحية .. حتي المساء ..

وتقابل الجميع في المكان المتفق عليه .. وقضوا ليلتهم في الفندق .. إلا أن مدحت لم يكن لديه رغبة في النوم .. عندما هموا في المساء

بالإنصراف إلي غرفهم للنوم بعد يوم شاق .. وقد أجهدهم الهتاف .. والسير في الشوارع لوقت طويل ..

وأخبرهم مدحت أنه سوف يقضي بعض الوقت في صالة الإستقبال.. ليتناول فنجان قهوة ..

وقبل أن ينتهي من تناول فنجان القهوة .. كان أسامة قد انضم إليه .. مع ليلي زوجته .. وأختها ندي ..

- **من الجميل أن يجد المرء من يشاركه السهر في ليلة رائعة مثل هذه ..**

استقبلهم مدحت بهذه الكلمات .. مبديا سعادته بانضمامهم إليه .. لقضاء الوقت في صحبتهم .. بدلا من أن يسهر وحيدا ..

فضحكوا .. وقالت ليلي بينما كانت تأخذ مكانها علي الفوتيل المواجه له :

- **حقا .. إنها ليلة رائعة .. كما أننا لم نأت إلي العراق لكي ننام .. وأنا شخصيا أحب أن أستمتع بكل دقيقة من هذه الأجازة القصيرة ..**

واستقر أسامة إلي جوار مدحت .. وجلست ندي إلي جوار أختها ..

قالت ندي .. بعد أن طلبت من النادل فنجان قهوة .. وأما ليلي وأسامة فقد طلبا عصير برتقال طازج :

- **إنني سعيدة بعدم الإنضمام إلي المظاهرات اليوم ..**

أخذ مدحت رشفة من فنجان القهوة .. ثم عقب علي حديثها مثنيا عليها :

- **أجل .. فأنا ضد قرار الرئيس السادات لزيارة إسرائيل .. ولو كنت اليوم في مصر لخرجت مع المظاهرات المنددة بالزيارة .. إلا أن التظاهر هنا له معني آخر.. يختلف تماما عن معني التظاهر في مصر ..**

وأيده أسامه قائلا :

- **نعم .. وهذا ما جعلني أنا وليلي نعلن رفضنا للزيارة .. وأيضا رفضنا للمشاركة في المظاهرات .. إلا أن لأصدقائنا الأخرون حقهم في أن يعتبروا أن المظاهرات مطلب ضروري للتعبير عن وجهة نظرهم .. سواء هنا أو في مصر .. فالأمر عندهم واحد .. لا فرق بين التظاهر هنا أو في مصر ..**

قالت ليلي:

- **سوف تكون ردود الأفعال رافضة بالمرة للزيارة .. في معظم البلاد العربية .. خاصة سوريا .. وأيضا الفلسطينيون .. رافضون بعنف ..**
- **حتي لو كان السادات يعتقد أن المفاوضات سوف تعيد كل الأراضي العربية المحتلة .. فلم يكن جديرا به أن يذهب إليهم .. في اتفاق منفرد .. كان ذلك رأي ندي ..**

وعلق عليه مدحت مؤكدا :

- **أولا .. لأن ذلك لن يحدث .. فلن تعيد إسرائيل كل الأراضي العربية المحتلة .. ثانيا .. سوف تطول المفاوضات سنوات وسنوات .. وتفرض إسرائيل مع مرور الوقت .. أمرا واقعا علي الأرض .. تحصل بناء عليه علي تنازلات لا حصر لها .. وتكرس بها للإحتلال .. وينتهي الأمر في النهاية إما إلي استمرار الإحتلال لجزء من الأرض من كل دولة عربية محتلة .. واستمرار العداء .. وإما أن ينتهي الأمر نهاية كارثية .. بتطبيع العلاقات بين الإسرائيليين .. والشعوب العربية .. مع استمرار الإحتلال لأجزاء من الأراضي التي تحتلها ..**

قالت ندي :

- **أي أن الإسرائيليين لن ينسحبوا من كل الأراضي التي احتلوها .. في كل الأحوال .. وهذا ما سوف تثبته الأيام .. فالإسرائيليون لا عهد لهم .. ولا أمان .. وأنا طبعا لا أعني الأراضي المصرية .. فهم يعلمون في إسرائيل أننا لن نفرط في حبة رمل واحدة من أراضينا .. ولكن الخوف علي الجولان .. والضفة الغربية .. وأيضا غزة .. وهذا هو ما جعل العرب يعترضون علي المفاوضات الأحادية ..**

ومر الوقت مع المناقشات ..

وتناهي إلي الآذان صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ..

تثاءبت ليلي ونهضت وهي تحث أسامة علي النهوض ..

قالت ولم تزل تتثائب واضعة يدها علي فمها :

- **هيا يا شباب .. إنه الفجر .. ألا تنامون بعض الوقت ؟! ..**

فنهض أسامه وهو يقول :

لقد مر الوقت دون أن ندري .. ولكن كفي .. علينا أن نأخذ قسطا من النوم .. فالبرنامج اليوم ملئء بالأماكن التي نعتزم زيارتها ..

إلا أن مدحت قرر أن يسهر قليلا ..

وقالت ندي موجهة الحديث لأسامة .. وقد تذكرت شيئا :

- **إجلس يا أسامة عشر دقائق فقط .. فلقد تذكرت شيئا أريد أن أعرفه منك منذ فترة .. ودائما أنسي أسألك عنه ..**

قال أسامة .. ولا زال واقفا .. وقد أمسك يد ليلي بيسراه .. وأحاط كتفها بيده الأخري :

- **ألا يمكن تأجيل هذا السؤال إلي الغد ؟! ..**

فضحكت ندي وقالت :

- **أخشي النسيان .. أو الإنشغال ..**

فقال :

- **وما هو هذا السؤال الهام ؟! ..**

قالت باسمة :

- **ليس لأنه هاما .. بل إنها معلومة أريد تأكيدها منك ..**

ضحك أسامة .. وقال مازحا :

- **كأنك تتحدثين إلي " جهبز " .. المهم ..**

تساءلت .. في جدية :

- **سمعت كثيرا مفهوم " الديموقراطيون الإشتراكيون " .. ومفهوم " الإشتراكيون الديموقراطيون " .. وحدث عندي نوع من الإرباك .. إلا أن عفاف أخبرتني أن الفرق كبير .. إلا أنها لم تستطع إفهامي ما الفرق بين المفهومين .. وأنت من تستطيع أن تشرح لي هذا الأمر ..**

وقال أسامة وهو يتثائب .. وقد انتقلت إليه عدوي التثاؤب ..

- إليك بمدحت .. فهم يقولون " لا يفتي .. ومالك بالمدينة " ..

وتأبطت ليلي ذراعه .. وهما يتوجهان صوب المصعد للصعود إلي غرفتهما .. وهما يقولان :

- تصبحان علي خير .. ولو أننا فعلا في الصباح .. وهذا الحديث سيطول .. ونحن في حاجة للنوم ..

وفي الحقيقة أن ندي كانت تتمني من داخلها ذلك .. فانصراف الجميع سوف يتيح لها فرصة جيدة .. ومساحة من الوقت .. للحديث مع مدحت .. فقد شعرت اليوم به يتسلل إلي قلبها .. باتزانه .. وهدوءه .. وثقافته .. وبما وجدت فيه من ملامح الشخصية ذو" الكاريزما " .. والقبول الحسن ..نظرت إليه بإعجاب .. قائلة :

- ما رأيك يا مدحت في هذا القول ؟! ..

إعتاد مدحت عندما يتحدث مع أحد .. أن ينظر إلي عينيه مباشرة .. فإن العيون أحيانا ما تشي بما لا يرغب أحدهم في قوله .. إلا أن به قدر من الحياء يجعله يتحامي عيون محدثته .. حين يتحدث مع أية فتاة ..

ولكن ماذا يفعل الآن ؟! .. فإن ندي ليست أية فتاة .. إنه فعلا يرغب في النظر إلي عينيها .. بل ويطيل النظر .. حتي بدون حديث !! ..

كانت عينا ندي واسعتين .. عسليتين .. ذات أهداب طويلة .. يخال الناظر إليهما أن ندي تضحك بعينيها .. وليس بفمها الدقيق ذي الغمازتين .. وشفتيها .. الرقيقتين ..

أما شعرها الكستنائي فقد تركته ينسدل خلف كتفيها .. مع إسدال خصلة منه فوق عينها اليسري .. وبعض خدها الأيسر .. مما كان يضفي علي وجهها الأبيض .. المستدير .. بهاء وجمال ..

قال لها مبتسما .. وقد تحامي عينيها في حياء :

- أي قول ؟!

لاحظت أنه ينظر إلي صفحات كتاب بين يديه .. فقالت له باسمة :

- **وهل نتحدث .. بينما تقرأ في هذا الكتاب ؟! ..**

وضحكت .. وهي تستطرد مازحة :

- **إما أنك غير راغب في الحديث معي .. وإما أن هذا الكتاب يبلغ من الروعة ما يجعلك تتجاهل فتاة مثلي ..**

وجاءت حركات جسمه المرتبكة .. السريعة .. الإنفعالية .. غير المحسوبة .. ومحاولة إغلاق الكتاب الذي سقط من بين يديه .. فمال بجسمه إلي الأرض لكي يلتقط الكتاب ويضعه جانبا .. كل هذا حدث وهو يتكلم بارتباك .. باحثا عن الكلمات التي يؤكد بها أنه سعيد جدا بوجودها معه ..

قال من خلال ضحكاتها الرنانة التي صاحبت كلامه .. كرد فعل غير إرادي منها بسبب حركاته السريعة المرتبكة ..

- **كلا .. كلا .. والله إني لفي سرور عظيم .. وسعادة غامرة .. بوجودك معي وحديثنا معا .. وأما عن الكتاب .. فها هو قد أغلقته !! ..**

واستمرت في الضحك .. ضحكات مفرطة في الرقة .. والعذوبة .. فبدت أسنانها كاملة في التناسق والإتساق .. بيضاء كاللؤلؤ .. تزيدها جمالا هاتان العينان اللامعتان .. تتلألآن .. في بشر وبراءة وطهر .. وحب !! ووجد نفسه يضحك معها .. فقد أدرك أنه جاء بحركات تشي بحياء شديد يكمن بداخله .. كما يشي من ناحية أخري بأهمية خاصة يحملها لها بصفة شخصية .. وإلا لما كان هذا الإرتباك ..

قالت .. وهي سعيدة أن أحدثت له هذا الإرتباك :

- **لقد قلت ما قلت مازحة .. أما الآن فقد أصبح لدي الكثير من الأسئلة .. فهيا أجب علي كل سؤال .. بصراحة .. وبدون مراوغة ..**

نظر إلي عينيها دون أن يتحاماهما هذه المرة .. فلم يعد حياؤه يحول دون ذلك .. وقال باسما :

- **اسألي .. ولو أنني أستشعر شيئا .. و أكاد أشم رائحته ..**

قالت .. ولم تزل تضحك :

- **بل يمكنك الإجابة .. إذا أردت .. فأولا .. لماذا ارتبكت ؟! ..وثانيا .. وهو الأهم .. لماذا تقول أنك مسرور جدا بوجودي معك ؟! .. هيا أجب ..**

بينما كانت تتحدث معه .. كان قد أرسل إلي عينيها نظرات حانية معجبة .. وقد بدا علي نظراته إليها .. أن البريق الذي يشع من عينيها .. إنما هو مغناطيس .. لا تملك نظراته أمام قوة هذا المغناطيس .. من فرار ..

قال .. ولم يعد من أثر للخجل :

- **أجيبك .. ولكن هل لي أن أرتب الأسئلة كيف شئت ؟! ..**

قالت مبتسمة ..

- **أوافق .. علي أن تجيب كل الأسئلة !!**

أومأ رأسه بالإيجاب .. وقال باسما :

- **سوف أختار السؤال الأول .. إنك تودين معرفة الفرق بين مفهوم " الديموقراطيون الإشتراكيون " .. ومفهوم " الإشتراكيون الديموقراطيون " .. ولو أن هذه المفاهيم قد ترددت كثيرا في اللقاءات والإجتماعات الدورية التثقيفية .. في الكويت ..**

- **أجل .. ولكن الحياء منعني أن أسأل خلال الإجتماع .. علي أن أسأل أحد الأصدقاء .. وها أنا معك .. ولن أجد خيرا منك .. يوضح لي هذا الأمر ..**

- **تعلمين أن الإشتراكية هي نظام اقتصادي يعني امتلاك الدولة لوسائل الإنتاج .. والإدارة التعاونية للاقتصاد .. وهو اقتصاد مخطط مركزيا .. أي من قبل الدولة ..وهو الذي يحدد كمية السلع .. وأسعار البيع .. وهو ما يسمح بتوزيع الثروة علي أساس مساهمة كل فرد .. في المجتمع .. من كل فرد .. حسب مقدرته .. وإلي كل فرد .. حسب مساهمته .. وهو ما يحقق العدالة الإجتماعية .. والمساواة في توزيع الثروة علي أساس المساهمة في المجتمع ..**

أما الرأسمالية فتركز القوة والثروة في قطاع معين من المجتمع .. فيتحكم في وسائل الإنتاج .. وفيه يتم تحديد كمية وأسعار السلع .. بناء علي قوي السوق .. أي العرض والطلب .. وهو ما يخلق مجتمع طبقي .. يعتمد علي علاقات اجتماعية غير متساوية .. وبذلك فهو نظام يخدم طبقة الأغنياء .. ويسمح باستغلال الطبقة الأدني ..

ويسعي الديموقراطيون الإشتراكيون إلي اصلاح النظام الرأسمالي السائد .. بتنظيم الحكومة لرأس المال وتوزيع الضرائب .. من خلال هيكل اقتصاد السوق ..

وهنا سوف تقوم الدولة بالعمل من أجل مصالح الرأسمالية ..

وتتبع الديموقراطية الإشتراكية سياسات انتخابية من أجل تنفيذ الإصلاحات .. وتتخلي عن الاقتصاد المخطط .. وبدلا من ذلك .. تدافع عن الاصلاحات الاجتماعية لتحسين الرأسمالية .. وجعلها أكثر انصافا وانسانية .. وهذا موجود في السويد والدنمارك والنرويج ..

أما الإشتراكية الديموقراطية .. فتبحث عن الإنتقال من الرأسمالية إلي الإشتراكية .. من خلال سياق نظام ديموقراطي .. ويرفضون المركزية في التخطيط ..وهي حركة دولية جديدة تجاه العدالة الاجتماعية ..

قالت ندي .. ممتنة .. وعلي ثغرها ابتسامة أحبها :

- **أولا أشكرك علي هذا التوضيح ..**

ضحك مدحت .. وقاطعها قائلا :

- **إنني أخشي ثانيا !! ..ألا تكفي أولا ؟! ..**

قالت وفي عينيها بريق .. يشي بالسرور والبهجة :

- **كلا .. لقد وعدتني بالاجابة علي كل الأسئلة ..**

سألها .. باسما .. وقد تعلم كيف يترك عيناه تغوصان في بحر عينيها دون خجل .. قال :

- **وهل يمكن للمحامي الفقير إلي الله .. أن يطلب من عدالة المحكمة .. التأجيل .. للإطلاع علي الملف ؟! ..**
- **بشرط ألا يكون ذلك من باب المراوغة ..**
- **اتفقنا !**
- **المحكمة توافق علي التأجيل أسبوع واحد فقط ..**
- **أشكر عدالة المحكمة .. وإلي اللقاء بعد أسبوع .. عندكم بالبيت ..**

obeikan.com

الفصل الثامن

زواج مدحت

وقل الحق من ربكم

فمن شاء فليؤمن

ومن شاء فليكفر

صدق الله العظيم

****

كانت

الأويقات التي قضتها ندي في العراق .. مع مدحت .. فارقة في حياتها .. ولم يكن قد جري بينه وبينها شيء سوي هذه المناقشات وتبادل الآراء .. إلا أنه ما سرها أنه كان بينهما مساحة كبيرة مشتركة من التفاهم والإتفاق .. في الرأي .. والأفكار .. والسلوكيات .. وحتي الهوايات ..

إنه .. مثلها .. يهوي الموسيقي .. ولديه اسطوانات لسيمفونيات كلاسيك لكثير من الموسيقيين .. بيتهوفن .. شوبان .. وموزارت .. ويحب الإستماع إلي أم كلثوم .. وعبد الحليم .. ويقرأ القرآن .. ويحفظ بعض السور .. وبعض الأحاديث .. كما يقرأ في الفن .. والأدب .. والإقتصاد ..وينظم الرحلات مع أصدقائه .. ويلعب الشطرنج ..

طبعا لم تكن لتتعلق بكل من بينهم وبينها مثل هذه المساحة المشتركة .. إلا أنها كانت تعلم أن هناك شيئا لم يكتمل بعد .. جنين .. لم يحن بعد وقت أن يري النور ..وكانت البداية في الكويت .. منذ بعض الوقت .. فهي لا تستطيع أن تحدد موعد البداية ..

وكانت تبتسم في نفسها .. بسمة لا تظهر علي شفتيها .. عندما كانت تنظر فجأة إليه فتجده ينظر في عينيها .. وسرعان ما يغض بصره حياء وخجلا .. وحرجا ..

وعندما راقبته بعينيها خلسة .. اكتشفت أنه يلتهمها بعينيه .. إعجابا .. وأحبت أن يفعل هذا .. فهو يحب النظر إلي عينيها دائما .. واكتفت منه بهذه النظرات المعجبة في البداية ..

لقد أعجبها فيه أنه كان دائما يعرف مكانه الصحيح فيقف فيه .. وأين حدوده .. فلا يتعداها .. ويحسن المحافظة علي مكانه ..

ومع مرور الوقت – ولو أنه قصير - .. ومع تكرار المناقشات .. وتبادل الإبتسامات .. وجدت أن الخجل ينزوي .. ويحل محله إطالة النظرات .. وأصبح يعلق عينيه بها .. دون ارتباك ..

إن هذا أفضل كثيرا مما كان يحدث في الكويت .. عندما كانت تلتقيه صدفة في بيت أسامة و أختها ليلي .. أو في الإجتماعات التثقيفية الدورية ..

لقد كان يرتجف عندما تنظر إليه فتجده يعلق عينيه بها .. وكأنه يشرب من عينيها .. ليروي ظمأ قلبه الذي جف بين ضلوعه .. فإذا ما رأته .. ارتد بعينيه عنها سريعا .. وقد احتقن وجهه واكتسي بالحمرة .. وكأن أحد قد ضبطه يتسلل خلسة ليأخذ شيئا ليس من حقه .. ولا يخصه .. أو كأن عينيه المعجبتين .. جائعتين وقد استبد بهما الجوع والحرمان ..

ولم يكن مدحت يرتجف عندما ينظر إلي أي فتاة .. بل أنه كان يتعامل معهن علي السواء .. ولم يكن يبحث عن الأنثي فيهن .. ولم يكن يفكر حتي في هذا .. ليس خجلا .. بل طبع علي هذا .. كما كان يتجنب أصدقاءه عندما يتبادلون أحاديث النساء .. والغراميات .. والفكاهات المبتذلة .. والمغامرات الجنسية .. والتي كان كثيرا منها مغالاة .. وغير صحيح .. إلا أن ندي كانت تعني له شيئا أخر ..

فعندما كان يراها .. كانت تدب في صدره نشوة تعقد لسانه .. وتجعل قلبه يضطرب .. ويخفق خفقات غير منتظمة .. وكأنه صبي صغير مراهق .. حديث العهد بمجالسة البنات ..

كان يري فيها جمالا هادئا .. يتسلل إلي قلبه .. في رفق .. كمخدر عبق .. إذا ما طاف به أدمنه .. ويتولد منه نشوة غريبة .. وسرور ..

وبعد عودتها من العراق .. بدأت ندي تغيب الساعات الطوال وراء خيال لا نهاية له .. وأفكارتذهب بها كل مذهب .. تداعبها صورته المنطبعة في ذهنها .. والتي لا تفارقها .. في يقظة .. ولا أحلام ..

ورغمها .. تحولت الدنيا كلها إلي مدحت ..

وغابت عيناها في نظرات ساهمة .. شاردة ..

كما أصبحت شفتاها الرقيقتان أكثر ضنا بالكلام ..

ولاحظت أختها ليلي أنها تلازم غرفتها طول الوقت .. منذ عودتها من العمل .. اللهم إلا وقت تناول الطعام .. فكانت تتعلل بأن بها وعكة بسيطة .. وصداع خفيف ..

لم يكن أحد يعلم أن في حياتها رجل ..

كانت تنتظر زيارته لأسامة .. فقد وعدها أن يزور أسامة لكي يراها بعد أسبوع .. منذ كانا في العراق ..

وجلست في غرفتها .. علي الفراش .. وقد ثنت ساقيها وأحاطت ركبتيها براحتيها .. وأسندت رأسها علي حافة السرير .. وأطلقت خيالها ..

لقد وعدني أنه سوف يأتي خلال أسبوع .. منذ أن كنا في العراق .. ألم ينتهي الأسبوع ؟! ..

ما بال الأيام أصبحت طويلة هكذا ؟! ..

وأصبحت الدقائق ساعات .. والساعات أياما ..

لماذا يمتد الزمن إلي ما لا نهاية ؟! ..

لقد كنت أقول لأصدقائي كثيرا " إن غدا لناظره قريب " .. عندما كانوا ينتظرون حدثا ما .. ولكنني لن أقولها لأحد بعد اليوم .. فما أبعد الغد .. وما أطول الأيام .. علي من ينتظر !! .. بل ما أطول الساعات .. والدقائق

.. والثواني .. وما أطول أوقات الصبر .. وما أكثر الملل .. خلال هذه الأوقات ..

وفجأة انتفضت ندي في جلستها .. وفي ثواني كانت تقف خلف الباب المغلق .. لتسمع وتعرف من القادم .. فقد انتهي إلي أذنيها رنين جرس باب الشقة .. لعله مدحت ..

وأخذت تقفز فرحا .. أجل .. إنه مدحت .. فها هو صوت أسامة يرحب به .. وأيضا ليلي ..

وغمرتها السعادة ..

وهمت أن تفتح باب غرفتها وتخرج لاستقباله .. إلا أنها استدارت ووقفت أمام مرآة التواليت .. تطالع صورتها المنعكسة علي صفحة المرآة ..

ماذا أرتدي ؟! ..

وفتحت ضلفة الصوان .. واختارت أحلي فستان ..

نعم .. هذا الفستان أعجبه عندما رآني به .. لقد قال لي يومها ..

" إن هذا الفستان يبدو عليك رائعا " ..

إنني لم أسمعه يعلق علي ملابس أية فتاة من قبل ..

لقد خصني أنا بالذات بهذا الإهتمام ..

وارتدت الفستان الذي أعجبه .. وأصلحت من تسريحة شعرها .. ووضعت أحمر شفاة خفيف .. يتناسب مع لون الفستان .. ولم تنس القليل من العطر الهاديء ..

ووقفت ثواني قبل أن تفتح الباب .. لكي تعطي لقلبها المضطرب الفرصة كي يهدأ .. ويخفق في انتظام .. وأخذت نفسا عميقا .. حتي تعيد إلي نفسها السكينة والهدوء ..

وخرجت إليه تتهادي ..

وكانت ابتسامة قد زانت وجهها فزادته إشراقا ..أما بريق عينيها فكان ينطق بسعادة بالغة ..

ورأتها ليلي ففتحت فاها واتسعت عيناها .. وحملقت فيها .. ولم تنبس بكلمة ..

فكانت دهشتها بالغة .. ولاذت بالصمت .. في حين همت أن تسألها " أين الصداع .. وحالة الصمت الرهيبة التي تغلفك منذ بضعة أيام ؟! " .. إلا أنها اكتفت بالإبتسام .. مؤقتا !! ..

ورآها مدحت .. قال في نفسه " تبارك الله .. ما أجملك يا ندي !! " .. وكأنه يراها للمرة الأولي ..

وقفز قلبه من بين أضلعه .. سعادة وابتهاج ..

كانت تتهادي نحوه .. ووجهها ينطق بالبشر .. قائلة .. وقد مدت يدها نحوه للتحية :

- **أهلا يا مدحت ..**

سمع صوتها موسيقي تعزف .. علي أوتار قيثارة رائعة ..

وسمعت هي صوتها وكأنه قادم من أعماق قلبها ..

قال .. وكان قلبه المتحدث :

- **كيف حالك يا ندي ؟! ..**

وفي لمح البصر تلفت حوله .. فرأي أسامة مشغولا مع ليلي في إعداد المشروبات ..

قال مغازلا :

- **هل أنا يقظ .. أم أن حورية من الجنة جاءت لتبهرني بجمالها .. في أحلي أحلامي ؟! .. وأجملها ..**

قالت .. و قد أخذت مكانها إلي جواره علي الأريكة .. ولم تزل تبتسم :

- **أخشي أن تكون حوريات كثيرة .. دائمة الزيارة لك في أحلامك !! ..**

ضحك ضحكة خفيفة .. وقال مازحا :

- **بل تزورني فقط .. كلما رأيتك !! ..**

قالت همسا .. :

- والأخريات ؟! ..

قال .. وقد عرف إلي ما ذا ترمي :

- بريء والله .. لا أخريات !!
- أتغازلني في بيت أختي ؟! ..

قال .. في نبرة جادة :

- قريبا سوف أغازلك في بيتي !!

وصمتت .. في اندهاش ..

سألها .. في جدية أكثر :

- ندي .. تتزوجيني ؟!

ضحكت .. وقالت :

- كلا ..؟!

وسكتت ضحكاته .. وأغلقت شفتاه عن الإبتسام ..

ولكنها سارعت بطمأنته .. قالت .. ضاحكة :

- أنت من سيتزوجني!! ..
- وأنت .. موافقة ؟! ..

وصمتت .. وغضت بصرها .. لثواني ..

ونظرت إليه .. كان لا زال ينظر إليها .. منتظرا للإجابة ..

هزت رأسها لأعلي .. ولأسفل .. بالإيجاب .. والموافقة ..

ونهضت .. وكان الفرح يغرد في قلبها كالعصفور .. ومضت إلي غرفتها .. كأنها قد اكتفت اليوم بهذا القدر من السعادة .. خوفا علي قلبها .. فقد لا يتحمل ما شعرت به من سعادة العمر كله .. في لحظة واحدة !! ..

أو كأنها ترغب قي أن تعيش هذه السعادة مع نفسها في غرفتها .. فقد ترقص .. أو تضحك من فرط سعادتها .. وتهلل كالأطفال ..

وربما لكي تتوضأ .. وتصلي ركعتين .. شكرا لله علي هذا الزواج .. من الإنسان الذي أحبته كما لم تحب أحدا من قبل ..

وجاء أسامة وليلي .. بما أعدته من كيك ومشروبات ..

وكان مدحت في حالة نشوة لا توصف .. وسعادة غامرة .. لا تخفي علي أحد .. وهو ما تشي به عيناه .. بما فيهما من بريق .. حتي كادت دمعة أن تسيل .. من فرط السعادة ..

فقالت له ليلي .. مازحة :

- **سبحان مغير الأحوال !! ..**

فوجه حديثه لأسامة .. قال بنبرة متفائلة :

- **مطلوب منك استشارة .. يا صديقي العزيز ..**

فضحك أسامة وقال مازحا :

- **منذ متي وأنا صديقك العزيز ؟! ..**

تناول مدحت كوب الماء .. وأخذ رشفة ماء .. وقال مبتسما :

- **من الآن فصاعدا .. وسوف أتملقك كثيرا .. إنها الضرورة ..**
- **أهي استشارة طبية .. أم استشارة قانونية ..**
- **أليس هناك استشارة اجتماعية ؟! ..**
- **بل يوجد .. إذا أردت !! ..**
- **أرجو أن تنادي ليلي .. فهي شريكة في الإستشارة !! ..**

ونادي مدحت بنفسه ليلي .. التي كانت قد اتجهت إلي المطبخ لإحضار الشاي ..

وجاءت ومعها أقداح الشاي .. علي صينية ذهبية اللون جميلة ..

ووضعتها علي المنضدة الصغيرة التي وضعتها مسبقا إلي جوار كرسي مدحت ..

قالت مبتسمة :

- **من ينادي ؟! ..**

قال مدحت .. وقد توقد وجهه بشرا .. ولمعت عيناه سرورا :

- **لقد قررت أن أنضم إلي قائمة المتزوجين ..**

فسارع أسامة قائلا وهو يمازحه :

- **قرار خاطيء .. في الوقت الخاطيء !! ..**

فلكزته ليلي .. وقالت له متوعدة :

- **الآن أصبح الزواج قرارا خاطئا !! .. بعد أن حفيت قدماك رائحا غاديا علي بيتي حتي أوافق عليك .. وبعد أن جف حلقك من الرجاء .. حتي تفضلت عليك بالموافقة ؟! .. سوف تري .. فلن يمنعني عنك أحد .. ولن يطول بقاء مدحت طول العمر هنا لحمايتك مني ..**

فقال لها معتذرا :

- **لا يا حبيبتي .. إن زواجي أنا شيء آخر !! ..**

وضحك الجميع ..

وسألت ليلي عن اسم العروس :

- **ومن هي العروس سعيدة الحظ ؟! .. أظن أنني أعرفها !! ..**
- **أجل .. إنها ندي ..**

وكان لهذا القرار وقعا جميلا .. سعيدا علي الجميع .. وباركوا له .. ولها .. واحتفلوا احتفالا رائعا بهذه المناسبة .. وأخبروا الأهل في مصر .. وتم ترتيب الأمور .. مثل مواعيد السفر إلي مصر لإتمام الخطوبة .. وعقد القران .. كما تم مناقشة تأجير شقة الزوجية في مكان مجاور لسكن أسامة وأختها ليلي .. حيث يقطن معظم الأصدقاء ..

إلا أن أخبارا غير سعيدة قد وصلتهم من صديقهم كريم .. ابن الشيخ مصطفي ..

كان مدحت يزور أسامة كما اعتاد منذ بضعة أيام .. ليتسامر معه ومع ليلي .. وحتي يتعرف أكثر علي عروسه .. وتتعرف عليه أكثر ..

وقال له أسامة .. وقد بدا أن الخبر جديد عليه .. لم يكن قد عرف به ..وكانت نبرته حزينة :

- **أبرق إلي كريم .. للعزاء .. فقد توفي والده .. الشيخ مصطفي .. منذ بضعة أيام ..**

فقال مدحت متأثرا جدا .. فقد كان محبا للشيخ مصطفي .. مقدرا لعلمه ..

- **لا إله إلا الله .. إنا لله .. وإنا إليه راجعون .. الله يرحمك يا شيخ مصطفي .. فلنقرأ الفاتحة علي روحه .. وندعو المولي عز وجل .. أن يغفر له .. ويدخله فسيح جناته ..**

وقرأ الجميع الفاتحة .. ودعوا للمرحوم ..

وقال مدحت :

- **أذكر له .. عليه رحمة الله .. حديثا جميلا .. رسخ في وجداني .. واستقر في ذهني .. منذ أن كنت في الثالثة من المرحلة الثانوية ..**

وكان بذلك قد جذب اهتمام أسامة وليلي وبالطبع ندي .. التي كانت منجذبة إليه أيا كان الحديث !! ..

استطرد قائلا .. في محاولة لتذكر الوقائع .. وكلام الشيخ مصطفي بالضبط .. حيث مر عليها سنوات وسنوات ..

- **كان في الحي المجاور لنا سيدة تدعي " علية " .. مع تكرار زيارة جارهم الذي كان يعمل " جزارا ".. مع تكرار زيارته لزوجها في بيته .. بدأت الحواجز تتلاشي .. وزاد الإختلاط .. وزالت الكلفة بينهم .. حتي أصبح يتعامل معهم كواحد من أهل البيت .. إلا أن التقارب بين الزوجة "علية " .. وبين هذا الجزار قد تحول إلي علاقة .. فغرام .. انتهي نهاية درامية مأساوية .. هزت البيت .. كما زلزلت كيان الأسرة .. وشردتها ..**

فقد اتفقت " علية " مع عشيقها أن يقتلا الزوج .. حتي يصفو لهما الجو !! .. علي الرغم أن أبناءها كانوا رجالا .. ونساء ..

وكانت هي نفسها قد جاوزت الأربعين من العمر !! ..

إلا أن الشيطان زين لهما ما يفعلان ..

واعتقدا أنهما ناجيان من فعلتهما ..

وأن جريمتهما كاملة .. يعصي علي الحكومة اكتشافها ..

وتم اكتشاف الجريمة .. وحل ألغازها .. بعد يوم واحد !! ..

وسألني كريم .. وكنت أستذكر دروسي معه في بيته ..

- **أليس الزوج .. المقتول .. مكتوب له أن يقتل في هذا الموعد ؟! ..**

قلت .. وأنا أجهل باقي الأسئلة التي سوف تتولد من هذا السؤال ..

- **أجل !! ..**
- **والمقتول .. لا بد من أن يوجد القاتل الذي يقتله !! ..**
- **أجل !! ..**
- **فإذا كان هذا القاتل مكتوب عليه أن يقتل .. فلماذا يعاقب يوم الحساب ؟! ..**

أليس ظلما أن يكتب عليه أن يقتل .. فإذا قتل .. نعاقبه ؟! ..

- **أستغفر الله .. إن الله لا يظلم أحدا ..**
- **حتي أنا أستغفر الله .. ولا أدعي أن الله .. عز وجل .. يظلم أحدا .. حاشا لله .. ولكن .. ألا يجب أن نفهم ؟! ..**
- **ألم تسأل الشيخ ؟! ..**
- **كلا .. فلم أفكر في هذا الأمر من قبل ..**
- **أليس موجودا الآن ؟! ..**
- **بلي .. إنه في مكتبه .. هيا بنا نسأله ..**

ومضينا للتو إلي غرفة الشيخ ..

كان قصيرا .. بدين .. وقد اشتعل رأسه شيبا .. وقد جاوز الستين من العمر .. له وجه باش .. لا تراه إلا باسما .. حلو اللسان .. وقد أحبه الجميع ..

جلس إلي مكتبه المختفي تحت أطلال من الكتب .. والأدوات المكتبية النفيسة ..

كان يقرأ القرآن .. في أحد المصاحف المجلدة بعناية .. واهتمام ..

وما أن طرقنا الباب .. حتي قال : صدق الله العظيم .. وأغلق المصحف الشريف .. ووضعه علي المكتب .. ثم سمح لنا بالدخول ..

ورآني مع كريم ..

فقال مرحبا :

- **أهلا وسهلا يا مدحت .. كيف الأحوال ..**

وبعد السلام .. قلنا له أن لدينا ما نرغب في معرفته والبحث عن الإجابة الصحيحة له ..

قال .. مبشرا :

- **إن شاء الله ..**

وأعاد عليه كريم نفس الأسئلة ..

فقال يشرح .. متبسطا .. حتي نستوعب ما يقول :

- **هذا السؤال يدخل تحت عنوان كبير .. أثيرت بسببه مناقشات ومناقشات .. هذا العنوان هو .. "هل الإنسان مسير أم مخير " .. فإذا كان الإنسان مخيرا .. فهنا يمكننا الحديث عن فكرة الثواب والعقاب .. و لكن لماذا إذن نتحدث عن " المقدر " و " المكتوب " .. طالما أنه مخير !! ..**

أما إذا كان الإنسان مسيرا .. فكيف نتحدث عن " الثواب " و " العقاب " .. إذ كيف نعاقب أحدا .. أو نثيبه .. وهو لم يفعل إلا ما هو مقدر له أن يفعله .. ولم يفعل إلا ما كتب عليه أن يفعله !! ..

ووقعنا أنا وكريم في حيرة أكبر من ذي قبل !! ..

وتبادلنا نظرات الحيرة .. في صمت ..

إلا أنه أردف قائلا :

- **هناك تشابك صغير .. وعلينا أولا أن نفك هذا التشابك .. فالموت .. والولادة .. هي أمور لا يثاب عليها إنسان .. ولا يعاقب .. فهي مسائل قدرية .. وإذا قلنا أن هذا مكتوب .. أو مقدر .. لن يتساءل أحد عن ظلم .. أو مظلوم ..**

أما الأمور الأخري التي يفعلها الإنسان من خير .. أو شر .. فهو مخير بشأنها .. فيقول المولي عز وجل في كتابه الكريم :

" ... وقل الحق من ربكم .. فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر " ..

كما يقول سبحانه :

" ... وهديناه النجدين " ..

ولا بد هنا من خضوع الإنسان للثواب والعقاب ..

لأنه مخير ..

يبقي سؤال بسيط يتطلب الإجابة عليه .. حتي تكتمل الحلقات في هذا الشأن ..

إذا كان الإنسان مخيرا في هذه الأمور .. فلماذا نقول أن ما يقع عليه .. أو أن ما يصدر منه " مقدر ومكتوب " ؟! ..

وهنا أذكركما أن الله عز وجل " مطلق " .. فعلمه مطلق .. وليس كعلمنا .. بدون شك ..

وقد تعلمان أن الملائكة تدور حول العرش قائلة " لا إله إلا الله .. محمد رسول الله " .. من قبل خلق سيدنا آدم ..

وهو ما يعني أن الله .. سبحانه وتعالي .. يعلم أنه سوف يخلق آدم .. وأن الناس سيكون منهم المؤمن .. ومنهم الكافر .. وسيرسل إليهم الرسل .. فإذا سلمنا بذلك .. فقد وضح كل شيء ..

فالله يعلم .. قبل أن تولد .. أنك سوف تفعل هذا الخير .. فكتبه لك .. وعلم أن هذا الرجل سوف يقتل ذاك .. فكتب علي هذا أن يقتل اليوم .. فيكون قاتلا .. وكتب علي ذاك أن يموت اليوم .. مقتولا ..

إذن .. فعندما نقول عن شيء أنه " مقدر ومكتوب " .. فذلك لأن الله قد علم أن الإنسان سوف يفعل هذا الأمر فقدره له .. وكتبه عليه ..

وبذلك لا يكون ظلما .. أن يثاب الإنسان لفعله .. أو يعاقب ..

وهذا القول يندرج تحت قاعدة واحدة .. هي .. أن الله .. عز وجل .. " علمه سبق حكمه ".. أي أنه علم أولا .. ومن ثم قدر وحكم .. وخرجنا من مكتبه سعداء جدا .. بهذه المعلومات القيمة عن القضاء والقدر ..

قالت ليلي :

- **إنه تفسير بسيط رائع .. لسؤال يتبادر إلي كثير من الأذهان ..**

وقالت ندي :

- **إنني فعلا قد اقتنعت به .. ولو أنها المرة الأولي التي أسمع فيها هذا التفسير .. بهذا الوضوح ..**

وقال أسامة :

- **وبالمناسبة يا مدحت .. ربما كان هذا الأسبوع يحمل أنباء أخري غير سارة من طرف أسرة كريم ..**

فقال مدحت .. وقد شعر بالقلق :

- **ماذا أيضا ..**

قال أسامة .. بأسي :

- **لقد توفي أيضا زوج أخته " منال " ..**
- **يا إلهي .. إنا لله .. وإنا إليه راجعون .. وكيف هي الآن ؟! ..**
- **حزينة كل الحزن .. لوفاة أبيها .. وزوجها .. في أسبوع واحد ..**
- **الله يكون في عونها ..**

وللخروج من لحظات بدت حزينة .. سألت ندي مدحت .. مبتسمة :

- **ألا تعرف أن عيد ميلادي غدا ؟! ..**

أجاب .. وقد أبدي اهتماما بالمناسبة :

- **كل عام وأنت بخير .. وأين سيكون الإحتفال.. بهذه المناسبة السعيدة ؟! ..**

وقبل أن تجيب .. قال أسامة .. مازحا :

- **إنني أندهش من حال الإنسان ..**

وبدي علي الوجوه دهشة .. وانتظروا جميعا ماذا يريد أسامة أن يقول .. فاستتلي مازحا .. وقد لاحظ أنه قد جذب انتباههم:

- **صحيح .. إن الفقراء يحتفلون بعيد ميلادهم .. لأنه قد مضي عام كامل من تعاستهم وبؤسهم .. واقتربوا خطوة من القبر .. وفي هذا لسعادة غامرة بالنسبة لهم ..**

وأما الأثرياء .. فهم يحتفلون بعيد ميلادهم .. لأنه قد مضي عام كامل من سعادتهم وبهجتهم .. واقتربوا خطوة من ثراء أكبر .. يحمل لهم سعادة أكثر .. وبهجة أكثر .. وفي هذا لسعادة غامرة بالنسبة لهم ..

لأنهم لا يدركون أنهم أيضا .. اقتربوا خطوة من القبر !! ..

وعلقت ندي :

- **يا أسامة .. ألا تراني مقبلة علي الحياة .. سعيدة متفائلة ؟! .. لماذا حديثك اليوم عن الوفاة .. والقبور ؟! ..**

فقالت ليلي ضاحكة :

- **إنه لا يفعل هذا .. إلا لكي يتهرب من شراء هدية عيد الميلاد !! ..**

وضحكت ندي ضحكة انتشر رنينها في فضاء الشقة .. قائلة :

- **لا .. أرجوك .. لا تدعيه يشتري لي هدية عيد الميلاد .. فربما يفكر أن يشتري لي كفنا !! ..**

الفصل التاسع

غزو العراق للكويت

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

ونهجو ذا الزمان بغير ذنب

ولو نطق الزمان لنا هجانا

وليس الذئب يأكل لحم ذئب

ويأكل بعضنا بعضا عيانا

****

أتحدي إسرائيل أن تفعل بنا كما فعلنا بأنفسنا

نجيب محفوظ

****

كان

يوما غير أي يوم أخر ..

إنه الثاني من شهر أغسطس .. سنة 1990 م.

لقد استيقظ البعض .. فجر هذا اليوم .. غير مصدق لما سمعته أذناه ..

والبعض اعتراه الذهول .. وتملكته الدهشة .. لما تحدثت به الأخبار .. في كل وسائل الميديا ..

من وسائل الإعلام المقروءة .. والمرئية .. والمسموعة ..

فهذا الخبر الصاعق .. الصادم .. صحيح إذن ..

لقد شن الجيش العراقي ..

من؟! .. الجيش العراقي ..

هجوما .. علي دولة الكويت ..

علي من ؟! .. علي دولة الكويت ..

لقد أرسل صدام حسين .. إلي الكويت .. فرق مدرعات .. وفرق مشاة ..
وفرق مشاة بحرية .. وهجوم جوي ..
وكان من الطبيعي أن تكون المعارك غير متكافأة ..
وعلي أية حال .. فلم يطل الأمر كثيرا .. ففي المساء .. من نفس اليوم ..
كانت الكويت .. قد تم احتلالها ..
لقد باتت حرة ..
وأصبحت .. في اليوم التالي .. محتلة ..
وقد هاجمت القوات العراقية .. الكويت .. عبر أربع محاور رئيسية ..
وبحلول نهاية اليوم .. كانت القوات العراقية قد سيطرت علي غالب
الأراضي الكويتية .. عدا جزيرة فيلكا .. التي قاومت حتي فجر اليوم التالي
.. الثالث من أغسطس ..
وتم استيلاء القوات العراقية .. علي كامل الأراضي الكويتية ..
وقتل الكثيرون من الجنود الكويتيين .. والمدنيين ..
وتم أسر الألاف ممن جري نقلهم إلي العراق ..
وأما أمير الكويت .. الأمير جابر الأحمد الصباح .. وأسرته .. فقد استطاع
أن يغادر إلي المملكة العربية السعودية .. من خلال أنفاق سرية .. آمنة ..
نعم .. الأخبار صحيحة ..
فقد تم تشكيل حكومة صورية برئاسة العقيد علاء حسين .. تحت إسم
جمهورية الكويت !! ..
وبعد خمسة أيام فقط .. أعلنت الحكومة العراقية ضم الكويت للعراق ..
وإعلانها .. أي الكويت .. المحافظة رقم 19 .. للعراق ..
حتي إسم العاصمة الكويتية .. تم تغييره .. وأسماء الشوارع والمنشآت ..
وفي الطائف .. تشكلت الحكومة الكويتية في المنفي ..
ولم يكن هذا الأمر من البساطة التي تجعله يمر مرور الكرام .. بل اعتبره
البعض كارثة قومية .. أو كارثة عربية ..

وقد تم إزالة كلمة " القومية " من قاموس المصطلحات السياسية ..
اعتبارا من ذلك اليوم البائس من تاريخ الكويت ..
وداهم العراقيون منازل الكويتيين .. المدنيين ..
ولم يكن هناك خط فاصل .. أو مميز .. بين البيوت الكويتية .. والبيوت غير الكويتية .. عربية .. أو حتي غير عربية ..
وهو ما جعل هناك ضحايا كثيرون .. مصريين .. وغير مصريين ..
وتعرض الآلاف للتعذيب .. والقتل ..
واستبيحت الأعراض .. وموورست الإعتداءات الجنسية علي البنات ..
وعلي السيدات .. أمام أعين أزواجهن .. وأخواتهن .. وأبنائهن !!
وأقتيد الكثيرون أسري .. إلي العراق ..
وامتلأت الشوارع بالخوف والجزع .. والأنفس المذعورة ..
كان الجميع يتحدثون .. ويتجادلون ..
فالخوف هو المسيطر ..
والرعب .. والدهشة .. والإحتلال .. هي مجال الأحاديث ..
والتقي .. سمير .. ومدحت .. وأسامه .. ومعهم الكثيرون من الأصدقاء .. المصريين .. والكويتيين.. ومن الطبيعي أن يكون لقاء غاضبا ..
قال أحدهم .. غاضبا .. متحمسا :

- **لا أدري كيف تهاجم دولة عربية .. دولة عربية أخري .. وتحتلها !!**

وأجابه مدحت :

- **تدعي العراق أن الكويت .. جزء من الأراضي العراقية ! ..**

ويبدو أن سمير كان قارئا جيدا للتاريخ ..
فقال .. رافضا لهذا الرأي الذي يدعي أن الكويت إنما هي مدينة عراقية :

- **لقد قرأت أن الكويت .. كانت قد تأسست عام 1613م.**

وهناك رحالة إسمه " مرتضي بن علوان " .. ذكر عام 1709 ميلادية .. أنهم دخلوا بلدا يقال لها الكويت ..

كان " آل صباح " يتولي الحكم في الكويت .. وساعدالعثمانيين عام 1871 .. بقوات بحرية وبرية .. في حملاتهم .. مما جعل العثمانيين يتعهدون له باستمرار الكويت ذاتية الحكم .. حتي أن الأتراك وقتها لم يحصلوا من الكويت الضرائب المالية ..

أي أن الكويت لم تكن يوما .. جزءا من الأراضي العراقية ..

وما أضاف رعبا وهلعا .. إلي هذا اليوم الكئيب .. الحزين .. هو أن أحد الرجال الحاضرين لهذا التجمع .. من المؤكد أنه جندي عراقي .. وقد اندس بين الكويتيين .. ما لبث أن أخرج مسدسه من طيات الزي المدني الذي يرتديه .. وصوبه إلي صدر سمير .. وأطلق عليه طلقتين .. فسقط أرضا بين دهشة الجميع .. وفزعهم .. وتركه غارقا في دمائه .. واختفي .. وهو يصيح فيه بأفظع الألفاظ .. والسباب البذيء يمزق الهواء ..

" ايش حجة تتكلم في موضوع ما يخصك يا ابن .... " ..

وفي لحظات .. سكت الكلام ..

وسيطر علي المجتمعين كل المشاعر المتناقضة .. من خوف من الواقع الجديد .. ورعب من هذه البربرية .. وتعاطف مع هذه الضحية .. وانهيار نفسي .. ورغبة البعض في تقديم المساعدة للمصاب الذي سقط للتو .. غارقا في دمائه .. مروعين ..

ورغبة في الهرب .. كالفئران المروعة .. مرتعدة قلوبهم ..

أو امتلأت عيونهم ذعر عميق .. كحيوان أسره الأطفال ..

وسقط سمير .. لأنه قال رأيه فيما يحدث..

وهكذا وجد الناس أنفسهم في الشوارع .. علي مسمع .. ومرأي .. من الموت المخيف .. والإرهاب الذي لا يعرف رحمة ..

ولا أسرع .. ولا أسهل من القتل .. وسفك الدماء ..

وانهار أسامة ..

وشلت أفكار مدحت ..

وضاق صدره .. وبدأت تلوح في عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عما حوله .. واضطرب اضطرابا كاد يذهب بعقله ..

كيف يتصرف .. وماذا يفعل ..

وارتمي علي سمير .. وراح يجس نبضه ..

ولم يعد يعرف .. أيفرح .. أم يبكي .. إنه لا زال حيا ..

وفي هيستريا .. صاح :

- **هيا يا أسامة .. ساعدني في نقله فورا إلي المستشفي .. فقلبه ينبض .. ولكن النبض ضعيف ..**

وحاول أسامة وبعض الشباب المتواجدين أن يوقفوا النزيف .. دون جدوي فسارعوا لنقله إلي أقرب مستشفي ..

وكانت المستشفي كخلية نحل ..

سيارات الإسعاف لا تتوقف عن نقل الضحايا .. والمصابين .. وحتي القتلي .. الذين انتشروا في الشوارع ..

وكل الأطباء .. وطاقم الممرضات والعاملين بالمستشفي .. وحتي الذين جاءوا متبرعين .. من الرجال والنساء .. يروحون ويجيئون في حركة دائبة مستمرة .. لتقديم العلاج والمساعدات الطبية .. للأعداد المتزايدة من الجرحي .. والمصابين .. الذين امتلأت بهم الأسرة .. وحتي أرضية المستشفي ..

وغطت الدماء كل مكان ..

وقد جاء الكثيرون للتبرع بدمائهم .. طواعية .. مختارون ..

وتسمع الصياح .. وقد اختلط مع الآهات والتأوهات .. مع أصوات الإستغاثات .. مع البكاء ..

وكل هذا .. مع رؤية الشباب .. والنساء .. والأطفال .. وقد امتلأت بهم أرضية الطرقات .. في مشهد عبثي .. صادم .. يبعث علي الجنون ..

وانقضت أكثر من ساعتين .. ومحاولات الإنقاذ لا زالت مستمرة ..

وكان ما نزف من الدماء .. ما لا يمكن تعويضه ..

وأعلن الأطباء الخبر المؤلم ..

فقد فارق سمير الحياة .. وصعدت روحه إلي بارئها ..

لقد قتل بدم بارد ..

ولم يستطع أحد أن يفعل شيئا ..

وغادرا المستشفي .. لا يلويان إلي شيء ..

ولا يعرف أحدهما ماذا يفعل ..

وماذا يقول لعفاف .. زوجة سمير .. وكيف ينقل هذا الخبر الرهيب .. لإبن سمير .. الذي لم يجاوز عمره الثامنة ؟! ..

ومضي مدحت إلي بيته ..

وكانت الدقائق شديدة الثقل .. في هذه الظروف العصيبة ..

وامتلأت أذنيه بأصوات دانات المدافع .. وطلقات الرصاص ..

ونداءات الإستغاثة .. وأنين المصابين ..

و مشاهد رهيبة .. لعمارات تتحول فجأة إلي ركام وأطلال ..

وأناس .. تفصل بين حياتهم وموتهم لحظة ..

وصدفة .. تجعل طلقة طائشة .. تستقر في جسد أحدهم .. بعد أن ساقه قدره .. إلي هذا المكان بالذات .. في هذه اللحظة بالذات ..

كان يشق سبيله إلي البيت تقوده قدماه .. بينما تاه فكره .. وشرد ذهنه ..

وأخبر ندي بهذا الخبر الحزين .. الذي صدمها .. وأصابها بالغثيان ..

وارتمت متهالكة .. باكية .. وضربت بكفها علي قلبها .. وهي تصيح :

- **يا نهار أسود ..سمير ؟! ..قتلوه ؟! .. يا لها من مصيبة .. ما بعدها مصيبة .. علي عفاف .. وجمال .. إنه لم يزل طفلا .. لم يبلغ عامه الثامن .. كيف يتحملان هذا الخبر .. ستكون فاجعة ..**

وبكي مدحت بمرارة .. وبكت ندي .. كما لم تبك من قبل ..

وتساءلت .. والبكاء يبلل كلماتها .. بدموع هي أقرب إلي الدماء ..

- **والآن .. كيف نحمل إليها هذا الخبر الأسود ؟! ..**
- **لا أدري كيف تتلقاه ؟! ..**
- **وماذا نفعل في .. جثمانه .. وكيف ننقلها إلي مصر ؟!**
- **لقد أغلقت جميع السفارات .. لا يوجد الآن أي سفارة .. لأي دولة في الكويت !! .. فكيف ننقله ..**
- **يا للهول !! ..**
- **علينا أن نترك الكويت فورا .. الآن ..**
- **كيف تقول ذلك ؟! ..**
- **العراقيون .. إنهم يداهمون كل البيوت .. يسرقون .. يقتلون .. يحرقون كل شيء ..**
- **لقد أرعبتني .. هيا إلي عفاف .. ولنغادر الآن إلي مصر ..**
- **هيا .. لا وقت لدينا ..**

ومضي مدحت و ندي .. قاصدين شقة سمير ..

كان مدحت يحاول أن يحث خطاه . . فالوقت ينفذ ..

وعندما اقترب من الشقة .. وجد أن قدميه قد تثاقلتا .. إنه لا يعرف كيف يواجه عفاف .. بأسوأ أخبار يمكن أن ينقلها لأحد ..

وعاد مدحت بذاكرته إلي الوراء .. مندهشا ..

كيف يكون هو من حمل رسالة سمير إلي عفاف .. لكي ينقل لها رغبته في الزواج بها ..

واليوم .. يجد مدحت نفسه مضطرا لأن يحمل إليها نبأ مقتل سمير .. بدم بارد .. في هذا الحادث المروع ..

فأي صدفة هذه التي تضع مدحت في طريق عفاف .. في أهم أحداث حياتها !! .. دخول سمير في حياتها زوجا .. ومن ثم .. خروجه من حياتها مقتولا !! .. وبقدر ما كانت المهمة الأولي شاقة .. فإن المهمة الثانية رهيبة ..

ويا له من قدر ..

ويا لها من صدفة ..

وضغط الجرس .. وفتحت عفاف ..

ليس خيرا ..

هذا ما أحست به ..

وسرعان ما خامرها شعور بالقلق .. بل شعور بالرعب ..

فقد كان هذا ما شعرت به عفاف .. فور وقوفها علي باب الشقة .. ناظرة إلي مدحت .. وندي ..

إنقبض قلبها .. وتسارعت دقاته .. وزاغ بصرها ..

إنها لا تعرف علي من تثبت نظرات عينيها ..

إنهما باكيان !! ..

إنهما في حالة انهيار!! ..

وكان هذا كله في لحظات خاطفة ..

- **إدخلا ..**

قالت ذلك .. والرعب يسيطر عليها ..

أي مجهول أسود .. سوف يخبراني به ؟! ..

وأغلقت الباب ..

- **ماذا وراء هذه الدموع التي أراها .. إنني مرتعبة .. أكاد أسقط مغشيا علي ؟! .. ما خطبكما ؟! ..**

قالت هذا في حيرة .. ورعب ..

وألقي مدحت جسده علي أقرب مقعد .. وهكذا فعلت ندي ..

- **إجلسي يا عفاف ..**

قال مدحت ذلك .. وهو يبحث عن الكلمات ..

وسيطر الرعب علي عفاف .. سيطرة تامة ..

تهالكت علي المقعد .. وتساءلت .. بكلمات هي أقرب إلي الصياح :

- **سمير !! .. أين سمير ؟! .. لقد خرجتما معا ..**

وأحاطت ندي وجهها براحتيها .. وأجهشت بالبكاء ..

وانفجر مدحت باكيا .. إن مصيبته مضاعفة ..

أولا .. هذا الصديق العزيز الذي قتل بلا سبب أمام عينيه ..

وثانيا .. عفاف .. التي ربما تسقط قتيلة هي الأخري .. لهذا الخبر المشئوم .. أو تذهب في إغماءة .. تتيه معها في غيبوبة ..

ولم تمهله عفاف وقتا ليبكي .. أويفكر ..

قالت في انهيار كامل ..

- **إنه سمير .. أخبرني يا مدحت .. ماذا حدث لسمير ؟! ..**

وكان عليه أن يقول شيئا ..

قال في كلمات حاول جاهدا أن يستدعيها ..

- **لقد .. لقد .. قتل ..... قتلوه .. قتله أحد العرا .....**

وقبل أن يكمل كلماته كانت الصدمة قد أفقدتها الوعي .. وسقطت مغشيا عليها ..

وحدث ما كان يخشاه ..

نهضت ندي وارتمت عليها لإفاقتها ..

وجاء مدحت بالعطر ينثره علي وجهها ..

وأخذت ندي تدلك قلبها .. وصدرها ..

كان جسدها يرتعد بالكامل ..

والجميع يبكي ..

وكان الطفل نائما .. في حجرته .. لا يدري بما حوله ..

وعاد إليها الوعي .. بين الألم .. والبكاء .. والهلع .. والحزن ..

قالت .. وقد ملأت الدموع وجهها .. وهي تسمع دقات قلبها .. كالطبول في وداع الموتي ..

وكأن قنبلة منزوعة الصاعق قد انفجرت في قلبها ..

- **خذوني إلي سمير .. أين هو ..أريد أن أراه ..**

وروي لها مدحت ما حدث ..

إن جثمانه الآن بالمستشفي ..

ولا سبيل إلي نقلها إلي مصر ..

إن كل السفارات مغلقة ..

وأخبرها بما يفعله العراقيون الآن ..

قد يأتون في أي لحظة ..

قد يفعلون لهم الأسوأ ..

عليهم أن يغادروا في التو .. إلي مصر ..

فالصراخ يأتي من كل البيوت الآن ..

ولم تستطع عفاف أن تحرك جسدها .. لقد أصاب الخبر المشئوم كل جسدها بالشلل ..

وظلت تبكي بصوت مسموع ..

وأخذ مدحت وندي يخففان من صدمتها .. بكلمات الإيمان بالقضاء والقدر .. والصبر .. وأن لكل أجل كتاب .. وأن " اللي انكتب علي الجبين .. لازم تشوفه العين " .. وأن الله سوف يعوضها خيرا في إبنها جمال ..

كانت تستمع إليهم .. ولا تسمعهم ..

وكانت تنظر إليهم .. ولا تراهم ..

وفي عينيها نظرة لا يستطيع أحد وصفها .. إلا أن الإستسلام كان أقرب إليها .. فكانت نظرة مستسلمة .. ذابلة .. في عيون حمراء .. من كثرة البكاء .. حتي أن الناظر إلي دموعها يخالها دماء ..

وظلوا هكذا .. بين الألم .. والبكاء .. لساعات ..

وسمعوا صوتها .. قادما من بين راحتيها .. وقد اختفي وجهها بينهما .. صوتا ضعيفا .. واهنا ..

كانت تقول .. وكأنها تناجي ربها ..

- **كله بأمر الله .. علينا أن ننصاع لأمر الله .. اللهم ألهمني الصبر يا رب ..**

يا رب الصبر .. الصبر.. الصبر ..

وغرقت عفاف في حزن مطلق .. وقد زلزل قلبها زلزاله .. من فرط الألم .. بل من لهيب الجحيم .. وعذاب القنوط ..

وراحت تقاتل أفكارها .. وتصارعها .. حتي كادت أن تجن .. ويذهب عقلها .. أو يكف قلبها عن الخفقان في سكون أبدي .. كما سكت قلب سمير عن الخفقان ..إلي الأبد ..

ولماذا تبقي هي علي قيد الحياة ؟! ..

كل شيء بأعماقها يتحطم .. وانخرطت مرة أخري .. في البكاء .. والنشيج ..

أي يوم حزين هذا .. الذي جعل من حياتي عذابا متصلا .. وشقاء مقيما !! .. وأي طعنة نجلاء .. تلك التي مزقت قلبي .. وسحقت روحي ..

وأسلمت إلي الحزن نفسي .. وأغرقت في اليأس عقلي وفكري ..

اللهم ألهمني الصبر يا رب ..

يا رب الصبر .. الصبر.. الصبر ..

ومن ثم تعود إلي البكاء .. البكاء المرير ..

لقد اختفي سمير .. إلي الأبد .. ولن يعود ..

لقد ذهبت أيام السعادة .. إختفت إلي الأبد .. ولن تعود .. وسوف أغرق في هاوية الألم ..

وارتعدت أوصالها ..

ولم يذق أحد منهم طعم السكينة أو الهدوء .. أو الطمأنينة .. هذا اليوم ..

ويا لشقاء عفاف .. ويا لحزنها .. طوال ساعات هذا اليوم ..

ولشدة توتره .. أخذ مدحت يذرع الغرفة جيئة .. وذهابا .. إلا أن قدميه لم تعودا قادرتين علي حمله .. فعاود الجلوس .. يكاد يموت رعبا ..

ومع خطوات إظلام الليل .. كانت خطوات العراقيون في الشوارع .. تحمل الرعب والفزع إلي قلوب الجميع ..

وكان الوقت يمضي كئيبا .. متثاقلا .. ثانية بثانية .. وكانت الثواني تقطر.. قطرة بقطرة ..

ولاحت وجوههم تعلوها صفرة الموت .. جاحظة عيونهم .. مرتجفة أوصالهم ..هاذية ألسنتهم ..يذوبون خوفا .. ورعبا ..

وتعلقت العيون علي الباب .. بهلع شديد ..

كان كل منهم يحمل موته في وجهه ..

وكل منهم يتحسس نفسه .. لكي يتأكد أنه لا زال حيا !! ..

كان كل منهم .. من شدة الخوف والتوتر .. يتخيل أن الباب قد أزيل من الوجود بعنف .. ويندفع العراقيون إلي الداخل .. بعيون تتطاير شررا ..

وأن فوهات البنادق في أيدي العراقيين مصوبة إلي أجسادهم ..

وعاش الجميع لحظات إعدامهم ..!! ..

وفكر مدحت في داخله ..

" ألا ليت هؤلاء الأقذار يأتون الآن .. فيوجهوا فوهات بنادقهم إلي قلوبنا .. فيقتلوننا في التو .. فإن ما نحن فيه الآن لهو أقسي من الموت .. وإن انتظار الموت أصعب من وقوعه .. ولكن .. لا .. لا قدر الله .. فإنهم إذ يقتلوننا نحن الرجال .. وربما الأطفال .. فماذا يفعلون بعدها بنسائنا ؟! .. فسوف يفعلون بأجسادهن ما يحلو لهم .."

فتجحظ عيناه ويرتعد جسده .. ويعلو قلبه ويهبط .. رعبا وهلعا ..

وتملكهم الإعياء ..

ففي أي لحظة .. قد يندفع هذا الباب مكسورا .. مهشما ..

ويندفع من بين أطلاله .. العراقيون ..

حاملين الرعب .. والبربرية .. إلي قلوب الجميع ..

وجمال ؟! ..

لا يريد أحد له أن يرتعب ..

ومن أعماق اليأس .. انتزع مدحت نفسه .. وقال.. حزينا .. مرعوبا :

هيا جميعا .. فلدينا الوقت الطويل لنحزن .. في الطريق .. حتي نصل إلي مصر ..

ثم وجه حديثه لعفاف .. قال باكيا :

- لسنا أقل منك حزنا يا عفاف .. ولكن علينا أن نحميك .. ونحمي جمال .. ونحمي أنفسنا .. ولنأخذ ما خف حمله .. من أموال وملابس .. فهيا .. لا نريد أن يداهمنا الوقت .. فنتعرض للفزع أو يتعرض أحدنا لمكروه أخر .. إنه جحيم .. ينذر بالهلاك المبين .. ولن ينعم أحد الليلة برقاد آمن .. بل ستكون ليلة شيطانية .. تزلزل أفئدة الكويتيين زلزالا شديدا .. بين الحزن والتعزي .. والأسي والتأسي ..

فأحضري جمال .. وأحضري ما سوف تأخذينه معك .. ومن ثم نتجه إلي أصدقاءنا موريس وسامي .. والأخرين .. ونسير جميعا بسياراتنا .. حتي يؤمن بعضنا البعض .. في طريق العودة إلي مصر ..

وكان مدحت قد ترك إبنه مجدي وإبنته مي مع صديقه سامي .. الذي يعد نفسه وأسرته للسفر ..

وارتعشت أجسام الجميع .. لسماع طرقا علي الباب .. لقد كان الطرق خفيفا .. إلا أن الخوف كاد يقتلهم .. رغم أنهم يعلمون أن العراقيين إذا وصلوا إلي هنا .. فلن يطرقوا الباب .. بل سوف يدمرونه بهمجية .. وبربرية .. ووحشية ..

وفتح مدحت الباب ..

كان موريس وسامي قد وصلوا يستعجلونهم .. بينما انتظر الباقون في السيارات .. استعدادا للرحيل ..

وقال موريس بنبرة خوف وهلع .. وبعد أن قدم العزاء لعفاف :

إن الأقذار يتهجمون علي المنازل .. يغتصبون النساء .. ويقتلون الرجال .. بلا هوادة و لا رحمة ..

وإن كل دقيقة تمر هنا .. تحمل خطرا محدقا ..

وعليكم الإستعجال ..

وطلبت ندي من عفاف أن تستقل سيارة مدحت .. حتي يطمئنوا عليها هي وجمال .. إلا أنها فضلت أن تستقل سيارتها .. علي الأقل حتي يستطيعوا أن يصحبوا معهم قدر الإمكان من الأغراض .. وأيضا المأكولات .. والماء .. لأن الطريق طويل ..

وانطلقت السيارات .. السيارة تلو السيارة .. تنهب الأرض نهبا .. هربا من موت محقق .. أو عذاب مقيم ..

هربا من مدينة الرعب .. والهلع ..

انطلقت القافلة تخوض في بحر الظلمات .. يغلفها الخوف والفزع ..

والكل يراوده حلم واحد .. هو أن يغمض عينيه .. ويفتحهما .. فإذا به في مصر .. آمن .. بأسرته ..

وعلي جانبي الطرق تراصت أشباح العمارات .. والأنقاض .. والأطلال .. كان هناك بعض البنايات من شدة القذف قد أصبحت تحوي حديدا مسلحا فقط .. فبدت و كأنها هيكل عظمي لجثة مات صاحبها منذ سنوات .. فتحللت .. ولم يبق منها إلا الهيكل العظمي !! ..

وانتشرت في الهواء رائحة الموت .. التي انبعثت من الجثث التي تكدست أكواما .. في الشوارع !! .. وتحت الأنقاض ..

ولم يكن يمزق السكون من حولهم .. إلا طلقات المدافع .. وصفارات الدانات التي تهوي مدوية .. مدمرة ..محدثة انفجارات تصم الآذان ..

وأصوات منبهات السيارات المرتعبة .. وضجيجها .. الذي يعكس ارتباك .. واضطراب السائقين .. وكأنهم يودون الإسراع في عبور بوابة الجحيم .. إلي أرض الطمأنينة .. والسكينة ..

وكان كل قائد سيارة يعتقد أن هذه الدانة التي ملأ الفضاء صفيرها .. سوف تهوي فوق سيارته .. فتحطمها .. وتمزقها .. وتحمل أشلاءها إلي تحت الأرض .. لتستقر في حفرة يصل قطرها إلي بضعة أمتار ..

ويحلق الخوف فوق القلوب الواجفة .. كصقر جائع ينقض علي صيده انقضاضا لا يمنحه حتي الوقت للذعر والهلع ..

ويظل يتشهد .. ويحوقل .. وقد انقبض صدره .. وخفق قلبه .. وأخذ يدعو ربه أن يحفظه .. ويحفظ أسرته .. وأطفاله ..

حتي إذا انتهت الدانة إلي مكان آخر في الشارع .. وتناهي إليه صوت انفجارها .. معلنا سقوطها بعيدا عنه .. حمد الله .. وشكره ..

ويبدأ العد التنازلي .. إنتظارا للدانة التالية !! ..

قد تكون لحظات قصار .. ولكن زمانها الثقيل يقاس بتردد الأنفاس .. وخفقان القلوب ..

ويشتد عنف إطلاق الدانات أحيانا .. ويخف في أحيان أخري ..

ولا أحد يستطيع أن يجزم ..

هل كانت الدانة الأخيرة هي أخر القذائف .. أم أن هناك قذائف أخري ..

ومتي تكون الأخيرة ؟! ..

ومتي ينتهي القذف؟! ..

والأطفال يموتون خوفا وهلعا .. مع كل دانة ..

كيف يخرج طفل متعافيا من مأساة كهذه ..

بل سوف يظل جزء منه علي الدوام حبيس الصرخات .. والدانات .. والقذائف .. والموت .. والدماء ..

وخلق كثيرون يهرولون في الشوارع .. لا يلوون إلي شيء .. خوفا .. وفزعا .. واستغاثات النساء والأطفال .. وقد لفهم الظلام بعباءته الثقيلة الكثيفة ..بدت وكأنها آتية من باطن الأرض .. لأشباح .. قتلها الخوف .. والفزع .. قبل أن تصل إلي أجسادهم .. الطلقات والرصاص ..

وقد اعتبر الجميع أن يوم مولده الجديد .. هو يوم أن تطأ قدماه .. تراب مصر .. في سلام ..

آملين أن يطوي النسيان .. ذكريات هذه الليلة المفترسة .. الجهنمية ..

الفصل العاشر

ندي والمرض

الإنسان بلا مباديء كالساعة بلا عقارب

***

كان

مدحت قبل أن يتزوج قد أوفي بكل وعوده إلي أسرته ..

فقد استطاع والده .. ووالدته .. أن يؤديا شعائر الحج .. علي نفقته ..

وأصبحت الأم ترتدي الجميل .. والثمين من الملابس ..

وطبعا لم ينس الوالد .. في شراء ما يرغب فيه من ملابس قيمة ..

وكان ربه قد عوضه عن مساعدة أسرته خيرا ..

فرزقه .. وأوسع له في العطاء .. والرزق ..

ولما كان مدحت وأصدقاؤه .. يميلون إلي الإقامة في الإسكندرية .. فقد جمعوا من رأس المال ما يمكنهم من شراء قطعة أرض في الإسكندرية ..

وأقاموا عليها عمارة .. واتخذ كل منهم بها شقة .. كان تصميم بنائها علي نظام حديث .. مريح .. واسع ..

وكان من نصيب مدحت شقة في الطابق الثالث .. ومن فوقه .. في الطابق الرابع .. كانت شقة سمير ..

وكان التواصل .. والصداقة .. والتقارب .. والألفة .. التي ربطت بين أسرة مدحت وندي .. وأسرة سمير وعفاف .. لها طابع خاص .. يكاد يكون أكثر منها بين الأسر الأخري ..

وهو ما شجع مدحت وسمير .. أثناء وجودهم في الكويت .. أن يتفقوا علي تأسيس شركة لتصنيع وبيع الموبيليا .. والأثاث المنزلي ..

واتفقا علي كل شيء .. علي أن يكون التنفيذ في الإسكندرية .. بعد انتهاء إقامتهم في الكويت .. عندما يقررون العودة النهائية .. إلي مصر ..

وعلي الرغم أن الوفاة لم تمهل سمير حتي تري هذه الشركة النور .. وتخرج إلي الحياة .. فإن زوجته عفاف أكملت ما لم يتمه زوجها الراحل .. وتم تأسيس الشركة .. وخرجت منتجاتها إلي النور .. وعرضت في المعارض التي تم افتتاحها .. في شوارع هامة من شوارع الإسكندرية .. وأتت الشركة ثمارها .. وبارك الله فيها .. وحققت عائدا جيدا .. واستقر مدحت وأسرته في الإسكندرية .. بينما كان يتردد علي الفيوم لزيارة أمه وأسرته الكبيرة علي فترات متقاربة .. خاصة وقد استقروا جميعا في الفيوم بأسرهم .. فؤاد .. وممدوح .. وطارق ..وتحسنت مستويات المعيشة ..

واستقرت عفاف مع إبنها جمال .. في الطابق الرابع ..

وكان الطابق الثاني من نصيب أسامه وزوجته ليلي ..

وكان أسامة قد أسس شركة لتجارة المواد الغذائية .. أيضا بالإسكندرية .. وأحب جمال .. صحبة مجدي ومي .. وتآلفوا ..

وكانت أجمل الأوقات بالنسبة لعفاف وندي .. هي التي تجمعهما معا .. وتوطدت أواصر الصداقة والتآلف بينهما ..

وكان مدحت سعيدا بحياته في الإسكندرية .. بصفة عامة .. وأحب بصفة خاصة هذه الحياة الإجتماعية التي تربط بين الأسرتين ..

كما انتهت عفاف من رسالة الدكتوراة ..

وبعد حصولها علي الدكتوراة .. كان لديها فرصة للتعاقد مع جامعة القاهرة للعمل ضمن هيئة التدريس .. إلا أنه لديها الوقت للتفكير .. واتخاذ القرار وسافرت عفاف وابنها جمال .. مع مدحت ومجدي ومي .. إلي الفيوم .. حيث تم في جلسة أسرية .. وفرح عائلي محدود .. تم إعلان خطوبة أحمد .. ابن أخيه ممدوح .. وقد بلغ العشرين من العمر .. وهو لا زال طالب بكلية الهندسة .. جامعة القاهرة .. أعلنت خطبته لإبنة هند .. لي لي .. وهي في نفس عمره .. وتدرس الطب .. جامعة القاهرة ..

وكان يوما رائعا .. أجمل ما فيه .. العروسان .. اللذان جددا شباب العائلة .. وقد ولت أيام العسر ..

وكان من أجمل أيام الأم .. والأب .. حيث جاء وقت الحصاد .. وها هما يحصدان الخير .. بعد طول صبر .. ومعاناة ..

وكانت ندي سعيدة جدا بالأسرة .. وخاصة هند وسميحة .. وأولادهما .. فقد توطدت العلاقة بينهم جميعا .. وسعدوا بهذه الصداقة .. بل الحب .. الذي يجمعهم جميعا .. وأيضا عفاف ..

وكان انطباع عفاف .. وندي .. عن هند وسميحة .. أنهما غاية في الروعة .. والحسن .. وطيبة المعاشرة .. وحسن التعامل ..

كان هذا ما تحدثت به ندي مع عفاف .. أثناء العودة من الفيوم .. في الطريق إلي الإسكندرية ..

وفي طريق العودة من الفيوم .. وكان يوما من أواخر شهر ديسمبر .. و الجو مساء يشتد برودة .. في طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي .. الذي شهد صقيعا .. لم تشهده الإسكندرية إلا نادرا ..

فأصيبت ندي بالإنفلونزا ..

وكما يفعل الكثيرون .. لم تكن ندي تعبأ بأعراض الإنفلونزا .. من سعال وصداع ووجع الرأس ..

وتناولت الأقراص المعتادة .. والتي تحتفظ بها في درج الأدوية .. تحسبا لحدوث مثل هذه الأعراض .. لها أو لزوجها .. أو لأولادها .. أو حتي لإحدي جاراتها ..

ولم تكن هذه الأعراض لتؤثر في أعمالها .. فهي تزاول نشاطها المعتاد والمعهود .. غير آبهة لمرض ..

وفي صباح اليوم التالي كان الصداع قد اشتد عليها .. حتي أنها استطاعت بالكاد أن تعد طعام الإفطار لزوجها .. وللأولاد ..

وسألها مدحت عندما رأي أثر الصداع علي وجهها .. وعلي حركتها المتثاقلة ..

- **ألم تتناولي أقراص الأسبرين ؟! .. لم أكن أتوقع أن يستمر الصداع هكذا ..**

فقالت للتخفيف من خوفه عليها .. ولكي تجعله يذهب إلي عمله مطمئنا :

- **لا تقلق يا حبيبي .. إنه صداع لن يدوم .. وسوف ينتهي .. فاذهب إلي عملك مطمئن البال .. بغير قلق ..**

قبلها حانيا في جبهتها .. ومع ابتسامته التي طالما ارتسمت علي وجهه .. قال :

- **إذا ساءت الأحوال .. لا قدر الله .. إتصلي بي .. أحضر إليك في التو .. وكوني مستعدة للذهاب إلي الدكتور ..**

ابتسمت .. وقالت مودعة :

- **لن تسوء الأحوال بإذن الله .. فاذهب مع سلامة الله ..**

إلا أن حالة المرض اشتدت عليها في اليوم التالي ..

كانت عفاف تجلس معها في الصالون تتجاذبان أطراف الحديث .. وجمال ومجدي ومي .. يلعبون ويلهون في الردهة .. أويشاهدون التلفاز ..

وبدأت تتناوب ندي قشعريرة .. وبسرعة شملتها رعشة اصطكت لها أسنانها ..

قالت ندي بصوت ضعيف متقطع .. يخرج من بين شفاة مرتعشة .. بينما كانت تضم إليها ثيابها لتدفئ جسدها المرتعش ..

- **ما هذه الرعشة المفاجأة يا عفاف .. إن أسناني تصطك .. وأشعر بوهن مفاجيء ! ..**

ولم تكن الرعشة والقشعريرة في جسد ندي خافية علي عفاف .. وهو ما جعلها تنهض مسرعة إلي ندي تضمها بين ذراعيها .. وتحاول تدفئتها .. وهي تقول .. والقلق قد بدا عليها .. فجاءت كلماتها مضطربة :

- **يا له من تغيير مفاجيء .. دعيني ألقي عليك بطانية .. وألف جسدك بها جيدا .. وسوف أخبرمدحت فورا .. ولنذهب بك إلي الدكتور ..**

وصحبتها .. ولا زالت تحتضنها خشية أن تخذلها قدماها .. فلم تعودا قادرتان علي حملها .. ثم تأبطت ذراعها .. وقصدتا غرفة النوم ..

واستلقت علي الفراش في إعياء شديد ..

وطلب منها الدكتور أن تأخذ قسطا من الراحة وملازمة الفراش .. علي أن يراها بعد أسبوع ..

واشتدت الحالة .. وتدهورت صحتها بسرعة مخيفة ..

فهزل جسدها .. وشحب لونها .. فبدت وكأنها يلازمها المرض منذ شهور .. شاحبة شحوب الموت ..

وقد فقدت شهيتها للطعام ..

ولم تكن عفاف تتركها .. إلا وقت النوم .. فكانت إذا أصبح الصباح .. تأتي مع جمال إبنها .. بعد أن يتناول الإفطار .. ويرتدي الزي المدرسي .. فتعد الإفطار لمدحت ومجدي ومي .. فيغادر الأولاد الثلاثة إلي مدرستهم ..

ويذهب مدحت إلي عمله .. وترعي عفاف شئون البيت .. كما تعد طعام الغداء ..

وهكذا كانت ندي تطمئن إلي أن شئون بيتها وزوجها وأولادها بخير ..

وأن صديقتها عفاف لن تأل جهدا في هذا السبيل .. رغم عدم تقصير أختها ليلي في رعايتها والسهر علي راحتها ..

وأيضا كان مدحت يشعر أن زوجته في رعاية إنسانة تبذل قصاري جهدها لمساعدة صديقتها .. مخلصة كل الإخلاص .. وفية كل الوفاء ..

واشتدت الحمي .. ومع نقص الشهية نقص وزنها .. ونحل جسدها ..

وازدادت حالات التعرق الليلي ..

وجلس مدحت إلي جوارها علي طرف الفراش .. وقد استقرت قدماه علي الأرض .. وأخذ راحتها بين راحتيه .. وراح يقبلها في حنان .. ويدلكها بلطف ..

وكانت عفاف تحتل الجانب الآخر من الفراش .. إلي جوارها ..

قالت عفاف في نفسها .. مشفقة علي ندي .. وقد حارت في سبب هذا التغيير السريع في جسدها :

" لقد سارت كالخيال .. كالشبح الهزيل الأصفر .. "

" وهل تفعل الإنفلونزا هذا ؟! .."

وقد صدق حدس عفاف ..

فهذا وجه ندي .. وقد شحب .. شحوب الموت .. وبه عينان غائرتان في عظامه .. وقد أحاطت بهما هالتان سوداوان ..

وقالت لمدحت .. في إشفاق :

- **لم أكن أعرف أن جسدها ضعيف هكذا ..**

قال مدحت .. وهو لم يزل يدلك راحتها في لطف :

- **في الحقيقة يا عفاف .. أنني لم أطمئن لدقة الكشف والتشخيص الذي أجراه الدكتور..**

ولذا فقد أستدعيت لها طبيبا أخر اليوم .. وهو أخصائي في الأمراض الصدرية .. لما شاهدته من نوبات سعال متكررة ..

فلا أعتقد أن الموضوع هو نوبة برد .. أو انفلونزا ..

ولعله يكون أكثر خبرة .. وأقرب إلي معرفة الحالة .. بالتشخيص الجيد ..

فقالت ندي .. بصوت جاء ضعيفا واهنا :

- **لا تبالغا ! .. إنه عارض من أعراض البرد .. وسوف يزول ..!**

بينما كانت تتحرك في بطء وإعياء ..

فقال مدحت .. يطمئنها :

- **هو ذلك إن شاء الله .. ولكن لم لا نطمئن .. ونجعل دكتورا أخر**

يصف لنا حالتك .. وقد يكون لديه دواء أفضل ؟! ..

وقالت عفاف .. مداعبة :

- **هنيئا لك بها يا عم مدحت .. إنها لا تريدك أن تسرف .. وتسعي جاهدة لأن توفر نقودك .. فلا تنفقها علي الأطباء .. حتي ولو كانت هي المريضة !!**

وضحكوا .. بينما جاءت ضحكة ندي مكتومة .. خافتة ..

ومع ضحكتها المكتومة .. تعرضت ندي لنوبة قاسية من السعال .. حتي نال السعال من حنجرتها .. وأبح صوتها ..

وقبل أن يأتي المساء .. موعد الدكتور .. كانت ندي تسعل سعالا شديدا .. يهتز له جسدها الهزيل .. وتدمع عيناها من شدته ..

وارتعب مدحت .. وتجمد الدم في عروقه .. وانتفض مذعورا ..

وخفق قلب عفاف .. خفقة انخلع لها صدرها من مكانه ..

فقد لاحظ كلاهما الدم .. في المنديل الذي تسعل فيه ندي ..

كما بدأ صدرها يعلو وينخفض ..

وجاءت أنفاسها مضطربة ..

وتنفست بصعوبة ..

ولشدة سعالها فقد احمرت عيناها ..

كما انتفضت عفاف في هلع ..

- **يا إلهي .. الحالة لا تبشر بالخير يا مدحت .. بل تسوء .. عليك استعجال الطبيب ..**

قالت عفاف ذلك وقد سيطر عليها خوف قاتل ..

وما أن قالت ذلك حتي انتهي إلي الآذان صوت جرس باب الشقة ..

فاتجه مدحت لتوه إلي الباب .. قائلا .. بعد أن نظر من خلال عدسة الباب :

- **الحمد لله .. إنه الطبيب .. لقد جاء في موعده ..**

وسأل الطبيب عن أسباب الشكوي ..

- **فأخبرته عفاف عن الحمي .. والقشعريرة .. والسعال الذي أبح صوتها .. وأنها قد بصقت دما ! ..**

كما لم تنس أن تخبره عن نقص الوزن .. وانعدام الشهية .. والتعرق الليلي .. فقد خبرت حالتها جيدا ..

وضع الطبيب السماعة علي أذنه .. وأخذ ينقر بالسبابة علي صدر ندي .. وظهرها .. وكل من رئتيها .. ويعيد النقر علي الرئة اليمني .. ثم علي الرئة اليسري .. ثم يعود للنقر علي الرئة اليمني ..

وبعد إجراء الكشف .. جلس الطبيب .. وأخرج منديلا ورقيا من جيب سرواله .. وبدأ يمسح به وجهه .. وكأنه يجفف عرقا بلل وجهه .. رغم البرد ..

وأخذ يجول بنظراته بين عيني عفاف .. وعيني مدحت .. وكأنه يأخذ وقتا كافيا للبحث عن الكلمات ..

ومن ثم قال بهدوء :

- **لا شك أن المصارحة مطلوبة .. حتي يتهيأ المريض للعلاج .. ويقبل بجدية علي تناول الأدوية باهتمام .. دون تفريط ..**

فإذا ما تم تناول العلاج كماهو مطلوب .. فالشفاء بإذن الله مأمول ..

وألجم الخوف والذعر لسان عفاف .. فلازمت الصمت .. إلا أنها .. وإن استطاعت السيطرة علي لسانها .. فلم يقل شيئا .. إلا أنها لم تستطع السيطرة علي قلبها الذي كاد أن ينخلع من سرعة ضرباته .. ومن الخفقان المضطرب ..

فوقفت تنتظر كلمات الطبيب لتشخيص الحالة .. كمن يقف أمام هيئة المحكمة .. ينتظر النطق بالحكم ..

وكادت الأرض تميد بمدحت .. والتمعت عيناه ذعرا .. وتاهت منه الكلمات .. وشردت منه الأفكار ..

وأما ندي .. فقد أسلمت جسدها للفراش .. وأسلمت روحها ونفسها لله ..
فهو خالقها .. وهو شافيها .. مهما كان المرض ..
وأخيرا جاء النطق بالحكم ..
وانخلعت القلوب ..
قال الطبيب :

- **حسب ظني .. فإنني أشك أن الرئة اليمني .. بها مباديء سل !! ..**

ولو أن صاعقة سقطت في الحجرة .. لما أحدثت هذا الرعب في النفوس ..
كما أحدث اسم المرض .. فور أن نطق به لسان الطبيب ..
وفي محاولة بائسة من الطبيب أن يخفف من وقع الكلمة .. أردف ..
متحفظا :

- **ولكنني لن أجزم بشيء الآن ..**

وحدد لهم إسم الدكتور الذي يثق في دقة نتائج الأجهزة لديه .. لتصوير الصدر بالأشعة .. ويثق في خبرته أيضا ..
كما حدد لهم إسم معمل التحاليل الطبية الذي يثق في نتائج التحاليل التي يجريها ..
وأضاف .. متواضعا :

- **فإذا أثبتت صور الأشعة أنني مخطيء .. وأيضا نتائج التحاليل الطبية .. فلا بأس ..**

وأما في حالة ثبوت الإصابة بالمرض .. فالعلاج .. بإذن الله .. ناجع .. ولا خوف !! ..
السل !!..
يا لها من كلمة .. ويا له من إسم !! ..
إن لها لوقع رهيب علي النفوس .. والقلوب ..
لقد سمعتها ندي .. فكانت مطرقة .. هوت علي رأسها من عل ..
حطمت جسدها .. حطمت رأسها .. وحطمت معنوياتها ..

وكانت منشارا قاطعا .. تلقاها مدحت .. فتقطعت بها نياط قلبه ..

وتساءل في لهجة المفجوع :

- **سل ؟! ..**

وأحاط رأسه براحتيه .. مرددا في فزع قاتل :

- **سل؟! .. يا إلهي !! ..**

ولم يكن الإضطراب والإنزعاج .. الذي أصاب مدحت .. ليخفي علي الدكتور ..

فقال له في نبرة مطمئنة :

- **فلتعلم أن نسبة الشفاء من هذا المرض تصل إلي 90 % .. من الحالات المصابة .. إذا التزم المريض بتناول العلاج الصحيح .. والتزم الراحة التامة .. والتعاون مع الطبيب .. وخضع للمراقبة والرعاية الطبية الدقيقة خلال فترة العلاج ..**

وذلك لأن عدم تناول الأدوية حسب الأوقات .. أو المدة التي يقررها له الطبيب .. ويصفها له .. سوف يمنح ذلك للجرثومة الفرصة لأن تصبح أكثر مقاومة للعلاج ..

وهو ما يجعل من المهم بمكان أن يلتزم المريض بتعليمات الطبيب ..

وأري أنه من الضروري .. أن يتم العلاج تحت إشراف ومراقبة الطبيب بالمستشفي ..

إلا إذا كان التشخيص .. علي غير ما تقول صور الأشعة ..

وعليها بالغذاء الجيد .. والراحة التامة .. والهواء الجاف ..

وفجأة .. صرخت ندي بصوت جاء ضعيفا .. وكأنه آت من بئر سحيق :

- **فليساعدني أحدكم .. إنني أكاد لا أستطيع التنفس ..**

وأخذ جسدها النحيل يهتز هزات مخيفة .. ويرتعش بعنف ..

وانهمرت الدموع من عينيها .. ولا زال جسدها الهزيل يهتز من الرعب ..

ودامت النوبه ربما خمسة عشر دقيقة ..

أفاقت بعدها ندي ..

واستردت بعدها قدرتها علي الكلام ..

ولم تزد عن أن تقول .. وتردد :

- **أللهم يا أرحم الراحمين .. أللهم ارحمني برحمتك .. أللهم إني أسألك الشفاء .. والعافية ..**

وتابعت .. وهي تمسك رأسها بين كلتا راحتيها :

- **إن رأسي ثقيل .. تكاد تنفجر !! ..**

ومسح مدحت رأسها بعطف ورفق .. ومال بوجهه فقبل جبهتها .. وقالت دموعه ما لم تستطع شفتاه أن تقوله ..

ثم تناول يدها .. وانخرط في البكاء !! ..

ولم تكن عفاف أفضل منهما حالا .. ولا أكثر تماسكا ..

فإن حبها لصديقتها ندي يملأ قلبها .. ويغمر حياتها ..

وقد انهارت .. وارتمت علي كرسي بجوارالفراش .. وأخفت وجهها بين راحتيها .. وأجهشت بالبكاء ..

ورغمه .. تماسك مدحت .. فقد كان عليه أن يسيطر علي أعصابه ..

أو أنه كان عليه أن يدعي التماسك ..

وجاءت صور الأشعة .. بما جاءت به نتيجة الكشف .. واتفق مع نتيجة التحاليل الطبية ..

وكان علي ندي أن تنتقل إلي المستشفي للعلاج ..

وشعرت ندي أنه عليها أن تبدأ المبادرة .. وأن عليها وحدها إذكاء روح التفاؤل في المكان .. والتيقن بأن العلاج ناجع بإذن الله ..

ألم يقل الطبيب أن الإرادة القوية .. والحالة النفسية الجيدة .. تفيد كثيرا في تقدم الشفاء .. وأنها تعتبر جزءا مهما من العلاج ؟! ..

وطالب بالتماسك أمام هذا المرض .. وعدم الإنهزام .. أوالإنبطاح أمامه ..

إنني أعلم أيضا أن الطاقة الإيجابية .. هي ما يحتاج إليه الجميع .. في هذه الظروف الصعبة .. الثقيلة ..

كان الجميع .. بمن فيهم هي نفسها .. يعلمون أنها إنما تحاول أن تستجمع شجاعتها .. وتستدعي قدرات جبارة في عقلها .. ونفسها .. وقلبها .. ربما لا تمتلكها أصلا ..

إلا أن المحاولة شيء جيد .. إيجابي ..

فمرحي بها ..

قالت ندي .. في محاولة لاستدعاء روح التحدي :

- **سوف أمكث في المستشفي للعلاج .. ولن يحتاج الإستشفاء إلا ستة أشهر .. بإذن الله .. وسوف ألتزم بالنصائح التي نصحني الطبيب بها ..**

وفي إشارة إلي عرفانها بوفاء صديقتها عفاف ..

قالت .. وهي تتكلف ابتسامة .. وشت بألم تعانيه .. وقد ظهر أثره في عينيها .. وتجسد في دمعة حبستها .. ترقرقت في عينيها ..

- **أما عن رعاية البيت .. ورعاية مدحت .. والأولاد .. فأعلم أن صديقتي وحبيبتي عفاف كفيلة بها .. بمتابعة ومعاونة أختي ليلي .. التي تموت في كل مرة تري فيها جسدي ينحل .. والمرض يشتد ..**

ولم تقل عفاف شيئا .. فلم يسعفها البكاء .. لأن تقول شيئا .. بل أنها لم تجد الكلمات .. فمالت عليها .. واستوعبتها بين ذراعيها .. وضمتها في حضن حنون .. استمر عدة دقائق .. ذرفتا خلاله كل الدموع ..

وبكيتا من الأعماق ..

وكان لمدحت نصيب من .. ذرف الدموع ..

مما دعي ندي لأن تقول :

- **أما حبيبي مدحت فعليه أن يتحمل بعدي عن البيت ستة أشهر .. وأعده أنني بعدها لن أفارقه أبدا ..**

أما الأولاد فقد كانوا بعيدين عن المشهد ..

هكذا أراد لهم الآباء .. حتي يغيب الحزن عن قلوبهم الصغيرة ..

وانتقلت ندي إلي المستشفي ..

وجد مدحت للسيارة مكانا تحت المظلة .. بجوار سور المستشفي .. وتأبط ذراع ندي .. وقد تأبطت ليلي ذراعها الآخر .. فلم تشأ ندي أن تذهب إلي المستشفي في سيارة إسعاف .. متعللة بأن حالتها ليست بهذا السوء .. والحمد لله ..

كان المشهد العام للمستشفي من الخارج .. والحدائق والأشجار من حولها .. والمنظر العام ..

كان يبهج القلوب .. ويذهب عن النفس الحزن .. والإكتآب .. ويبعث علي الطمأنينة ..

اتجهوا إلي الإستعلامات ..

وجوه الجميع باشة .. تدعو إلي الراحة .. والطمأنينة ..

المعاملات طيبة ..

إن هي إلا دقائق معدودة .. وكانت ندي ترقد علي سرير .. في الدور الثالث .. في غرفة تستوعب سريرا واحدا ..

وكان بالغرفة .. إضافة إلي السرير المريح .. كراسي جلدية .. ونافذة .. وضع علي عتبتها أصيصة جميلة للزهور ..

وأهم من ذلك .. كان الحمام بالغرفة .. نظيفا .. تفوح منه روائح عطرية ..

كانت المستشفي مثالية في النظافة .. وفي الإهتمام بالمنظر العام ..

فالزهور في الأركان .. تريح النفس ..

وهناك لافتة للتوجيه إلي كل مكان ..

- **إذا كان الإهتمام بالمرضي .. في مثل الإهتمام بكل هذه المظاهر .. لشفي كل المرضي .. لحسن التعامل .. وما يوفره من راحة نفسية ..**

قالت ندي ذلك لعفاف .. وهي في طريقها إلي غرفتها .. في الدور الثالث ..

وكان الأطباء الذين تناوبوا علي علاج ندي علي قدر كبير من المسئولية .. والكفاءة .. وأيضا الممرضات ..

وغلفتها .. فجأة .. نوبة من السعال .. فراحت تسعل بلا انقطاع .. تهزها الرعشات بعنف .. حتي لتحسب أن بقايا الحياة فيها تهجر صدرها .. وقد عيل صبرها .. فراحت تتعجل الرحيل من جسدها الذي قتله الداء !! ..

وكثيرا ما شعرت بروحها تنسل من جسدها ..

وكثيرا ما شعرت بالألم يمزقها ..

وانكمشت .. وأصبح يغطي عظامها طبقة رقيقة من اللحم ..

فكان شكلها يوحي بالدجاجة التي تم نتف ريشها في التو !! ..

كما أصبحت عيناها غائرتان ..

وكست الصفرة وجهها .. بل كل جسدها ..

أما السعال .. فلم يكن لينقطع .. ليل نهار ..

فكانت تسعل أحيانا بشدة .. حتي تدمع عيناها .. وتشعر أن روحها تكاد تغادر جسدها .. وقد انقطعت أنفاسها ..

وبينما كانت تسعل .. في نوبة من السعال قوية .. دخلت هند الغرفة .. باكية .. تمطر عيناها دموعا ملتهبة حارة .. وتبعتها سميحة .. ووفاء .. وقد احمرت عيون الجميع من البكاء .. طوال الطريق من الفيوم .. إلي الإسكندرية .. في حزن وألم ..

ثم دخل فؤاد .. وتبعه طارق ..

أما ممدوح فكان يساعد الأم علي السير .. ومعه الأب .. فإن البرد قارس عليهما .. ولم يعد الجسد يتحمل .. مثل الخوالي من الأيام ..

وامتلأت الغرفة بكاء .. ومواساة .. ومشاعر جياشة ..

ورحب بهم مدحت .. ليلي وعفاف .. ولم يكونا أقل .. ألما .. ولا بكاء ..

وكان مدحت قد أخبر الأسرة بخبر مرض ندي .. ونقلها إلي المستشفي .. بعد أن اشتد المرض .. وتدهورت صحة ندي ..

وتجلدت ندي ..

وكان الصبر ملهمها ..

وكان الإيمان نصيرها .. في هذه المعركة الرهيبة مع المرض ..

وكثف الجميع من الإهتمام بها وبحالتها خوفا من أن تتدهور .. أو تنتكس .. فالأطباء يروحون ويغدون لمتابعة الحالة باهتمام .. وجس نبضها .. والتأكد من عدم ارتفاع درجة حرارتها .. والإسراع بعمل اللازم إذا ما ارتفعت .. ويكشفون علي الصدر .. والإطمئنان عليها .. وعلي تناولها للعلاج بانتظام .. وفي مواعيده المقررة .. ورفع حالتها المعنوية ..

ومرت الثواني .. ساعات ..

ومرت الدقائق .. أيام ..

ومرت الأيام .. شهور ..

وكافأها الله علي هذا الصبر .. والإيمان .. خيرا ..

وكان جميع أفراد الأسرة في الفيوم .. يزورونها .. علي الأقل مرة .. في الأسبوع ..

فهم يحبونها .. ولها عندهم مكانة في قلوبهم ..

وبدأت صحتها تتحسن ..

فكانت شمعة جديدة تضاء كل يوم .. في ظلمة المرض السوداء .. فتضيء ركنا من أركان نفسها التي كاد الخوف أن يقتلها .. وشيئا فشيئا .. مع كل شمعة جديدة .. تتبدد الظلمة .. لكي يحل محلها نور الأمل .. ونور الشفاء .. وتصفو حياتها .. ويشرق وجهها ..

واستيقظت الشمس .. وراحت تنشر من السماء .. شعاعها الوردي .. فيتلألأ علي الأرض و يكسوها بالدفء والنور والجمال ..

وتستفيق العصافير .. فتبعث الحياة والحيوية في الصباح .. بأغاريدها المرحة .. التي تنتشر في الفضاء .. مع تموجات أجنحتها الرقيقة ..

وتحسنت الحالة مع مرور الأيام .. تحت الرعاية الطبية الدقيقة ..

وكان علي ندي أن تقضي ستة أشهر كاملة .. تحت الرعاية الطبية في المستشفي ..

ولم تكن عفاف تتركها يوما واحدا بدون زيارة .. وهو ما أسهم في تحقيق قدر معقول من الراحة النفسية لندي ..

فقد جعلتها هذه الزيارات تطمئن علي حسن سير الحياة في بيتها ..

والإطمئنان علي أولادها .. وعلي زوجها ..

ونعم الصديق .. هي عفاف ..ونعم الأخت .. هي ليلي ..

وحقا .. كانت الحياة منتظمة .. كما لو كانت ربة البيت موجودة ..

فالأولاد يستيقظون في الصباح الباكر في موعدهم .. حيث كانت عفاف تأتي مع إبنها جمال وتوقظهما .. وأثناء اغتسالهما وارتداء ملابسهما المدرسية يكون الإفطار قد تم إعداده .. فيتناولون الحليب والبيض .. ويستقلون حافلة المدرسة ..

وتعود إلي شقتها .. فتعد طعام الغداء للجميع ..

وبعد عودة الأولاد من المدرسة .. كانت تقوم بإعداد السفرة .. ويتناولون الغداء ..

وتقوم بتنظيف الشقة .. إلي أن يعود مدحت من عمله .. فتعد له طعام الغداء ..

وحتي القهوة ..

فقد اعتاد مدحت أن يشرب القهوة من يدها .. حتي في أثناء وجود ندي في البيت .. قبل مرضها ..

فإن شهرين كفيلين بأن يعتاد مدحت تناول الطعام .. والشاي .. والقهوة من يدها .. وليس فقط القهوة ..

وأحيانا كانت عفاف تضطر إلي المكوث معهم في شقتهم لفترات طويلة .. حين تحتاج مي .. أو مجدي .. أن تشرح لهما بعض الدروس .. خاصة دروس اللغة الإنجليزية ..

- **الحمد لله .. السعال تقريبا إختفي .. أو لنقل أنه ندر إلي حد ما ..**

والهزال لم يعد هزالا .. وشحوب الوجه تحول إلي ما يشبه الإشراق ..

ليس إشراقا .. ولكنه علي أي حال .. ليس شحوبا ..

قال مدحت ذلك وهو يتناول قهوته .. مساء .. بينما كانت عفاف تساعد مي في استذكار اللغة الإنجليزية ..

وكان وجهه بشوشا .. وفي عينيه البشر والطمأنينة .. وعلي ثغره ابتسامة ..

.. هل هي ابتسامة سرور .. أو ابتسامة عرفان .. وتقدير .. لدور عفاف في المرور من هذه الأزمة بخير ..

ولم تكن عفاف أقل منه سعادة بتحسن حالة ندي ..

فقالت مبتسمة :

- **الحمد لله .. إن حالتها تحسنت كثيرا ..**

وضحك مدحت .. قائلا :

- **تقول ندي أن نصف العلاج ساهم به الأطباء في المستشفي .. وأما النصف الأخر فقد ساهمت به عفاف في البيت !! ..**

وردت بتواضع :

- **ما فعلت إلا ما كان علي فعله .. ولو تبودلت الأماكن .. لفعلت ندي مثلما فعلت .. وربما أكثر ..**

وإنها لتستحق مني أكثر مما أفعل ..

تعرف يا مدحت .. ندي بالنسبة لي .. حد عظيم جدا .. حد رائع .. شخصية جذابة .. كل ما أفعله من أجلها .. أقل مما أريد أن أفعله .. وإن لها مكانة خاصة في قلبي ..

فقال بخبث .. وقد اتسعت ابتسامته :

- **رويدك .. رويدك .. كل ما تفعليه .. فقط من أجلها ؟! ..**

وارتبكت عفاف بشدة .. فقد فاجأها مدحت بسؤال لم تكن لتتوقعه ..

وألجمت المفاجأة لسانها ..

وعبرت عيناها عن ارتباكها .. ونظرت إليه في دهشة ..

وجسدت لغة جسدها هذا الإرتباك .. بالحركات الإرتجالية التي لا تعني شيئا .. التي أتت بها يديها ..

ولاذت بالصمت شفتيها ..

ومن الغريب أن تستدعي ذاكرتها في ثانية واحدة .. هذا الذي حدث بينهما في الحافلة .. عندما سافرت إلي الفيوم بصحبته ..

يا إلهي ..

إن الموقف يتكرر تماما .. مع تبديل المواقع !! ..

فعندما كان يثني علي أبي وأمي .. قلت له :

" رويدك .. رويدك .. وماذا إذن عن إبنتهما ؟! "

ونظر إلي في دهشة .. وظل صامتا !!

فأدركت في حينها تسرعي وخطأي .. وأنني قلت كلمات ما كان لي أن أقولها .. وأفشي بشيء .. ما كان لي أن أفشي به ..

واستدركت بسرعة .. قائلة :

" أقصد .. وأين إبنتهما من كل هذا ؟! .."

ومرة أخري صمت .. واكتفي بالنظر إلي ..

وما زلت مرتبكة .. وها هما عيناي .. تنطقان بما يخالج صدري !!

ومرة أخري .. أحسست أنني أخفقت في اختيار كلماتي ..

فأحيانا ما يصلح الإنسان خطأ .. بخطأ ..

الآن .. سوف يحاول إصلاح ما فسد .. بأن يبحث عن الكلمات في صيغة سؤال أخر .. كما حاولت أنا تماما !! ..

وابتسمت في نفسها .. ابتسامة لم ترسمها شفتاها .. ونظرت إليه .. في انتظار أن يسألها السؤال الجديد !! ..

وفي لحظة .. أدرك أن كلاما خرج من شفتيه لم يكن يليق به أن يخرج .. فعدل بسرعة خاطفة من مسار الحديث .. قال .. وقد رسم علي شفتيه ابتسامة متكلفة :

- **هل تعنين أنه ليس أيضا من أجل مي ومجدي ؟! ..**

وكأنها تحدث نفسها .. تمتمت :

" أمعقول هذا الذي يحدث ؟! .. أيتكرر نفس الموقف .. وتتبادل الأدوار ؟! .. إن بداخله الآن .. تماما .. ما كان بداخلي !! .."

وابتسمت ابتسامة خفيفة .. متمتمة :

" ولكن .. أما وقد حاول تصحيح مسار الحديث .. فلا بأس بهذه المحاولة .. ولو أنها مكشوفة .. "

" ولتعلم يا مدحت أنني أخبر منك .. بما يكمن بداخلك " ..

" ألا تعلم بأن سر النفس يفقد حرمته وطبيعته إذا تجاوز التفكير .. إلي طرف اللسان ؟! " ..

" وبما أنك قد قلت ما قلت .. فعلي أن أتحفظ .. وأحتاط .. قبل أن أقول شيئا .. أو أفعل شيئا .. قد تسيء تفسيره .. وفهمه " !! ..

قالت ذلك بداخلها ..

إلا أنها أجابت .. بتكلف الإبتسام :

- **أنت تعلم مدي حبي لكل من مي .. ومجدي .. إنهما مثل جمال تماما .. أبنائي .. وفي قلبي ..**

وانشغل مدحت بعد ذلك بمشاهدة التلفاز ..

بينما انشغلت عفاف بدروس الأولاد ..

وأحيانا ما كانت أفكارها تقودها إلي ماضي حياتها .. من ذكريات .. سعادة وألم .. حزن وسرور .. يسر وعسر ..

وكثيرا ما كانت ذكرياتها الجميلة مع سمير تطفو .. فوق كل الذكريات .. فتبدو مبتسمة .. رغم شرودها .. فتتراءي لها أمام عينيها كل لحظات

الرومانسية .. والحب .. في شريط هو أشبه بفيلم .. تتابع أحداثه في الواقع .. لا في الخيال .. حتي إذا أفاقت من شرودها .. أحست بحجم ما فقدت بفقدانه .. وبعمق الحزن الذي غلف قلبها .. لفراقه ..

فقد أحبها سمير حبا جما .. وكانت له الزوجة .. والحبيبة .. والأم .. والحياة كلها ..

ولم يكن بوسعها إلا أن تحبه .. بعد أن منحها كل شيء ..

كان سمير يحمل قلبا عظيما .. تربعت وحدها بداخله .. وملأت كيانه ..

وكانت تري نفسها في عينيه .. وملء نفسه .. وربيع حياته ..

فإذا خرج من البيت .. ودعها بكلمات الحب والغزل .. وقبلة حانية .. علي خدها .. أو جبهتها .. أو شفتيها .. وإتصل بها كلما واتته الفرصه .. وإذا عاد إلي البيت .. دخل بالبشر .. والوداد .. واستقبلها بحضن دافيء .. وقبلات مشتاق .. وحديث محب ..

وخلال وجوده في البيت معها .. لم يكن يسري بالبيت إلا كل ما هو رومانسي .. وكأن حياتها معه كلها شهر عسل ..

وهو ما جعلها تشتاق إلي وجوده .. إذا غاب .. وتسعد به إذا عاد .. ولا تحب فراقه ..

في كل ركن من أركان بيتها في الكويت .. كانت له ذكري جميلة .. مع مداعباته .. التي ما كانت تنتهي ..

كان يداعبها في المطبخ .. في الحمام .. في الصالة .. في حجرة الصالون .. في الفراش .. علي الأرض ..

في كل ركن من أركان البيت .. ذكريات رائعة ..

كيف لا تحبه .. كيف لها ألا تعشقه ..

بل كيف لها ألا تحزن علي فراقه .. العمر كله ؟! ..

وقد كان يري في عينيها .. كل النساء !! .. ويراها .. في عيني كل النساء !! .. لقد كانت هي محور حياته ..

لكم أخذت جمال في حضنها .. في الليالي الحزينة .. وذرفت الدمع .. حتي جفت مآقيها .. وخياله لا يفارقها .. حتي يطلع الفجر ..

وكانت عندما تسمع أغنية أم كلثوم :

كـان لك معايه أجمـل حكايـة

في العمـر كله

سـنين بحالـها ما فات جمالها

علي حـب قبـله

ذكريات حبي وحبك .. مانسهاش

هـي أيامي إللي قلبي فيها عـاش

فيـها أحـلام قلتـها وحقـقتـها لي

فيـها أحـلام لسه أنا ما قلتـهاش

كانت تذوب ألما .. ويبكي قلبها .. وتسيل دموعها أنهارا .. وهي تقف عند كل كلمة من كلمات هذه الأغنية ..

إن حب سمير يجري في دمها ..

وقد احتملت عفاف خطبها جلدة .. وصبرت عليه عزيزة النفس .. عميقة الحزن .. وصرفت نفسها عن الحياة ولذاتها .. وعاشت فقط لإبنها جمال .. وذكري زوجها ..

وهو ما جعل ندي ومدحت .. يرفقان بها أشد الرفق .. ويكبرانها .. أعظم إكبار ..

فكانا يحاولان إخراجها من عزلتها بقدر الإمكان .. حتي لا تخلو إلي أحزانها .. ووحدتها .. فبذلا الكثير من الجهد في هذا السبيل ..

ومن هنا كثر الإتصال بها .. واشتدت أواصر المحبة ..

وقلما كان يمضي يوم لا يجمعهم ..

ولم تكن ندي تشتري ثياب لها أو لأولادها .. أو حتي لمدحت .. إلا بصحبتها .. وبأخذ رأيها .. واستشارتها ..

وأفاقت عفاف علي صوت مدحت يناديها :

- **اقبلي يا عفاف .. إن القناة الثانية تعرض فيلم " دعاء الكروان " .. وأذكر أنك تحبين مشاهدة هذا الفيلم مائة مرة !! ..**

وفعلا كانت عفاف تعشق مشاهدة " فاتن حمامه " .. التي أبدعت في هذا الفيلم .. مجسدة دور " آمنة " .. بعبقرية .. وإقتدار ..

وأقبلت عفاف .. واستقرت إلي فوتيل أمام التلفاز ..

وقال مدحت :

- **إنها البداية .. وها هو أول مشهد ..**
- **جميل أن أحضر من أول الفيلم ..**

قال مدحت :

- **كثيرا ما تناولنا هذا الفيلم بالمناقشة .. كلما شاهدناه ..**
- **أجل .. فقد جسدت " فاتن حمامة " الصراع بين شخصية " آمنه .. التي إنما جاءت للإنتقام " .. وشخصية " آمنه .. التي وقعت في حب من عليها الإنتقام منه " .. بذكاء شديد .. وقدرة هائلة ..**
- **نعم .. كانت " آمنه .. المحبة " قد أحبته بعنف .. برغمها .. حتي أصبح يملأ عليها حياتها .. لا تري أحدا غيره .. ولا تسمع أحدا غيره .. في اليقظة .. وحتي في النوم .. بل أصبح هو حياتها .. لقد أنساها كل شيء .. فأنساها حتي ذكري أختها .. التي ما جاءت هنا إلا من أجل الإنتقام لها ..**
- **وهذا ما انتهي إليه هو أيضا .. فلقد انتهي به الأمر إلي أن أحبها حبا جما .. بلغ به حد الجنون ..**
- **ولكنها كانت تصارع الحب فيها .. فتصرعه .. فإذا مالت إلي الإستسلام.. والتردي في الهوة السحيقة التي هوت فيها أختها .. تمثلت إليها " آمنه**

.. المنتقمة " .. فأيقظت فيها الكبرياء .. وأعادت إليها ذكري " هنادي " .. والإنتقام ..

فترتد " آمنه .. المحبة " وتتراجع عن الهزيمة والإستسلام .. وتعود لتغالب العشق فيها .. ولا تذعن لقلبها ..

- وأصبح هو أيضا .. يتمني .. بغير إلحاح .. وهو ما يعني صراع رهيب بداخله .. بين رغبته فيها .. فيفعل كما فعل مع هنادي .. وأمثالها من الفتيات .. وحبه لها .. الذي جعله يبقي عليها .. دون إيذاء ..
- فكان صراعها .. بين أن تقبل علي حبيبها .. أو أن تهرب منه ..
- كما كان صراعه .. بين أن يبقي عليها.. دون إيذاءها .. منتصرا لحبه .. أو أن يتركها تمضي .. ويهرب هو منها .. منتصرا لكبريائه ..
- فإذا به يكتشف حبها .. فيكشف لها عن حبه ..
- إلا أنها تكشف له عن الحائل الذي يحول بينهما .. وبين قلبيهما ..
- فهناك حائل إذن .. وهو حائل عظيم .. عليهما الإعتراف بوجوده ..

إلا أن النهاية لم تكن مأساوية .. فقد تم تأجيل القرار الحاسم .. لحين ..

وظلا علي نفس الوضع ..

حب .. مع التأجيل !! .. أو مع الصبر .. والتريث !! ..

وكان الوقت متقدما من الليل .. عندما غادرت عفاف إلي شقتها .. ومعها إبنها جمال ..

ونام جمال ..

وجافاها النوم ..

واستلقت علي الفراش .. وتلاعبت بها الأفكار .. وأخذتها إلي كل مأخذ .. إلي ماذا يرمي مدحت ؟! ..

لماذا يحاول إيقاظ .. ما لا يمكن إيقاظه ؟! ..

إن الحائل بينهما ليست ذكريات .. حتي لو كانت ذكريات " هنادي " ..

إنها " ندي " ..

إنها لحم .. ودم .. حياة شامخة في الحقيقة .. وفي القلب .. وليست مجرد ذكريات ..

إنها ندي .. الصديقة الرائعة ..

ولم يكن مدحت أفضل منها حالا ..

فها هو يرقد علي فراشه .. وقد تعلقت أنظاره إلي لا شيء .. في سماء الغرفة ..

إنه لا يعرف كيف يفكر .. فقد تشتتت أفكاره ..

ولا يعرف ماذا يفعل ..

إن ندي لا تستحق منه الإهمال .. ولا النسيان .. ولا حتي إتيان الأخطاء في حقها ..

وتذكر كيف بهرته ذات يوم .. بل اختطفته .. بجمالها .. وشخصيتها .. وذكائها ..

إنها الآن تعاني من مرض عضال .. تعيش آلام لا يعلم مداها إلا الله ..

أهذا هو الوقت المناسب للإستسلام لصراعات من هذا القبيل ؟! ..

وأصابه الصراع بالصداع .. وعدم الإتزان ..

وفي اليوم التالي .. عندما وصل مدحت إلي المستشفي .. وجد الأصدقاء سامي وموريس .. وزوجتيهما .. وقد سبقوه إلي غرفة ندي ..

إلا أنها لم تكن اليوم علي ما يرام ..

فقد عاد إليها السعال .. ولو أنه أخف عن ذي قبل .. كما أنه لم يكن مصحوبا بالدم ..

وكان وجهها شاحبا .. شحوب الموتي !!

كما لاحظ مدحت أن عينيها كانتا غائرتين قليلا ..

وتبادل الأصدقاء الأحاديث .. والتعرف علي أخبار بعضهم .. التجارية .. والأسرية .. وبعض أحاديث الماضي ..

وبعد قليل وصلت عفاف ..

وقدمت التحية للجميع .. واطمأنت علي أحوال صديقاتها .. وتبادلن الأخبار الجديدة لكل منهن ..

ومن ثم قامت ترتب أعواد الورد في الآنية .. بعد أن اطمأنت علي أحوال ندي وسألتها عن حالتها .. وعن المعاملة التي تلقاها في المستشفي .. وانتظامها في تناول العلاج .. وعن نوبات السعال .. والصداع .. وحالات ضيق التنفس التي كانت تنتابها .. من حين .. لحين ..

ثم أخذت تطوف بين الأصدقاء بصندوق الشيكولاته .. وتداعب الصغار .. وأحزنها في داخلها .. أن تري ندي وقد تراجعت صحتها .. وأن الألم قد عاودها .. ولو أنها لم تظهر هذا الإحساس لندي .. خشية أن تسوء حالة ندي بالإيحاء ..

وانصرف موريس وسامي بأسرتيهما .. علي أمل العودة بعد أسبوع .. آملين أن تكون ندي أحسن حالا ..

وجاء الطبيب المعالج لمعرفة إلي أين وصلت حالة ندي ..

وكشف عليها .. واطمأن .. وطمأنهم كثيرا .. رغم أن الظاهر يقول عكس ذلك ..

فقال أن معاودة السعال بعض الأوقات لا يعني تراجع الحالة الصحية للمريض .. بل أن هناك مؤشرات تفيد تقدم العلاج .. والإقتراب من الشفاء .. مؤشرات إيجابية ..

وليس عليها أن تقلق ..

وأخذت ندي .. كعادتها في كل مرة تزورها عفاف .. تثني عليها .. وتشكر لها رعايتها لأسرتها .. فلا يعوزهم شيئا ..

إلا أن عفاف كانت تحاول أن تمنعها من تقديم الشكر لها والثناء .. فليس هناك – في رأيها – ما يستدعي الشكر .. ثم أنها – عفاف –تعلم أنه لو أن ندي مكانها .. لفعلت ما هو أكثر من ذلك ..

وقالت ندي لزوجها .. وقلق يخامرها :

- **إن حلما يراودني كثيرا يا مدحت .. وما يزعجني هو تكراره ..**

فقالت لها عفاف ضاحكة :

- **ما أكثر أحلامنا يا ندي .. أيقلقنا حلم ؟! ..**

إذن فلن ننجو من القلق .. كل يوم ..

ناهيك عن الكوابيس التي تجعلنا نقفز من الفراش خائفين .. بل مرعوبين .. وقلوبنا تخفق .. وكأنها حقيقة .. لا أحلام ..

وقال مدحت .. باسما :

- **خيرا يا ندي .. ماذا ترين ؟! ..**

وقد قال ذلك للدعابة ..

فهو لا يؤمن بصحة كلام من يدعون أن بإمكانهم تفسير الأحلام ..

ولكنه يؤمن بوجود دلالات الرؤي .. والأحلام ..

ولكن لا بأس من قضاء الوقت في الحديث عن الأحلام .. وتفسيراتها .. التي لا تأتي بشيء مؤكد .. إنما هي آراء .. غير علمية .. ولا مدروسه .. في بعض الأحيان ..

قالت .. ولم يزل صوتها خافتا .. ضعيفا :

- **إنني أراني وعفاف والأولاد .. جميعنا نقف فوق كوبري .. وإنه نفس الكوبري .. في كل مرة .. وأنت تسير فوق الماء .. تحت الكوبري .. وقد مددت إليك يدي .. عسي أن تستطيع أن تمسك بها .. فتخرج من الماء .. ولكنك لا تفعل .. وأناديك .. فلا تجيب .. وكأنك لا تسمع ..**

وسألته .. وكأنه كان معها في الحلم ! ..

- **لماذا لم تجب ؟! .. أحقا لم تكن تسمعني ؟! ..**

ولماذا لم تمسك يدي الممدودة إليك .. فتنجو ؟! ..

وضحك مدحت قائلا :

- **ربنا يستر .. فأنا لا أجيد السباحة !! ..**

وضحكت عفاف قائلة .. مقللة من أهمية تفسير الأحلام :

- **ربما كانت أضغاث أحلام .. فلا تعيريها اهتمامك ..**

ولكن ندي كانت تعطي أهمية كبيرة للأحلام في حياتها .. فقد اعتادت أن تحكي أحلامها لأمها .. وأختها .. وحتي لأصدقائها .. و كثيرا ما كانت تأخذ تفسيراتهم مأخذ الجد .. والإرتياح ..

وهي تذكر حلمها " الشهير .. في أسرتها " .. قبل يوم واحد من خطوبة أختها ليلي .. فقد حلمت أن أحدهم قد ألقي منديلا من الطائرة .. لأختها ليلي .. التي أخذت المنديل وفرحت به كثيرا ..

وكان تفسير الحلم .. حسب والدتها .. أن عريسا .. يعمل بالخارج .. سوف يأتي .. ويخطب ليلي ..

وهو ما تحقق .. طبعا بالصدفة .. في اليوم التالي فعلا !! .. حيث جاء أسامة وتقدم للأسرة .. طالبا يد ليلي .. للزواج !! ..

إلا أن ندي لم تكن لتعتبرها صدفة !! ..

فإن تحقيق حلم سيدنا يوسف لم يكن صدفة ..

وطبعا .. ليس التشبيه هنا مقصود ..

قالت ندي .. ولم يزل القلق يكدر صفوها :

- **إن ما يقلقني .. هو تكرار هذا الحلم .. فهو شيء مزعج ..**

وبعد لحظات من التوقف .. استدركت .. وكأنما تذكرت شيئا هاما .. قالت :

- **من الغريب أنني كنت أمد إليه يدي .. في حين لم تفعل عفاف ..**

وضحك مدحت .. وأرسل عينيه إلي عفاف .. قائلا :

- **لقد هلكت .. لماذا لا تمدي إلي يدك يا عفاف لإنقاذي ؟! ..**

وتبسمت عفاف .. وأشارت إلي ندي بيدها .. قائلة :

- **إن لديك منقذ واحد يا سيدي .. ولن يكون إلا ندي !! .. وكان عليك أن تستفيد من فرصة يدها الممدودة إليك .. وإلا .. فلا تلومن إلا نفسك ..**

وضحكت ندي .. وعلقت .. متوعدة :

- **أو غرق وهلك .. بعد أن أسحب يدي !! ..**

وفي المساء ..

وبعد أن تناول الجميع طعام العشاء .. همت عفاف باصطحاب جمال للمغادرة إلي شقتها .. طلبت مي .. وأيضا مجدي .. منها أن يبقي جمال معهما بعض الوقت فيلعبوا ويلهوا معا .. خاصة أن غدا الجمعه .. فلا بأس من قضاء الوقت معا .. فلا حاجة للنوم المبكر الليلة ..

وشاطرهما مدحت .. الرأي والرجاء .. بأن يسهروا جميعا ..

وقال مازحا :

- **فما أطال النوم عمرا .. وما قصر في الأعمار طول السهر !! ..**

وما أثقل كفتهم في ميزان الضغط عليها .. هو رغبة جمال في السهر معهما .. واللهو ..

وأرادت عفاف أن تشغل نفسها بعمل أي شيء .. فسألت مدحت .. بنبرة جادة :

- **هل ترغب في فنجان قهوة ؟!**

أجاب بلهفة :

- **يا ريت !!**

ودخلت المطبخ متشاغلة .. وأنهمكت في إعداد القهوة ..

كان يشاهد التلفاز ..

جاءت له بالقهوة .. ووضعتها علي الطاولة الصغيرة .. أمامه ..

قال وهو يتناول الفنجان .. وعيناه تلمعان .. وثغره باسم :

- **أشكرك يا عفاف ..**

واستقرت في الفوتيل المقابل .. ترتشف قهوتها ..

تشاغلت باحتساء القهوة .. وبالفيلم الأجنبي الذي يعرض علي القناة الثانية ..

قال مدحت .. مغلفا حديثه بالشكر والإمتنان :

- **فنجان قهوة رائع .. تسلم يدك ..**

قالت .. ولم تزل عيناها معلقتان علي أحداث الفيلم ..

- **بل تسلم يد ندي .. فقد تعلمت منها صنع القهوة .. كما تعلمت منها أشياء عظيمة كثيرة ..**

كم هي إنسانة رقيقة .. جميلة .. فليعجل الله لها بالشفاء ..

حتي تعود إلي بيتها .. وزوجها .. وأولادها .. موفورة الصحة ..

في الحقيقة أن عفاف كانت تنظر إلي التلفاز .. ولا تراه .. وتنظر إلي الفيلم .. ولا تشاهد أحداثه ..

إنها تعلم أنه أيضا لا يشاهد الفيلم ..

لقد كان يبحث عن مدخل للحديث .. إلا أن ما قالته كان مدعاة له بأن لا يخوض في أحاديث .. لا طائل من ورائها .. ولن تبعث غير الندم .. والألم .. والخروج عن اللياقة ..

فاختارت كلماتها بدقة .. توحي له بأن لا تفعل .. وبأن دعنا لا ننكأ الجراح .. برجاء .. واحترام الذات ..

إنها تعلم ما بداخله ..

وربما كان ما بداخلها أكبر ..

ولكن هناك " هنادي " .. بينهما !!

بل هناك من هي أكبر من هنادي ..

إنها ندي ..

وكل التضحيات تصغر أمام حبها لصديقتها ندي ..

كما أن هناك شيئا هاما .. لم تكن لتنساه ..

فالمشهد لا يشمل ندي فقط ..

بل أن أخلاقياتها هي جزء هام من المشهد .. فالخيانة .. والغدر .. لا يمكن أن يكونا من مكونات شخصيتها ..

لن تسمح لقلبها إذن أن يشترك في هذا الصراع .. ولينسحب .. ويترك لعقلها مقاليد الأمور .. وإدارة هذا الصراع .. الذي عليها حسمه .. لصالح صديقة عمرها .. وانتصارا لأخلاقياتها .. وتعزيزا لدينها ومعتقداتها .. نعم .. هي لا زالت تحمل لمدحت الكثير في قلبها .. ولكنها لن تضعف .. كما ضعف هو ..

وما كان له أن يضعف ..

إنها تعلم أن مدحت لم يكن ليقدمها لسمير زوجة له .. إلا لأن أحواله المادية البائسة لم تكن تسمح له بالزواج في ذاك الوقت ..

لقد كانت أيامه كلها عسيرة .. بل منحوته من العسر .. بل منحوتة من الصخر !! ..

ولم يكن دخله الشهري ليفتح بيتا .. سعيدا .. يضم زوجة باحتياجاتها التي لا تنتهي .. وأطفالا ..

هناك مدارس .. ودروس خصوصية .. وعلاج وأدوية ..

فالحب وحده لا يكفي ..

فهناك نفقات لا تنتهي .. من إيجار السكن .. اللحوم .. الأكل عموما .. الملبس .. الأولاد .. المدارس .. فاتورة الكهرباء .. فاتورة الماء .. الفواتير كثيرة وكثيرة .. ولن تخلف وراءها إلا التعاسة .. والبؤس ..

ولن يستطيع الحب أن يقاوم .. كل هذه الزلازل ..

بل سوف يستقر في النهاية .. تحت أنقاض هذه الحياة البائسة .. والسعادة الوهمية ..

ولن يكون هناك سعادة ..

كما لن يكون هناك حب ..

فقط أنقاض .. فقط ركام ..

فقط آلام أليمة .. وحسرات .. وندم .. لا سبيل إلي وصفه ..

آلام حب .. يموت .. تحت أقدام فقر يدوسه .. ويسحقه .. بلا رحمة ..

آلام آمال .. تذيبها دموع .. تذرفها عيون .. أذبلتها الحاجة .. وأبكاها العوز .. والحرمان ..

وحسرات .. لأطفال .. لا قبل له بمواجهة أقل احتياجاتهم .. من الأكل والملبس والتعليم .. بجيوب خاوية .. إلا من كلمات الحب والحنان .. التي – ساعتها – لن تسمن ولن تغني من جوع ..

وندم .. علي سوء الإختيار .. عندما اخترنا الحب .. وأهملنا النظر في باقي الإختيارات ..

هكذا كان مدحت يفكر ..

إنها تعلم ذلك جيدا ..

وتذكرت هي نفسها عندما بكت .. لما أخبرها بأن أحد جيرانهم .. صعد إلي سطح البيت الذي يقيم به .. بعد أن خرج .. لليوم الثاني .. يبحث عن عمل .. فلم يجد .. وقد ظل أولاده جياع منذ أول أمس .. فلم يتحمل جوع أولاده .. ولا سبيل له ولا حول ولا قوة .. ففقد عقله .. بعد أن فقد الأمل في إشباع هذه الأفواة التي أنجبها .. ومنحها الوجود .. إلا أنه لم يستطع أن يمنحهم لقمة العيش .. ولم يمنحهم إلا معاناة الجوع والعطش .. ففقد عقله .. وصعد إلي السطح .. وأنهي حياته .. بأن أرسل جسده إلي الفضاء .. يحلق فيه قليلا .. قبل أن يرتطم بالأرض جثة هامدة .. مهشمة ..

وبكت يومها عفاف ..

وبكي الحي كله .. مأساة هذا الرجل .. بل مأساة أولاده !! ..

ليس معني هذا أنه قد يحدث لمدحت ما يشبهه ..

إلا أن ذلك يعني أن أقدام الفقر سوف تكون قاسية .. إذا ما سحقت الفؤاد .. ثقيلة كقدم فيل .. تسحق نملة ..

فهل تلوم مدحت .. الذي فكر .. قبل أن يختار ؟!

لقد كان يتألم .. ربما أكثر منها ..

بل ربما أدمي قلبه الفراق .. كما أدمي قلبها ..

إلا أن عليهما الرضي بالأمر الواقع ..

والإستسلام لقضاء الله ..

وما فات .. قد فات ..

لقد انتهي كل شيء ..

والآن .. أصبحت المعادلة تشمل أطرافا أخري .. من المحال إهمالها ..

بل أن وجود هذه الأطراف .. يسحب منا حرية الإختيار ..

إنها ندي ..

وأخذت عفاف تلعن المرض ..

فلولا مرض ندي .. ما توافر لهما هذه المساحة من الوقت .. ولما كانت بينهما هذه الأحاديث .. ولما استيقظ الماضي .. ولما كان هذا الصراع .. فلقد وجد مدحت مساحة أكبر من الحرية في إثارة الماضي .. في غياب زوجته .. واستطاع أن يخلو إلي عفاف كثيرا من الأحيان .. وشغل بها بفضل كلمات المجاملات .. التي لم يقصد بها مجاملات !! .. بل كانت أقرب إلي الحنان .. منها إلي الشكر والإمتنان ..

أقرب إلي العواطف .. منها إلي التقدير ..

وفراغ .. هو في حاجة لمن تملأه ..

وهكذا وجد الأسباب مهيأة .. لاستدعاء الأعماق .. وإيقاظ الماضي ..

وانتهي به الأمر شيئا .. فشيئا .. حتي بدأ ينكأ الجراح .. دون أن يدري .. أو علي الأقل .. دون أن يدري نتائج ما ينتوي أن يفعل .. وتداعياته ..

إلا أن عفاف .. كانت أكثر تعقلا .. أكثر إدراكا لعواقب الأمور ..

فخرجت من الصراع .. مخلصة لصديقتها كل الإخلاص ..

منتصرة لمبادئها ..

وانتفضت في جلستها .. وارتعبت .. لفكرة جالت بخاطرها ..

- **يا إلهي .. هل يمكن أن تكون ندي قد أحست بشيء ؟! ..**

ما سر هذا الحلم الغريب الذي يراودها ؟! ..

إنها تراه يفعل شيئا خطأ .. أو أن هناك خطأ ما .. يقترفه مدحت ..

فالناس يسيرون علي الأرض .. وليس فوق الماء ..

كما أنهم يعبرون فوق الكوبري .. وليس أسفله ..

والأكثر وضوحا من هذا .. أنه لا يعرف إلي من يمد يده .. لإنقاذه من الماء ..

هل يمد يده لي .. أم لها .. وهكذا يبدو مذهولا .. تائها .. لا يعرف أين النجاة .. ومن منا يختار ؟! ..

يا إلهي !! ..

وهل يمكن أن يخطر لها .. أن ما بيننا - هي و أنا - من الصفاء الجميل .. يمكن أن تشوبه شائبة ؟! .. أو تعدو عليه عادية ..

أ أسمح أنا بذلك ؟! ..

والله إنها لهالكة .. إذا وجدت نفسها بين مرض قاتل .. وزوج خائن .. وصديقة غادرة !! ..

الله يعلم يا ندي أنني لن أشترك في هذا الإثم .. ولن أخون صداقتك .. ولن أخذل ثقتك ..

سوف أقاوم ما بداخلي .. ولو كان بركانا ثائرا ..

سوف أقاوم محاولات مدحت .. ولن أغرق في فيضان حبه وحنانه وعواطفه .. مهما بلغت محاولاته ..

وفي ذات مساء..

وقد يأس من محاولاته ..

سألها مدحت .. ولم يكن أمامه إلا المواجهة الصريحة ..

- **إلي أين تهربين مني يا عفاف ؟! ..**

فقالت .. وكأنها أرادت أن تسمع منه هذا السؤال الصريح .. حتي تخبره بما بداخلها .. صراحة .. لإنهاء صراع .. ليس من المفضل أن يطول ..

وكانت كلماتها تخرج من بين شفتيها قوية نارية .. كما أطلقت عيناها نظرات كالسهام .. ثاقبة متحدية .. ألهبت عينيه ..

- **أهرب منك .. إلي جانب ندي .. أهرب منك إلي شاطيء الأمان ..**

لن نكون في أمان يا مدحت .. في البحر الذي تريد أن نبحر فيه معا ..

علينا أن نهرب من مياة هذا البحر العميق يا مدحت ..

ليس أمامك في هذا البحر إلاأن تغرق .. وتأخذك أمواجه العاتية إلي أعماق سحيقة .. لا مهرب منها .. ولا نجاة ..

وبعد فوات الأوان .. لن يفيد الندم ..

فلا تبحث عن ماضي قد فات .. علي جثة ندي .. وهي من تحبك .. وتخلص لك ..

حسبها من الأيام .. مرض فتاك ..

فكن لها عونا عليه .. ولا تكن له عونا عليها ..

وتذكر دائما أنك أنت من صنع بك هذا .. وبي أيضا ..

قال في رجاء .. معتذرا عن الماضي .. وكان يرنو لعينيها في رجاء واستعطاف .. وقد التمع في عينيه لهيب ودود يخالطه حزن خفيف ..

وقد أذهله قوتها .. وعنادها الذي لا يلين لحظة واحدة .. فهي عنيدة كالصلب .. وكأن قلبها قد قد من حديد .. ولو أن الدموع التي تترقرق في عينيها تشي بغير ذلك !! ..

وطعن عنادها قلبه .. وعقل كبرياؤها لسانه .. كما كان لسانه يتعثر من التوتر والاضطراب !! ..

فقد بلغ به التأثر مبلغا هز أعماقه ..

قال في رجاء .. معتذرا عن الماضي .. وقد غمره فيض من الحزن والألم .. ومزق اليأس قلبه :

- **لا تلوميني علي شيء أنت أعلم به .. فقد كنت يومها حجرا مهملا .. ملقي تحت الأنقاض ..**

قالت بعناد .. ونبرة جادة .. وإرادة لا تلين :

- **أنا لا ألومك .. ولا أتحدث عن الماضي .. ولا أنكأ الجراح .. إنني أتحدث عن حياتي التي أعيشها في الحاضر .. وعن حياتي في المستقبل ..**

يا مدحت .. لا تغضب مما أقول .. إن ما كان يوما بيننا .. قد تواري خلف زواجي لسمير .. وحبي اللانهائي له .. وخلف صداقتي المخلصة لندي .. وأسدلت عليه ستارة كثيفة .. قوية .. لا يستطيع الزمن هزيمتها .. ولا يرفعها كلما تفعل من محاولات لرفعها ..

مدحت .. أرجوك لا تغضب .. فأنا لا أري فيك إلا الصديق العزيز .. وزوج واحدة أحبها وأحب الإخلاص لها .. فأنا أراكما كتلة واحدة .. كيان واحد .. وهناك دائما الزوج الرائع الذي فقدت جسده .. ولكنه دائما معي .. لا يفارقني ..

إنني يا مدحت لا زلت أعيش مأساة فقد سمير ..

ولا زلت أتجرع الألم الأليم .. والحرمان القاتل .. والفراق المرير ..

إنني لا أستطيع أن أتجاوز هذا الألم .. بل لا أريد أن أتجاوزه ..

إنه الشيء الوحيد الذي يبقيني علي قيد الحياة ..

إنه كل ما تبقي لي من هذه الحياة ..

إن حبي لسمير لم يزل يملأ قلبي .. ولا يمر يوم دون أن أفكر فيه ..

إن فراقه كان فوق طاقتي علي التحمل ..

وإن هي إلا أيام .. وتخرج ندي من المستشفي .. سالمة .. معافاة .. وتعود إلي بيتها .. وزوجها .. وأولادها .. وحياتها ..

وتوقفت قليلا .. ثم وجهت إليه سؤالا قاسيا .. في حدة :

- **كما أنني في حيرة من أمري .. أنت مدحت .. أتفعل ذلك بزوجتك ندي ؟! .. إنك تفكر في كل شيء .. قبل الإقدام عليه .. ونعلم أن عقلك دائما .. وليس قلبك .. هو من يقودك .. ويحكم تصرفاتك .. فكيف تفعل ذلك بهذه المسكينة ؟! ..**

قال بأسف .. وضعف .. وقد تغير صوته .. ولانت نبرته .. والبريق في عينيه يشي بالإستسلام .. واتزنت ملامحه :

- **تضعنا الحياة أحيانا في أوضاع صعبة لا نستطيع أن نتخلص منها .. إلا بالتخلي عن القيم التي ندافع عنها .. والمباديء التي نؤمن بها ..**

قالت بحزم .. وقد جحظت عيناها .. فقد أدهشها أن تسمع منه ذلك :

- **إذا تخلينا عن قيمنا .. نكون قد تخلينا عن كل شيء .. وإذا تخلينا عن المباديء التي نؤمن بها .. فماذا يكون قد بقي لدينا من ديننا ؟! ..**

هل تعلم .. سيكون العالم حينئذ بربريا .. متوحشا .. إذا تخلي الجميع عن القيم !! ..

سيكون مجتمعا عدوانيا .. مجنونا .. مجردا من الإنسانية ..

كما أنه ليس أنت من يفعل ذلك .. وليس أنت من يتخلي عن القيم ..

مدحت ..

أنت قوي .. ولن ينقذك من السقوط في هذه الهاوية إلا نفسك ..

وقيمك والمباديء التي طالما تغنيت بها ..

وفي رد فعل غاضب .. استدار مدحت .. وبكل قواه .. ضرب باب المطبخ الخشبي لكمة عنيفة .. بقبضته ..

ولم ينبس بكلمة ..

ولم تكن تعرف .. هل أراد أن يسدد لها هي هذه اللكمة ؟! .. أم أنه أراد أن يؤنب نفسه .. ويعاقب قلبه وعقله ؟! ..

وصمتت عفاف برهة .. ثم تابعت .. والقلق باد علي ملامحها .. وترقرقت في عينيها الدموع :

- **علي أي حال .. لقد قررت السفر .. سوف أغادر إلي القاهرة .. بعد تمام شفاء ندي .. وعودتها إلي بيتها .. بإذن الله .. فإذا كانت فرصة التعيين في الجامعة لا زالت قائمة .. فسوف أقبلها .. فإن فيها مستقبلي ..**

لقد ترقرقت الدموع في عينيها بسبب موقف مدحت .. إلا أنها أجهشت بالبكاء .. وانهمرت دموعها كالسيل .. بسبب قرارها الرحيل عن الإسكندرية .. وفراق ندي .. وباقي الأصدقاء ..

وما لبثت أن جففت دمعها في قوة .. وكبرياء .. وقالت بثقة :

لا بأس بالحياة في القاهرة ..

- **وماذا عن الأعمال التي أقمناها معا ؟! .. والشركة التي تربطنا معا ؟! ..**

قال مدحت ذلك .. عله يثنيها عن تنفيذ هذا القرار ..

قالت ..

وقد فكرت في الأمر جيدا .. من جميع زواياه :

- **لا أعتقد أنك ستجد صعوبة في إرسال مستحقاتي إلي القاهرة .. ثم أنني سوف أزور ندي من حين لآخر ..**

قال برجاء .. مستميتا في محاولاته :

- **إذن لا تسافري إلي القاهرة .. إبق .. ولا محاولات من جانبي فيما بعد .. أعدك ..**

قالت .. بغير أمل فيما يقول :

- **كلا .. لقد كان ذلك ممكنا .. قبل أن تنكأ الجراح ..**

ونظرت إليه في لوم وعتاب .. قائلة .. برجاء :

- **أرجوك يا مدحت .. انا أقدر أسباب ما فعلت .. ولكن .. كن حكيما .. ودع هذا الأمر يمر بسلام .. بصفة خاصة .. أن ندي زوجة عظيمة .. تستحق منك التضحية .. وصديقة رائعة .. تستحق مني أن أحافظ عليها ..**

كما أنها أم حنون .. علينا أن نساعدها لكي ترعي أولادها في سكينة وهدوء .. وأمان .. بعيدا عن الإحباط ..

أرجوك يا مدحت .. لا تقترف الحماقات ..

فإن من يتوغل بعيدا جدا .. لا يمكنه العوده ..

وقد ينزلق .. فيفعل ما لا يمكن إصلاحه .. ويكون قد فات الأوان ..

كما أنه لم يكن لك أن تغرقنا في جذور الماضي ..
وتوقظ من الذكريات المطمورة في الأعماق السحيقة ما تركناه .. وأغلقنا دونه ألف باب .. وأغلقناها .. بألف مفتاح .. بعد زواجي .. وزواجك ..
فلا تفسد زواجك .. ولا تدفعني لأن أفقد حياتي ..
صدقني .. لن يعود شيء كما كان من قبل !!
وإلا قل لي ..
إذا أحبطنا ندي .. ودمرنا سعادتها .. فكيف تمنح هي أسرتها السعادة ..
وأنت تعلم أكثر مني .. أن فاقد الشيء لا يعطيه ..
بل إن خيانتك لها سوف تسحق نفسها .. وتمزق فؤادها ..
من الغريب أن مدحت كان لينصح الآخرين بمثل هذه النصائح التي تقدم إليه الآن ..
إنه يعلم كل ذلك .. بل يقتنع به لحد الإيمان ..
إلا أنه في حالات مثل هذه .. عندما يكون الإنسان هو المعني بها .. فإنه يتكون لديه الوعي بأن كل النصائح التي يقدمها للأخرين .. بأسلوب تلقيني .. لا يمكنها أن تقدم له هو نفسه .. الحل .. في مواجهة ألمه الخاص .. أو الحل المناسب لإنهاء مشاكله الشخصية ..
ولذا يبدو وكأنه يتصارع مع نفسه ..

obeikan.com

الفصل الحادي عشر

السر .. لم يعد سرا

ذقت الطيبات كلها فلم أجد أطيب

من العافية ..

وذقت المرارات كلها فلم

أجد أمر من الحاجة إلي الناس.

علي بن ابي طالب

****

توجه

مدحت إلي إدارة المستشفي .. فقد كان عليه سداد مبلغا من المال .. تحت الحساب .. من قيمة فاتورة العلاج ..

وكانت ندي قد تماثلت للشفاء .. وقرر لها الطبيب المعالج الخروج بعد أسبوع .. وقد اطمأن أنها لا خوف عليها من الخروج .. وأن حالتها مطمئنة .. كما عادت إلي وجهها النضارة .. والإشراق .. وعاد البريق إلي عينيها ..

وجلس مجدي علي حافة الفراش .. إلي جوار أمه .. بينما راحت مي تلهو بالدبدوب الجديد الذي اشتراه لها والدها ..

وأمال مجدي وجهه .. ليقترب من وجه أمه ..

وقال لها هامسا :

- **أريد أن أخبرك أمرا يا أمي ..**
- **ولماذا الهمس يا مجدي .. لا أحد معنا في الغرفة ..؟! ..**

سألته الأم باسمة ..

استطرد مجدي .. همسا .. فهو يعتقد أن ما سوف يقوله لا يقال إلا همسا !! .. فهم يقولون أن للحيطان أذان :

- **كنت ألهو و ألعب مع مي .. وجمال .. وأحسست بالعطش .. فنهضت واتجهت إلي المطبخ لكي أحضر كوبا وأحضر زجاجة الماء من الثلاجة .. ولكنني توقفت عندما تناهي إلي أذني صوت بابا .. وصوت خالتو عفاف .. قادما من المطبخ ..**

وتساءلت الأم .. ولكن في نبرة لا تعني شيئا محددا:

- **وماذا كانا يفعلان في المطبخ ؟! ..**

فأجاب مجدي .. وقد وضع يده فوق شفتيه .. وكأنما لا يريد للكلمات أن تتبعثر أو تتناثر بعيدا !! :

- **كانت خالتو تصنع لبابا فنجان قهوة ..**

فضحكت ندي .. وقالت بنفس النبرة الهادئة :

- **هذا عن خالتو .. فماذا عن بابا ؟! ..**
- **لقد كان يقف أمام باب المطبخ .. من الداخل .. بينما كانت خالتو تقف أمام البوتاجاز ..**

وما زادت عن أن ابتسمت .. ناظرة إليه .. حتي يكمل ..

قال .. بنفس الاهتمام :

- **سمعت بابا يقول لها :**

" يا عفاف .. لقد تمكنت ظروفي مني من قبل .. فلم أكن أبدا .. ولا بأي حال من الأحوال .. مستعدا لأن أتحمل مسئولية بيت .. وزوجة وأولاد .. وحرمتني هذه الظروف منك .. ومزقت بفراقنا قلبي .."

وتجهم وجه الأم .. وجحظت عيناها .. وقطبت حاجبيها دهشة .. وتيقظت حواسها .. وتحول تراخيها في الإنصات .. إلي اهتمام شديد .. وعلقت عينيها بعينيه .. كأنما تطلب منه المزيد .. بالتفصيل !! ..

قالت :

- **ومن ثم ؟! ..**

استطرد مجدي .. وقد ازداد حماسه لرواية ما حدث .. فقد أحس أنه جذب انتباه أمه لسماع ما لديه من أخبار ..

قال :

فقالت له :

" يا مدحت .. لا تنسي أنك أنت .. من سمح لتلك الظروف أن تدمر كل شيء بيننا .. وقررت أن نفترق .. رغم دموعي .. ورغم بكائي .."

وكادت الأم أن تفقد أعصابها .. ودب في قلبها خوف ورعب .. وكادت تصيح في ابنها .. " هيا بسرعة .. قل ما سمعت .. ولا تنسي حرفا واحدا .. بل أسرع في الحديث .. قبل أن أفقد عقلي !! .."

وأرهفت السمع .. لم تكن تسمع بأذنيها فقط .. بل كانت تستمع إليه .. بأذنيها .. وعينيها .. بكل جسدها .. بكل كيانها ..

أضاف الابن .. سعيدا باهتمام أمه بما يقوله !! ..

قال أبي :

" والآن .. لقد زالت الظروف التي حالت بيننا .. ولن نفترق "

وانفجرت قنبلة في رأسها .. فتبعثرت .. وتناثرت أشلاؤها ..

" يا للمصيبة .. كلام في الحب .. وذكريات الغرام .. ومزاد علني .. يعرضني فيه مدحت .. زوجي .. حبيبي .. يعرضني فيه للبيع .. كما يعرض حياتي كلها .. وحبي .. وأولادي .. يعرضنا كلنا للبيع .. بلا ثمن .. بلا مقابل .. ولا يجد المشتري ..!! "

وأسقط في يدها ..

يا الله ..

واستتلي مجدي .. وهو لا يدرك أنه يقذف قلبها بسهام نارية .. قاتلة ..

قال باسما :

قالت خالتو :

" الآن يا مدحت يحول بيننا ما هو أكثر بكثير من ظروفك .. فلا تحاول .. أرجوك "

وعاشت ندي .. لحظات رهيبة .. بين الشد .. والجذب .. بين حديث زوجها يكيل كلمات الغزل والحب لصديقتها .. فينفجر في جسدها بركان الغضب والألم .. لخيانته لها .. وبين حديث الوفاء .. الذي تعلن فيه صديقتها رفضها القوي لهذا العرض المخذي من جانب مدحت لشراء ودها .. وإعادة الحياة لحب دفن منذ سنوات وسنوات .. والثمن هو قلب هذه المسكينة التي لم تعد تعرف .. ما هو الأشد إيلاما .. خيانة زوجها .. أم هذا المرض اللعين ..

وأكمل مجدي الحديث ..

قال أبي لها :

" وما يحول بيننا الآن ؟!"

وزلزلت الأم زلزالها .. أليس هناك ما يحول بينهما ؟! .. أينكر وجودي ؟! .. أ أنا نكرة يا مدحت ؟! ..

فماذا أكون إذا ؟! ..

وبيتي .. وأولادي ؟! ..

وقلبي .. وحبي .. وحياتي ..

أكل هذا لا وجود له ؟! ..

هواء ؟! ..

فضاء ؟! ..

أبعد هذا خيانة يا مدحت ؟! ..

وكان كل هذا كفيلا بأن يثير فيها إحساسا حزينا .. فأخذ تفكيرها يدور ببطء ..ويسدل علي انطباعاتها قناعا من الأفكار الكئيبة ..

ورغمها .. ترقرقت عيناها بالدموع .. وارتعش جسدها ..

بينما مضي الصغير يقص عليها ما حدث ..

قالت خالتو :

" بيننا ندي .. ولن أدع الأنانية تدمر صداقتي لها .. وتدمر حياتها .. وتدمر كل شيء .. "

وخرجت من المطبخ .. وكانت قد انتهت من إعداد القهوة .. وقدمتها له .. وأخذت فنجانها .. وراحت ترتشفه أمام التلفاز .. وقد استقرت في الفوتيل المواجه للتلفاز ..

وارتفعت حرارة الأم .. واشتدت نوبة الرعشة .. وخفق قلبها بشدة .. ولم تكن تدري .. هل هذه الأعراض من المرض .. أم بسبب هذا الخبر الرهيب .. وهذا الحديث القاتل ..

وفي براءة .. سألها الإبن :

- **هل تبكي يا أمي ؟! .. هل أغضبك حديثي ؟! ..**

فأجابته بسرعة وارتباك .. بعد أن أدركت أنه لاحظ دموعها التي تترقرق في عينيها .. قالت :

- **لا عليك يا حبيبي .. إن النساء يحببن البكاء .. فهن يبكين من الفرح .. كما يبكين من الحزن .. وقد تراهن يبكين بلا سبب معروف ..**

وضغطت علي شفتيها بقوة كي لا ترتعش .. وأغمضت عينيها لتمسك دمعها فلا ينسكب ..

وفي محاولة مستميتة .. استعادت الأم رباطة جأشها .. ومسحت براحتيها دموعها .. وبسرعة .. رسمت ابتسامة متكلفة علي شفتيها الجامدتين .. الجافتين .. وأمالت وجهه إلي وجهها .. وطبعت علي خده قبلة حانية .. وسألته .. بكلمات مرتعشة :

- **كيف تري خالتو عفاف يا مجدي ؟! .. هل تحبها ؟! ..**

فأجاب بحماس .. وبلا تردد :

- **أحبها جدا يا أمي .. إنها تحبني أيضا .. وتعتبرني كإبنها جمال ..**

وأسعدها أن تسمع ذلك .. وسألته بابتسام:

- **وماذا تري في بابا .. بعد هذا الحديث الذي نقلته لي الآن ؟! ..**
- **لا أعرف ما وراء هذا الحديث يا أمي .. لقد سمعت حديثا .. فنقلته إليك .. ولكن بابا هو بابا .. فأنا أحبه جدا .. ولا يعنيني ما سمعت !! ..**
- **هذا ما أحببت أن أسمعه منك يا حبيبي .. وعليك أن تنسي الحديث برمته .. فلا يسمعنه منك أحد ..**

قال مؤكدا :

- **أكيد يا أمي .. فلا تخشي شيئا ..**

وضحكت الأم مرة أخري .. وقالت مداعبة :

- **ولكن قل لي يا مجدي .. كيف حفظت هذا الحديث الطويل .. لو أنك تحفظ دروسك هكذا حفظ .. لكنت الأول في المدرسة ..**
- **يا أمي .. وماذا يفرق الأول عن الثالث .. ألم أكن الثالث .. في الترتيب علي المدرسة ؟! .. وعلي أي حال .. سوف أحاول أن أكون الأول .. من أجلك ..**

و طلبت ندي من إبنها أن ينسي هذا الذي أخبرها به الآن ..

ولكن ماذا عنها ؟! ..

هل يمكنها أن تنسي ؟! ..

هيهات ..

لقد تقلبت في فراشها حتي أصبح الصباح .. وتقلبت معها أفكارها .. وتشتتت ..

فقضت ليلة ساهرة حائرة أشد الحيرة .. مرتبكة أعظم الارتباك .. مفكرة محزونة .. تضطرب الخواطر في نفسها .. وتختلف .. وتزدحم ..

لقد أثار حديث إبنها مجدي .. وهذه الأخبار الرهيبة .. في قلبها عواصف مدمرة .. وزلزل في نفسها زلزالا يمزقها تمزيقا .. وحزنا يطيح بها .. ويهوي بكيانها إلي هوة سحيقة .. ويدفنها في قرار لا نهاية له ..

وكان الطريق ممهدا لرياح الشك أن تعصف بها .. فأصبحت ريشة خفيفة .. في مهب ريح عاتية .. تلعب بها وتلهو .. كيف شاءت .. وأصبحت فريسة لشك مدمر .. يلعب بأفكارها .. لعبا ..

وسرت في جسدها الواهن .. المريض .. رعدة عنيفة .. وكأن مرض السل اللعين هذا وحده غير كاف .. ويحتاج إلي هذه الرياح لكي تأتي بما لا تشتهي السفن .. فيأتي هذا الخبر .. لكي يقتلها قتلا .. ويقتل ما قد يكون في نفسها من أمل .. ويطيح بما قد يكون في قلبها من مقاومة وصبر .. وشملها اضطراب رهيب ..

وما يقتلها أنها هنا حبيسة هذا الفراش .. سجينة هذه المستشفي .. أسيرة مرض السل الذي لا يرحم ..

ولا تدري من أمر بيتها شيئا .. ولا من أمر زوجها أمنا ..

كم هي عاجزة ..

كم هي ضعيفة ..

لقد اشتمل اليأس عليها اشتمالا تاما ..

لقد شلت أفكارها ..

إنها وحيدة .. في هذه الغرفة البائسة .. مع هذا السرير اللعين .. تأكل نفسها حزنا .. وتذوب ألما .. لا تدري متي تغفو .. ولا تعرف متي تنهض فزعة مرتاعة ..

وأي كابوس مخيف هذا الذي أفزعها .. وزلزل جسدها حتي كادت تسقط مرعوبة من فوق الفراش .. باكية .. صارخة .. مضطربة .. خائفة .. يا لها من كارثة محدقة ..

إنني مندفعة إلي دوامة من الجنون .. لا منجاة منها ..

يا له من سجن بغيض رهيب في هذه الغرفة يخلي بينها وبين معرفة الحقيقة المرة التي تقع أحداثها السخيفة السمجة في بيتها ..

ويمر طيف عفاف في خيالها .. فيرسل بقعة مضيئة في نفسها .. ويرسل الحرارة والدفء إلي جسدها .. فيبعث فيه الحيوية والنشاط والجمال والقوة .. ويزيل هذه الظلمة الكثيفة التي كادت سحبها الثقيلة تغلف نفسها .. كما يمر شعاع الشمس .. فيضيء القمر .. أو يصل إلي الأرض .. فيملأ ربوعها نورا وسحرا وخضرة وأملا .. وبهجة .. ويخلصها من ظلمة شاملة .. باردة عاصفة ..

ما أجملك يا عفاف .. وما أنبلك ..

هكذا تحدثت ندي .. مع طيف عفاف .. عندما جال بخاطرها .. وهي وحيدة في فراش المرض .. في المستشفي ..

لم تضعفي أمام قلبك .. كيف تسني لك أن تكوني قوية هكذا ؟! .. منيعة .. وهو يحاول معك .. مرات ومرات .. أن يوقظ فيك الحب القديم .. يعيد إليك مشاعر دفنت .. لسنوات وسنوات ..

إلا أن محاولاته تنهزم .. أمام قوتك .. وعزيمتك ..

إلا أن توسلاته تتحطم .. أمام مبادئك وأخلاقياتك ..

أي روح عظيمة هذه يا عفاف .. تسكن جسدك ؟! ..

وأي نفس رائعة .. تحكم سلوكياتك ؟! ..

إن مثلك .. والله يا عفاف .. ليفتديها المرء بعمره ..

وأما عنك يا مدحت .. يا زوجي .. يا حبيبي .. فماذا أقول ؟! ..

لقد منحتك الثقة كاملة .. والمساحة الكبيرة من المكان .. والزمان .. لتجلس معها وتسامرها .. وتأكل معها .. وتشرب معها .. بل وتشاهدا معا برامج التلفاز المختلفة ..

لماذا ضعفت يا مدحت ؟! ..

ما الذي أوقظ فيك الحب القديم لعفاف ؟! ..

ولماذا اندفعت وراء قلبك ؟! ..

وماذا لو خاب ظني في عفاف .. واستجابت .. لمحاولاتك المتكررة ..
وإلحاحك اللحوح ؟! .. واندفعت هي الأخري .. وراء قلبها ؟! ..
يا إلهي !! ..
يا ويلي !! ..
أحمد الله أنه لم يحدث ..
لكنت تركتني إذن يا مدحت .. محطمة الفؤاد .. خائبة الأمل .. ملتاعة النفس .. محزونة .. مكتئبة ..
جثة هامدة ..
هل أعاتبك علي ما فعلت ؟! .. هل ألومك علي محاولة هجري ؟! ..
هل أصارحك بأنني غاضبة منك ؟! .. بل أكثر من غاضبة .. أم واجدة عليك ؟! .. بل أكثر من واجدة ..
هل أثأر منك .. لكرامتي ؟! .. وكيف أثأر لكرامتي التي أهينت .. وأمام أطفالي !! ..
هل أثأر لحرمتي .. وحرمة بيتي .. التي أنتهكت ؟! ..
هل ألقي حجابا رقيقا علي أحزاني و آلامي ؟! .. وأمضي قدما في حياتي فلا أظهر عذابي .. ولا أجهر بيأسي ..
هل أدع سياط الشك تلهب ظهري؟! .. وتمزق نفسي ؟!
هل أقابل حبيبي بشفاة ضاحكة .. وقلب باكي ؟! ..
وهذا التكلف والتصنع .. ألا يقتلني ؟! .. ألا يذهب بعقلي ؟! ..
وماذا يبقي لي .. إذا ذهب المرض بجسدي .. وذهب شكي في حبيبي بعقلي ونفسي .. وأملي .. وماذا يبقي لي غير الأسي .. واليأس ؟! ..
ألا يجف ينبوع الحياة في أعماقي بسبب التصنع والتكلف ؟! ..
أكنت تعتزم حقا يا زوجي الحبيب .. أن تهدم هذا المعبد .. الذي بنيناه معا .. وأناره الله لنا .. بأولاد .. من أجمل ما يكون الأولاد !! ..

أكنت تقبل حقا أن تمزق قلبي .. وتدمر حياتي .. وتتركنا أطلالا .. وأنقاضا ؟! .. وأثرا بعد عين ؟! ..

أتتركني .. أقاسي آلام المرض .. وأي مرض ؟! .. ويطيب لك أن تغازل .. وتكيل كلمات الحب .. والعشق .. لحبيبة قلبك .. بينما السعال يقتلني .. واليأس من الشفاء يعذب نفسي ..ويشقيني ..

وهتفت من قلب مكلوم .. فجاء صوتها من أعماق اليأس البعيدة :

- **لقد انتهي كل شيء !! .. لقد جاء الوقت الذي أتمني فيه الموت !! .. فلا أجده !! .. وبدلا منه تحيط بي حتي تكاد تخنق أنفاسي .. حياة غبية .. بائسة .. لا طعم لها .. لا لون .. ولا رائحة !! ..**

أهكذا تضعف يا مدحت .. أمام العاطفة .. وينهزم عقلك علي رجاحته ؟! .. ما أضيعني يا حبيبي .. حين أكتشف أنني لا شيء في حياتك !! ..

الليل طويل ..

الثواني ثقيلة ..

الوحدة قاتلة ..

المرض مذل ..

ماذا تراني فاعلة يا حبيبي ؟! ..

هل أكرهك حتي الموت ..

هل أصيح فيك .. وأترك المقص يعمل في ملابسك .. فيمزقها إربا إربا .. وقمصانك .. وسراويلك .. وألقي بك .. وبهم .. من النافذة ؟! .. فتمضي مع من تحب ؟! ..

كلا .. فلن تذهب معك ..

لقد رفضت حبك .. ورفضت قلبك ..

يا للهول ..

لقد بعتني أنا .. واشتريتها ..

واشترتني هي .. وباعتك !! ..

يا للمهزلة ..

اسعفيني يا عين .. وبالدمع جودي ..

أخفق يا قلبي .. وأبك معي ..

ولكن أبكي ماذا .. هل أبكي ما مضي من العمر مع حبيبي .. هباء ؟! ..

أم أبكي ما هو آت .. من انعدام الثقة .. وفقد الأمل .. والقلق علي المستقبل ..

لماذا يجافيني النوم ..

لماذا لا يصبح الصباح ..

لماذا لا يتوقف قلبي .. وتغمض عيناي .. إلي الأبد ..

لن يمر يوم دون ألم ..

ولن تمر ليلة دون كوابيس ..

أه ..

الحلم ..

ومدحت ..

إنه لا يجيد السباحة .. ولقد مددت له يدي لكي يأخذها .. ويصعد .. وينجو من الغرق ..

لماذا لم يفعل ..

هل كان يرغب في يدها هي ؟! .. لتنقذه ؟! ..

ولكنها لم تفعل !! ..

أجل .. إنني أذكر ..

فلم تمد عفاف يدها له ..

لقد اكتفي بأن ينظر إلي ..

يا إلهي ..

لقد كانت عفاف تقف إلي جواري ..

لقد كان ينظر إليها هي ..

ماذا كان ينتظر ؟! ..

ربما كان ينتظر منها أن تلقي له حتي ولو قشة .. يتمسك بها فلا يغرق ..

ولكن عفاف ضنت عليه حتي بالقشة !! ..

وتركته يختار .. بين يدي أنا .. أو قاع البحر !! ..

يا إلهي !! ..

يا عفاف .. كم كنت عظيمة .. حتي في حلمي !! ..

كم أحب أن تضمك ذراعاي .. بقوة .. وأبكي .. كما لم أبك من قبل .. في حضنك القوي ..

ولكن .. هل أستطيع القطيعة .. هل أستطيع أن أفعل هذا فعلا بثيابك ؟! .. فألقيكم معا من النافذة ؟! ..

هل أستطيع الفرار منك .. ومن حبك ؟! .. ومن حياتك كلها ؟! ..

إنني لا أراني إلا ضعيفة .. وجبانة ..

ضعيفة .. فلا أقوي علي هجرك .. والبعد عنك ..

جبانة .. عن مصارحتك .. بخيانتك لي .. وبالإثم الرهيب الذي إقترفته في حقي .. وفي حق حبي لك .. وفي حق أولادي .. وفي حق بيتي ..

جبانة عن الإعتراف لك بأنني أعرف كل ما كان منك لعفاف .. وما كان منها لك ..

إنني أكرهك يا مدحت .. أكرهك حتي الموت ..

يا لي .. ويا لغبائي الفظيع .. فأنا أحبك حتي الموت !! ..

يا رب ..

ألهمني الصبركل الصبر .. حتي أصبرعلي هذه المحنة القاهرة ..

وألهمني الحكمة .. حتي أمر منها بسلام ..

وخطر في بالها خاطر رهيب .. مرعب .. أطاح بعقلها .. أو كاد ..

يا رب يا ستار .. أستر يا رب ..

إلي ماذا وصل معك مدحت يا عفاف ؟! ..

إن الفرصة له واتية .. والفضاء واسع .. ولا أحد يخلي بينكما .. ولا رقيب يقلقكما .. ولا شاهد تعملان له ألف حساب ..

والجو مهيأ لكل شيطان .. مهيأ لأسوأ الأفكار ..

أرأيت يا مدحت ؟! ..

أرأيت ماذا فعلت بي .. بهذه الكلمات التي نثرتها علي مسامع عفاف .. بغير حساب ؟! ..

فإذا كانت كل قطرة مطر تروي بذرة .. وتأتي خيرا .. فإن كل كلمة مما قلت لها .. تروي إثما .. وتأتي شرا .. ومنها قد تكون الينبوع الحقيقي لشقائي .. وضياعي .. ينبوع لن يجف .. ما حييت !! ..

إني أنظر إلي غدي .. فيتراءي لي كطريق لاهب .. ضيق .. كئيب ..

فأي شيطان أضلك يا مدحت .. لكي تفعل كل هذه الآثام ..

أكاد أجن .. أكاد أجن ..

كلا .. كلا .. كلا ..

ليست عفاف .. ليست عفاف من تفعل هذا ..

ليست عفاف من ترتكب هذا الإثم الرهيب ..

إهدأ يا بالي .. ولا تجزعي يا نفس .. ولا تفارقني يا عقلي .. ولا تقفز يا قلبي من بين أضلعي ..

فلو كان ليثا .. يريد أن يهجم علي فريسته ليزدردها ازدرادا .. فإن المرأة لا تغلب .. إلا إذا أحبت .. ولا تقهر .. إلا إذا أرادت .. ولا تذعن .. إلا إذا رغبت في الإذعان ..

وإن عفاف فوق كل هذه الشبهات ..

والآن .. فلأهدأ نفسا ..

ولأحاول أن أجمع شتات نفسي ..

وأرتب أفكاري ..

فهل أصمت .. وأحتمل في سبيل أولادي .. وبيتي .. وحبي .. وزوجي .. ونفسي .. أحتمل أقسي وأمر ما يمكن أن تحتمل المرأة .. من مشقة .. وألم .. وتضحية ..

أحتمل خيانة زوجي لي .. علي مرأي من أولادي ؟! ..

أحتمل نكران زوجي لي .. ونكرانه لوجودي ..

هل أصيح .. أصرخ .. أثور .. أجن ؟! ..

هل أخفي في بطني السر .. الذي لم يعد سرا ؟! ..

هل أقابل زوجي بالأحضان .. والقبلات ..

أحضان باردة ..

وقبلات جافة ..

وأترك له قلبي .. يكيل له الخيانة .. والطعنات ؟! ..

هل أدعي السعادة .. في النهار .. وأذرف الدمع شلالا .. في المساء ؟! ..

هل أضحك له سعيدة مسرورة .. وأنا معه .. فإذا خلوت لنفسي .. بكيت .. حتي ينفذ مني البكاء ؟! .. وتذبل عيناي .. ويتآكل عمري ..

هل أتركه .. هل أهجره .. وأفر منه إلي حيث لا خيانة .. لا نفاق .. لا طعنات .. لا بكاء .. لا ندم ..

وإذا سلمت لأفكاري .. وقررت أن أهجره .. وأن أنساه ..

فهل أستطيع ذلك ؟! ..

يا لضعفي .. يا لغبائي .. يا لجبني ..

بل .. يا لقلبي ..

إنني أشتاق إليه منذ الآن .. إن حبه يملأ كياني ..

إنني لا أستطيع أن أخلو إلي نفسي ساعة من نهار أو ساعة من ليل .. إلا وهو معي .. أمامي .. ولا أسمع في الدنيا إلا منه .. ولا أري في كل الناس .. إلا شخصه ..

لقد ملأ علي حياتي .. بل هو حياتي ..

لا مفر منه .. إلا إليه ..

ولا حياة لي .. إلا به ..

إنه قلبي الذي ينبض .. وعقلي الذي يفكر .. وعيني التي تري ..

ولماذا أهرب ؟! ..

كلا .. لن أهرب ..

كيف أهرب وأترك هذا القلب الذي أعشق .. يفلت مني .. ويهيم بغيري ..

وأدع غيري يهيم به ؟! ..

علي إذن أن أوطن نفسي علي البقاء .. ولأصارع الغضب .. فأقهره مرات .. ويقهرني مرات .. ولأسعد أحيانا .. ولأبكي أحيانا أخري ..

المهم ألا أفعل شيئا يذهب بي .. إلي ما لا أحب ..

المهم أن أحتضن حبيبي أخر اليوم ..

المهم أن أحتضن أولادي أخر اليوم ..

المهم أن يحتضنني بيتي أخر اليوم ..

" تمت بحمد الله"

رقم الإيداع :

1451674

2015/10/27

obeikan.com

صدر للكاتب

1 - الماضي يعود دائماً	رواية
2 - هل أغفر ؟	رواية
3 - الحب الحقيقي	كتـاب
4 - عصيـر الخـيـانة	رواية
5 – ويجا	مجموعة قصص قصيرة

obeikan.com